

اقْرَأْ

رسالة الوحيّ الأولى

حاتم سلامة  
اقرأ رسالة الوحي الأولى  
غلاف / خديجة يونس  
مدقق لغوي أ. محمد فهمي  
رقم إيداع ٢٠١٦/٢١٩٩ ط١  
الترقيم الدولي / ٩-٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

---

ليليت للنشر والتوزيع  
الإشراف العام / إيمان سعيد

٠١٢٢٤٢٧٢٣ - ٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢

[lilitepublishing@gmail.com](mailto:lilitepublishing@gmail.com)

[www.lilithbook.com](http://www.lilithbook.com)

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية .

# اقراء

رسالة الوحي الأولى

حاتم سلامة



ليلين للنشر  
والتوزيع

obeikandi.com

## الإهداء

إلى الذي كان يسعد حينما يرى بين يدي كتابًا..  
إلى الذي كان يحب أن أقرأ عليه ليقوم لساني..  
إلى الذي كان يقول لي: اقرأ كل شيء وأي شيء حتى لو  
وجدت ورقة في الأرض فالتقطها وقرأها!  
إليك يا أبي أهدي هذا الكتاب الذي أعلم أنك لو كنت حيا  
فلن يكون هناك من هو أسعد به منك، وأشدهم فرحًا به  
وأكثرهم حفاوة بما فيه.. إلى روحك الطيبة  
وشخصك الأبّي  
وسمّتك العاقل..  
أهدي هذه السطور.

obeikandi.com

## مقدمة

كان شيئاً رائعاً ما رأيته من الشباب التونسي عقب ثورتهم المحيطة، حينما خرجوا بالهئات رافضين ما أعلنته وزارة الثقافة عن تأجيل معرض الكتاب لظروف تراها..

كانت تظاهرة حضارية أبهرت المشاهدين والممارين بشارع (الحبيب بورقيبة)، أكبر شوارع العاصمة التونسية، الذي تحول إلى مكتبة عمومية ذات سماء مفتوحة!

كان المشهد يسر الناظرين.. فالكتب تنتشر هنا وهناك، والقراء يشكلون مجموعات في جنبات الطريق، تهيم مع الكتب بشتى ألوانها وفنونها، أدبية وسياسية وفكرية واجتماعية وعلمية، كل منهم يجد هواه ورغبته في هذا المشهد الفريد، يوزعون الهدايا، التي لم تكن غير الكتاب! الكل شارك شيب وشبان، حتى الأطفال كانوا في صحبة ذويهم، أعداد هائلة من الطلبة والمثقفين، والوجوه الفنية والأدبية الشهيرة، جاءوا ليشاركوا في عرس الكتاب، كثيرون منهم كانوا يحملون نسخاً من أعمالهم يوزعونها على محبيهم وروادهم، حتى المكتبات كانت حاضرة، والمقتنون للكتب يصطفون أمامها في طوابير مزدحمة،

وقد تطوع بعضها بتوزيع الكتب المجانية للعابرين والقادمين، ولم ينته المهرجان بانتهاء النهار، وإنما أصر المثقفون أن يرسموا لنا لوحة رائعة بالليل، كما رسموها بالنهار.. فعلى أضواء الشموع، وحتى ساعات متأخرة من الليل، ظلت الكتب شامخة تزين الطريق ببنائها المرصوص، وحولها هؤلاء العشاق من القراء والمثقفين، الذين أصروا على تبليغ فكرتهم ورسالتهم لا للشعب التونسي وحده وإنما للأمة العربية كلها..!

إنهم يصرون على إبهارنا بإبداعهم وإرادتهم كما أبهرونا بثورتهم..! لأول مرة في تاريخ تونس.. إن لم يكن في تاريخ العالم كله، نجد من يتظاهر من أجل الكتاب..!

ما أسعد أمتنا بهذه النماذج الوليدة التي ستنتصر علي يديها دعوة القراءة في يوم من الأيام، ما دام في قلوبهم هذا الحماس الجسور والهمة المتقدمة والتصميم المُلح لأحياء الحب الذي فقدناه لعالم القراءة والاطلاع..

وأمام هذا الرغبة الرائعة من هذا الشباب الأبي، لابد لنا من إطلالة على الواقع الأليم..حتى نستنهض الهمم ونوقظ الوعي الغائب..إن الشعوب من حولنا نهضت وتقدمت وارتقت وعلت راياتها في كل مناحي الحياة، أما نحن.. فمازلنا نغط في نوم عميق، وثبات سحيق، ولا زالت تكبلنا خيوط الجهل والتأخر والظلام..وما زلنا غارقين في هزائمنا متعثرين في أحوالنا، سائرين على درب الفشل والانحدار، صار

العالم الواحد فيه عالم ثالث وهو العالم الجاهل المتأخر الذي يعبر  
عنا وصار عنواننا لنا.. فقل لي بربك: كيف السبيل إلى الخلاص؟!

الرجل الغربي.. يملك عقلا بناءً، ونفسا إيجابيةً، وفكرًا ساميًا، ومعرفة  
هائلة، وثقافة غزيرة، بينما الرجل العربي غائب عن وعيه، فاقد  
لذاته، خامل كسول، سلبي مأفون، متأفف ذهوق، لا يحب العمل،  
يكره النشاط والانطلاق، ويعشق الركون والسكون، لا يسعى للبناء  
والارتفاع.. فقل لي بربك كيف السبيل إلى الخلاص؟!

نريد أن نهض، ونريد لأفكارنا أن ترتقي، ولحياتنا أن ترتفع، ولعقولنا  
أن تتنور.. هذه العقول التي تحتاج إلى ثورة أكيدة للتخلص من  
هذا الواقع الكئيب والانطلاق نحو آفاق مشرقة ودنيا سعيدة ناهضة  
مبهجة متقدمة.

شيء مؤلم أن يبلغ العالم ما بلغ من التقدم والتفوق في شتى ميادين  
العلم والمعرفة، بينما نحن وإلى هذه اللحظة، ما زلنا نفكر ونبحث  
كيف نحیی قيمة القراءة؟ وكيف ندرّب عليها ملايين أمتنا؟ وكيف  
نوقف انحدارها المتفشي في شعوبنا؟!

وإذا ما كانت هناك محاولة نقيس بها أنفسنا حتى نعلم الفارق  
بيننا وبين الأمم الراقية، فليس علينا فقط إلا بمقياس القراءة، الذي  
ينبؤنا بنتيجة مفاجئة.. حينما نرى القوم قد سبقونا لا بعقود  
أوسنوات وإنما بقرون وأزمان.. !

لقد أصبحنا ذيو لا للأهم، وفي مؤخرة الريب، لأننا أهملنا دعائم الحياة الأساسية والتي تأتي القراءة من أهمها وأعمقها وأشدّها أثرًا! تلك القراءة التي هجرناها ونسيناها ومللناها، وقد كنا بالأمس قادتها وأصحابها وربائبها.. فنحن الذين نزل علينا من دستورنا الخالد أول ما نزل، أمر الله تعالى بالقراءة (اقرأ)، نحن الذين عرّفنا قيمة القراءة ومقام الكتاب وأخرجنا في ميدانه أعظم تراث عرفته البشرية.. مازال إلى اليوم شاهدا بنبوغ أمتنا وقيمة ما قدمته لبني الإنسان، حتى بدأت طلائع التآمر العالمي تخنقها وترميها بالأرزاء لتنتكب وتتراجع وتتخلف عن مسيرة الحضارة.. وهو ما كان وما زال.. فهل نقبل بوجوده على مدار أعمارنا، أو أن يخلد في حياتنا، أم نحاول اليقظة والوثوب؟ فنقتحم المكتبات، ونصاحب الكتب، ونقلب الصفحات، وندمن القراءة، ونعشق السطور، حتى نعرف ونتعلم ونبدع، ونسابق الدنيا في مدنيّتها وتقدمها..!؟

نريد في أوساطنا أن نرى ذلك (القاريء) الذي يصاحب الكتاب في حله وترحاله، في نومه ويقظته، في قيامه وقعوده، لا يفارقه ولا يغفل عنه، فهو روحه ومتعته حياته..! علينا أن نثير في نفوسنا هذه الغيرة الشريفة، ونلهب فيها روح الحماسة، كلما طالعنا وقرأنا حال الغربيين وأخبارهم مع القراءة، وهيامهم بالكتاب الذي يعدونه ضرورة حياتية لا يمكن الاستغناء عنها.. لماذا لا نكون أمثالهم؟ بل لماذا لانتفوق عليهم؟، إن تاريخ الكتاب يعرفنا أكثر مما يعرفهم، ودنيا القراءة تنتسب لنا أكثر مما تنتسب إليهم!.

وهذا الكتاب الذي بين يديك ما هو إلا إطلالة طريفة حول القراءة وعالمها ونوادرها وعشاقها، ودعوة حثيثة إلى تبني القراءة كمشروع حضاري تلتزم به شعوبنا لتعدل عن تراجعها.. لقد جاء ما فيه محفزاً للنفوس ودافعا للعزائم، وشاحدا للهمم لتقبل على القراءة وتصاحب الكتاب، أما طبيعة مادته فسياحة أدبية، ونشوة علمية، ومتعة ثقافية، تحلق بالقاريء في آفاق المعرفة، وتطوف به بين عالم الكتب وقصص الكتاب وقضايا القراءة ودنيا المطالعة.. ولم أركز فيه على الطرق العلمية التي يتبعها البعض في تنمية مهارات القراءة، فهذا موضوع آخر أدلى فيه الكثيرون بدلوهم وإن كنت أشرت لليسير منها، لكنني أردته أن يكون حراً في تنقله رشيقاً في خواطره، يعزز من قيمة القراءة، ويستعرض نقاطاً هامة في عالمها ومسيرتها..

ربما أسهم كثيرون في هذا الميدان من أصحاب الأفكار النيرة والأقلام النابهة، وربما يقودك هذا أن تعترف عن كتابي، فلا تمتد إليه يديك!.. لكنني أعدك أن تجد فيه الجديد..

وأعدك أن يجعلك من عشاق القراءة..

وأعدك أن تولد سطوره في نفسك حب الكتاب..

وأعدك أن يلهب حماسك للعلم والمعرفة..

بل أعدك بعد الانتهاء منه أن تهتدي وحدك لطريق التغيير والتفوق والتميز.

سؤال فولتير: مَنْ سيقود الجنس البشريّ ؟  
فأجاب:(الَّذين يعرفون كيف يقرؤون).

حاتم إبراهيم محمد سلامة

جدة / ٢٠١٦

## الكتاب في حياتي

كنت واحدًا من الذين أحبوا الكتاب في صغرهم، وشبوا على صداقته.. ولا شك أن هذا لم يكن شيئًا فطريًا وإنما له أسبابه الواقعية... فقد خرجت إلى الدنيا في أسرة تُحب القراءة وتقتني الكتاب، وكان والدي أديبًا مثقفًا، وكان أخي الأكبر يدفعه تدينه للقراءة، ويتعهدني منذ حدثتني بالقصص والكتيبات الصغيرة، ويناقشني فيها بعد الانتهاء منها، ويسر لي ما تعثر علي من ألفاظها، ويطلب مني أن أحفظ أسماء المؤلفين وأتعرّف عليهم، تمامًا كما تعرّفت على كتبهم، وكنت أراه يحتضن الكتاب صباحًا ومساءً، ولا ينفك هذا المشهد من مخيلتي، بل أذكر ما كان أبي يفعله وهو المثلث والأديب، الذي شجعنا على هذا المنحى وكلما رأى في يد أحدنا كتابًا، سأله ما هذا؟ وما موضوعه؟ ويأخذ في مناقشته والحوار معه، والتعرّف على ما تحمله صفحاته.. وكنت حينما أرى هذا الاهتمام وهذه الإشادة من والدي يستقر في نفسي أن هذا شيء قيم عظيم، وهو ما دفعني للأخذ به حتى أحظى بمناقشة والدي وإقراره وامتنانه.

كنت وأنا صغير أعرف كثيرًا من أسماء المؤلفين والكتاب الذين قرأت كتبهم، وهي التي لا يعرفها أمثالي من صغار السن، فكنت أعرف (عبد الحميد جودة السحار) من كتابه (عمر بن عبد العزيز) و(عبد التواب يوسف) من كتابه عن (عمر بن الخطاب)، و(علي أحمد

باكثر) من قصته وإسلاماه..وأذكر كذلك يوم أن اختارت المدرسة بعض الطلاب في بدايات المرحلة الابتدائية ليعطوهم بعض القصص والكتب وكنت واحداً منهم فمنحوني قصة تحت عنوان: (الضعيف يغلب القوي ) وكانت حفاوتي بها شديدة، لأنني كنت أريد أن أحل هذا اللغز، كيف يغلب الضعيف القوي؟ فلما انتهيت منها عرفت أن القوة الحقيقية في الذكاء والتفكير والحيلة..!

وأذكر كذلك في مرحلة طفولتي وحينما دخلت الصف الأول الابتدائي. كانت حفاوتي بالكتب كبيرة، حتى أنني ذهبت يوماً للمدرسة وعبأت حقيقتي بكتب ثقافية وعلمية من كتب أبي لا أذكر منها إلا كتاب معجزة القرآن للشيخ (الشعراوي) وبعض الكتب الأدبية الأخرى.. ولاحظ المدرس أن حقيقتي مكتنزة ولا يمكن أن تكون حقيبة طالب في أول ابتدائي فنادى عليّ في حجرة المعلمين، وأخذ الحقيبة وفتحها وأخرج ما فيها من معجزة القرآن وأخواتها، وصار يضحك ومن حوله من المعلمين يضحكون ويسخرون من فعلتي ويقول لي: إيه دا ياعم حاتم ومعجزة القرآن كمان؟

ضايقني الموقف وملأني حرجًا وخجلًا لازمني في حياتي، وكم كنت أتمنى أن يشجعني بدلاً من سخريته المريرة..!

تلك الظروف وما إليها هي ما أكدها علماء النفس.. كأحد أهم أسباب ترغيب الطفل في القراءة والتي سميت بالقدوة القارئة..فإذا كان البيت عامراً بمكتبة ولوصغيرة، تضم الكتب والمجلات المشوقة،

وكان أفراد الأسرة، ولا سيما الأب من القارئین والمحبين للقراءة، فإن الطفل سوف يُحب القراءة والكتاب لأنه حينما يراهم يقرؤون سوف يقلدهم ويمسك بالكتاب وتبدأ علاقته معه.

إن إهمال الكتاب في محيط الأسرة، نابع من عدم إيمان أفرادها بالقيمة المعرفية، وأنها نواة التحضر وطريق الرقي، والسبيل الأمثل لمستقبل الأجيال.

أما صباي فقد قرأت كثيرا من الكتب وولعت بالأدب والروايات وقرأت لنجيب محفوظ وطه حسين والعقاد وإحسان عبد القدوس والمنفلوطي وسيد قطب والقرضاوي، وتأثرت بكتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع حتى أنني اشتريتها كلها وبعد أن انتهيت منها حزنت كثيرا لأنه لم يكتب شيئا آخر.. كما عشقت التراجم وقرأت كثيرا منها وولعت باقتنائها ووجدت فيها من الدروس والفائدة أكثر مما وجدت في غيرها..

وكان أكثر الكتاب تأثيرا في حياتي هو شيخنا الغزالي رحمه الله الذي قرأت له كثيرا، ومن فرط إعجابي به بدأ أسلوبه يظهر في كتاباتي، فمن كان يقرأ لي يخبرني أن روح الغزالي طاغية على قلمي، ولم يكن ذلك شيئا متعمدا وإنما كانت بلاغة الرجل وسحر كلماته وطريقة بيانه تسيطر على مزاجي وتأسر نفسي ووجداني..!

إن حياتي كإنسان لا أتصورها بدون الكتاب، فهو ضرورة تمامًا كالطعام والشراب، واليوم الذي يمر بدون قراءة أوتصفح، أتشج عليه السواد، وأنتحب فيه بالبكاء، ويعتصر قلبي بالحزن والألم، لأن هذا اليوم حذف من حياتي، ومر وكأنه لا شيء... لا إضافة... لا قيمة... لا جديد! وأتمثل قول القائل الذي عبر عن محنتي:

إذا مر بي يوم ولم أقتبس هدى ولم أستفد علمًا فما ذاك من عمري

إن هجر القراءة والثقافة والعلم جريمة يقترفها الإنسان في حق نفسه، وترتكبها الأمم في شعوبها ومستقبلها، فالإنسان الذي ميّزه الله تعالى بالعقل ولا يرعى نعمة الله فيه، فهو جاحد لها، منكر لفضلها، واستحق هذا التأخر الذي يجلب الذل والهوان.

تقول (مستغامي): (الكتاب الجيد هو الذي عندما تنتهي من قراءته تعيد النظر في حياتك، وإذا بقيت جملة في ذهنك، يكون الكتاب قد نجح)

وما أكثر الكتب الناجحة في حياتي، والتي أثرت في نفسي ودفعت همتي وأشعلت حماسي، ومن هنا كان التفریط فيها أو الغفوة عنها أمرًا مستحيلًا، فليس من السهل أن أفرط في كتاب من كتبي.. فللكتاب في نفسي مكانة كبيرة، وبينني وبينه عاطفة قوية، وارتباط

نفسى عميق.. أشعر أنه صار جزءاً منى وكياناً من عالمى، فهو ملكى ويخصنى وحدى، وأنه صارت بينى وبينه مودة كبيرة وعِشرة وثيقة.

وحينما يمضى الزمن على أحدهم، فيعتريه البلى والعطب، أهرو ل لإصلاحه وعلاجه، كما أهرو ل لمداواة أهلى إذا مرض منهم أحد، وتمتن نفسى حينما يصير بحالة جيدة، ويعود إليه بهأؤه الذى كان عليه.. وكثيراً ما أقول لأصدقائى: (إننى دكتور) أقوم بعمليات جراحية ناجحة، وأكون على أعلى مستوى بلغه الجراحين النابغين.. فأنا أعالج الكتب التى يمتد وجودها أكثر مما يمتد وجود الإنسان.. فالكتاب يبقى والإنسان يفنى .

إننى أدأوى هذه الكتب المهلهلة البالية التى تبعثت أوراقها وتشتت صفحاتها، حدث هذا مع أكثر من كتاب، ساقتها الأقدار إىّى لأمنحها حياة جديدة وأعيد لها شبابها ونضارتها القديمة.. وفى مكتبى ركن خاص لأدوات الجراحة من الغراء والأغلفة والخيط والمشرط والمقص (والبلاستر).. مرضى كثيرون قدر لى أن أعالجهم وأؤهلهم لرحلة ثقافية جديدة، أأست معى أننى على حق حينما أقول: إننى دكتور.. !؟

ولوأن كتاباً ضاع منى، أظل طول حياتى نادماً على فقده، وربما أرثيه، وأعيش على أمل تلك اللحظة التى ألقاه فيها، ويعود إىّى كما عاد يوسف لأبيه!

أغرب ما في.. أنني لا أستطيع أن أستعير كتابًا لأقرأه، كما يستعير مني الكثيرون، فلا أستطيع الارتشاف من رحيق الكتاب إلا بتملكه، فالتملك لي يعني الإلهام.. ومهما تسامح معي صاحب الكتاب في إبقاء كتابه بحوزتي ما شئت من سنوات العمر حتى أقرأه، فإنني لا أستطيع أن أستوحي منه أي شيء، مهما طال عليه الزمن عندي إلا بتملكه!

أكره الاستعارة سواء مني أم من غيري، ولكن تصيبيني في بعض الأحيان لحظات أعتبرها فيما بعد من لحظات الجنون وفقدان العقل، حينما يطلب مني أحدهم كتابًا فأعطيته له.. ثم أندم على تلك اللحظة التي لبيت له فيها طلبه.. ثم أسائل نفسي: هل كنت مخدرًا؟ هل كنت تائهًا حينما فعلت ذلك؟!

حالة واحدة أذكرها.. هي التي أستطيع أن أضحى فيها بكتبي، وذلك حينما أجد شابًا محبًا للثقافة والأدب ويريد أن يقرأ.. لكنه لا يجد الكتب المناسبة ولا يقوى على شرائها.. هنا فقط.. لا أذكر وسعًا في مساعدته وتشجيعه، وتوفير كل ما يسهل طريقه إلى المعرفة والثقافة، شريطة أن يردها علي مرة أخرى..! وفي كثير من الأحيان تخونني فراستي، لأدرك مؤخرًا أنها رغبة زائفة عابرة لا قرار لها، لأبدأ بعدها معاناةً مريرة في استرداد كتابي، الذي لا يعود إلا بعد أن أحترق شوقًا إليه.. وكأن من ساعدته يُعاقبني على هذه المساعدة، وأذكر مرة أنني أغلظت القول لأحدهم حتى يرد إلي كتابي بعد طول استجداء، ونشأت بيني وبينه جفوة إلى الآن.. بسبب هذا الموقف الذي تسبب هوفيه بجهله لمعنى الكتاب في حياتي.

علمتني هذه المواقف، أن لا أضعف بعد ذلك، وأن أطلب كل راغب في القراءة والتثقف، أن يبادر بنفسه لشراء ما يريد من الكتب من ماله الخاص، حتى يشعر بجدية الأمر، ويصير الكتاب عهداً ومسؤولية في عنقه، ينبغي أن ينجز فيه ما أراد، وتستوي معزة الكتب في نفسي سواء ما قرأته منها وما لم أقرأه، فطالما صار الكتاب ملكاً لي، فقد جرت عليه مشاعر الملكية من الود والرباط والعاطفة.. وتكمن المصيبة لواضطررت لاستعارة كتاباً ثم تنشأ بيني وبينه هذه المشاعر، حيث أعاني صراعاً كبيراً قد ينتهي بالمصادرة والتأميم، لكن إيماني لا يفتأ أن ينتصر علي سطوتي.. فأرد الحق لمستحقه.. لكني لا أخفيك أنني مهوورٌ حزين النفس لفراقه!

وقد يضيع كتاب من كتبي.. ولا أذكر لمن أعطيته أو أين تركته، وأحزن لهذا النسيان، وتمر الشهور والسنون، لأجده في بعض زياراتي مستقراً عند أحد الأصدقاء، فتقر عيني وأشعر أن فقيداً قد رُد إلي بعد طول غياب، بل أشعر أن روحي قد ردت إلى جسدي بعد أن فارقت من يوم ضياعه، ويالها من صدمة حينما أستعيد كتابي من مُستعير، فأجده قد أعمل في صفحاته بالقلم الجاف يخط تحت كلماته، أو يدون شيئاً في هامشه، أو يكتب تعليلاً على حواشيه.. في هذه اللحظة.. لا أتمنى من دنياي إلا شيئاً واحداً، وهو أن أصرخ بعلوصوتي فأقول له: لعنك الله يا غبي.. وأشعر أنه تماماً كهذا الثور الهائج الذي شرد وتمرد على صاحبه وعاث في الحقول هرجاً ومرجاً، يقتلع الأشجار ويقضم النباتات، ويدمر البساتين، ويدهس

بأقدمه جمال الأزهار، لكنني لا أستطيع أن أقول ذلك، ولا أملك إلا أن احتسب الأمر عند الله، وأظل آسى على هذا الصنيع البشع، الذي لقيه كتابي المسكين، ولم يجد من ينقذه من هذا الوخز الأليم.

وهذا الإحساس العميق بالكتاب لم ينشأ مؤخرًا، وإنما هي حالة تولدت في نفسي منذ عهد بعيد، وأذكر مرة أنني صحت من النوم، لأجد أخي الذي علمني حب القراءة والمطالعة والاهتمام بالكتاب يتناول كوبًا من الشاي، ولم يجد شيئًا يضع عليه الكوب غير كتاب من كتبي، وكانت تتحدر من الكوب قطرات الماء التي بللت غلاف كتابي، انطلقت مفزوعًا لأنقذه من هذا الإيذاء، وجففته مما أصابه من بلل، وخطبته بجفاء وطالبته ألا يفعل ذلك مرة أخرى!

أما عن أصدقائي.. فهم يعرفون حُبي وشغفي بالكتب، وأن أفضل هدية يقدمونها لي هي الكتاب، وهذا يسعدهم كثيرًا، حيث لا يتجشمون عناء في شراء ما يبهظ ثمنه من الهدايا، فسعر الكتاب لا يكلفهم شيئًا.. أما أنا فيخونني التقدير حينما أهدي أحدهم كتابًا، وأظن أن فرحتهم به تعادل فرحتي.. وكثيرًا من الخطاب يأتي أحدهم فيسألني: لماذا أهدي خطبتي.. فأول شيء ينطبع في ذهني هو الكتاب.. فيمد شفثيه متعجبًا..!

لا زلت أذكر وأنا في مطلع شبابي وفي ريعان ولعي بالكتب، ذلك القصور المالي الذي منعني أن أشتري ما أحب من الكتب، والإصدارات.. لأن أغلب مصروفي لم يكن يبقى منه شيء للكتب،

وكنت أدخر منه شيئاً لشراء بعضها ولكنه لم يكن يكفي ليلبي  
نهمتي الواسعة..وقد علم والداي بهذه الوجهة فرأياها سرفاً لا قيمة  
له وحذراني من شراء الكتب والإنفاق عليها، لأنهما يريدان أن أقرأ  
ما لدي وهو كثير فلماذا أشتري غيره؟، وكان والدي يقول لي: هل  
قرأت ما عندك ؟ تكفيك كتب الدراسة فيها ما يغني لوأردت أن  
تقرأ!!، والحق أنها كانت ثقيلة جافة لا تغني عن شيء.. وكان أكثر  
ما يؤلمني أنني كنت أضحي ببعض الكتب فأبيعها لأصدقائي حتى  
أشتري غيرها من الكتب التي تشتتها نفسي.. وقد ضاعت مني هذه  
الكتب وما زلت نادماً على فراقها إلى الآن..ولما مرت الأيام وتحررت  
من غائلة المصروف.. صرت أشتري ما أريد، وأمتلك ما أشتهي، ولكن  
هذا الحرمان القديم أشعرتني بمحنة الأدباء والمثقفين وما يعانونه من  
مرارة الفقر والاحتياج..!

الكتب اليوم تتسبب في ضياع أموالي حسب ما يظن أهلي، مما  
يدفع زوجتي للسخط والضجر، وتناشدي أن أحافظ على نقودي،  
وتعتبر ذلك تبديداً، ولا أعرف بماذا أجيبها حينما أعود إليها في أغلب  
الأيام محملاً بالكتب، حيث أضع الحقيبة جانباً على استحياء، أملاً  
ألا تراها..ولكن لا مفر من رؤيتها، إنها لا تدري أن الأمر عندي تحول  
إلى شهوة جارفة لا يمكن السيطرة عليها، حيث أجد متعتي وغرامي..

نعم شهوة شراء وقملك الكتب، حتى ولو لم أقرأها.. وقد نمت هذه  
الرغبة في صباي، وحينما كان المعلم في المدرسة ينصحننا بقوله: (اشترؤا

الكتب قبل أن تكبروا وتتزوجوا فتداهمكم المسؤوليات والزوجة والأبناء، وساعتها لن تستطيعوا شراء كتاب واحد).

ولكنني ظللت أشتري وأشتري، حتى تكدست عندي أعداد ضخمة من الكتب، التي جعلت من أولويات دعائي، أن يمين الله علي بقراءة نصفها أربعها، أما قراءتها كلها فتحتاج إلى عصور ودهور، وأعمار فوق أعماري.. وكانت الكتب تصاحبني في كل مكان حتى أن والدي كانت تأمرني بفتح نوافذ الحجرة لأن رائحة الكتب سوف تسبب لي الأمراض، وتأملت حالي فإذا هو تمامًا كحال الكاتب والروائي البريطاني (هاوارد جيكوبسون) حينما قال:

(لا أتذكر كم كان عمري عندما بدأت بجمع الكتب، ولكن بحسب أقدم التواريخ التي كنت أسجلها أظن أنني كنت أبلغ من العمر اثني عشر عامًا، سأرضى بهذا، إنه عمر معقول، هنالك أشياء أسوأ بإمكانك أن تفعلها في هذا العمر.. لم يكن والدي واثقًا من موضوع الكتب، أعترض في البداية على إحضاري للكتب إلى المنزل، إلا في حالة إنهائي لكل الكتب التي أملكها، لم يكن والدي يفهم أنه بإمكان الكتب أن تجلس على الرف مغلقة، وتشبع رغم هذا حاجة لدى جامعها، ومع أنه لم يكن قارئًا، إلا أن كتابًا غير مفتوح بإمكانه أن يقوده للجنون، الأمر يشبه أن أطلب وجبة في مطعم، دون أن أكلها، ولكنني كنت أفكر في حتمية قراءتها، حتمًا سيأتي اليوم الذي أفتحها فيه، أشعر بالبرود بيني وبين تلك الكتب على الرف، ليس بإمكان

أحد أن يقرر عدم وجود تلك الساعة، تلك اللحظة التي سينكسر فيها هذا البرود، وأقوم بفتح تلك الكتب.

كانت والسدي قارئة، ولذلك تفهمت شغفي بجمع الكتب، ولكنها أيضًا كانت تحتفظ باعتراضاتها الخاصة بها، كانت تنزعج من رائحة الكتب، وتقول بأنها سيئة لدرجة أنه لم يعد أحد يأتي لزيارة منزلنا، ولكنني ذكرتها بأنها لا تحب الزوار من الأساس، اتفقت معي بهذا الخصوص، ولكنها أصرت على أنها لا تريد لسبب الرائحة أن يمنعهم من زيارتنا.)

وحينما أسافر، أصطحب منها ما أستطيع حمله، أما البقية فأوصي زوجتي أن تعتني بها، وتكون عليها أمانة لا تُفُرد في شيء منها، ولو أن أحدًا من أقربائنا استغل غيبيتي وطلب منها شيئًا فعليها أن تخبره: بأني أغلقتها وأخذت مفاتيحها..وأني حلفت عليها بالطلاق أن يقترب منها أحد..!

تستهويني الكتب الصفراء القديمة، وأشعر بلذة غامرة في اقتنائها، وأتمنى لو أن كل الكتب الجديدة طُبعت لتصير صفراء تسر الناظرين في هيئة الكتب القديمة، في لونها ورائحتها ونوعية الورق، وكلما انتمى الكتاب إلى زمن بعيد، كلما زاد قدره عندي، فلدي كتب تعود طبعتها إلى ما قبل مائة أو مائة وخمسون عام..ولو أنني ذهبت لشراء كتاب فوجدت طبعةً حديثةً وأخرى جديدة.

تجذبني القديمة وأفضلها على الجديدة، وتكون محظيةً عندي كما  
لوأنني اقتنيت أثرًا من آثار الحضارات القديمة.!

كان لدى والدي مكتبة جيدة.. كان أغلبها في الأدب، لم يتبقَّ منها  
إلا نذر يسير، وكلما سألت أمي أين ذهبت كتب أبي ؟ تقول فلان  
وفلان من أقربائنا كلما زارونا، لا يخرجون إلا وهم حاملون بشيء  
منها..ومن العجب أن واحدًا من هؤلاء الذين ذكرتهم لي، لديه اليوم  
مكتبة كبيرة، وكلما طلبت منه كتابًا يرفض أن يُعطيني شيئًا، ويخل  
عليّ به، فهو ليس على أخلاق والدي، الذي ترك مكتبته له ولغيره  
فاستباحوها ونهبوا ذخائرهما، أما الغريب.. أنه كان من لي عمُّ لا  
يعرف شيئًا عن الثقافة والأدب، ولا علاقة له بشيء من هذا الميدان،  
وكلما جاء لزيارتنا أخذ في يده نصيًّا من هذه الكتب، حتى أن  
والدي كان يتعجب ويقول: لا أعرف لماذا كان يأخذ هذه الكتب،  
وماذا كان يفعل بها.؟!

ولا أعرف حادثة مؤلمة في حياتي مثل حادثة الزهايمر فكانت من أشد  
الذكريات التي تثير دهشتي بقدر ما تزيد ألمي، والتي كلما خطرت  
بالي دعوت قائلًا: لعن الله الزهايمر..! وكيف لها أن تغيب عن بالي  
وألمها في النفس كبير، وجرحها غائر عميق.؟!

فأثناء تروسي لتحرير مجلة (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) في  
جدة، ذهبت إلى عملي في الصباح الباكر وبيدي مجموعة من الكتب  
أود النظر فيها لاستكمال بعض أفكارتي ومقالاتي.. وفي المصعد صاحمني

الشيخ (عبد الإله عجلان) وهو فقيه محقق وقاريء وله مؤلفاته ومصنفاته القيمة، نظر إلي وقال: ما هذه الكتب الجميلة؟ هل لي أن أتصفحها وأردّها إليك؟ قلت له: على الرحب والسعة، ولم يساورني القلق لأن الشيخ ممن يقدرّون الكتب ويعرفون كيف يتعاملون معها؟.. وبعد مرور أسبوع اشتقت إلى كتبي فطرقت بابه وقلت له: هل انتهيت من الكتب يا شيخنا الجليل؟ فقال لي: أي كتب؟ قلت له: الكتب التي أعطيتك إياها في المصعد...! فقال: لا أذكرها! فنظرت دهشًا وقلت في نفسي لعل الرجل يمزح، ثم نظرت في مكتبته فوجدتها ظاهرة أمامي، فقلت له: هذه هي كتبي، فقال: لا هذه كتبي أنا، ولا أذكر أنني أخذت منك شيئًا، ففزعت من قوله وكدت أجن من هذا الزهايمر المريع الذي أصابه؟ لقد تأكدت ذاكرة الرجل تمامًا، فماذا أفعل وكيف أتصرف؟ وأخذ الحوار بيننا يحتد فقلت له: لتحدث بهدوء.. هل تذكر الوقت والزمان الذي اشتريت فيه هذه الكتب فأجاب: إن أغلب كتبي قد اشتريتها منذ زمن بعيد، ولا أتذكر هذه الفترات البعيدة.. فقلت له: يا مولانا افتح هذا الكتاب وهذا الكتاب، ستجد تعليقاتي بالقلم الرصاص عن كذا وكذا، ففتح الكتابان فوجد ما قلت له صحيحًا، وظننت أنني بهذا الدليل الدامغ سأسترد ما فقدت، لكن الرجل رفض أن يعطيني من الكتب إلا ما أقيمت عليه الدليل، ومن يومها وأنا أترك في كل كتاب دليلًا أو علامة تدل على انتسابه لي، وكل يوم يمر علي وأنا ألعن هذا الزهايمر الذي تسبب في ضياع كتبي.

ما أبشع فترات العجز التي تحتاج من المرء أن يثور على نفسه..  
ها أنا ذا أذكر ذلك الزمن الذي كنت أمني فيه نفسي بأنني يومًا  
ما سأقرأ وسأفتح هذا السجن الكبير لأخرج من طال حبسهم ظلمًا  
وعدوانًا.. ولكن الأيام يسابق بعضها بعضا، ولا تأتي هذه اللحظة  
المأمولة!!

ويومًا ما عزمت على القراءة وأصررت أن أقتلع هذا العجز وأنجي  
من حياتي هذا الهجر الأليم، وما أن وقفت أمام كتبي حتى أحسست  
بالحيرة الكبيرة، فأى الكتب يقع عليه الاختيار، وأيها أبدأ بالقراءة،  
ثم دعك من حيرتي التي لا تماثل شعوري بلهفة كتبي إلي، نعم..  
أشعر بها وأحس بحينها إلي، فكل منهم يناديني لأختاره وأفضله  
على غيره.

أصوات من هنا وهناك، تهز قلبي وتهد وجداني، مر عليّ وقت كنت  
أنظر إلى مكتبتي ورفوفها العريضة المكدسة، نظرة تمتزج بالسعادة  
والحزن. سعادة لأني أملك مثل هذه الثروة العظيمة، وحزن لأني لم  
أقرأ منها إلا القليل.. وكلما مررت بجوارها لشأن من شئوني.. كلما  
شعرت بندائها وأنين كتبها المتخمة واستغاثتها المتواصلة لأنقذها من  
وحدتها الموحشة، وهذا السجن الذي لا تعلم هي ولا أنا متى ينتهي  
وكما قيل: (احترام الكتاب في قراءته)

وها أنا ذا صرت من الذين لا يحترمون كتبهم، بل صرت كهؤلاء الذين  
كنت أسخر منهم فيما مضى وأحتقر صنيعهم حينما كانوا يفتنون

الكتب لا ليقرووها، وإنما ليزينوا بها جدران بيوتهم وحوائط حجراتهم..  
وإنها لجريمة كبيرة أن يُتخذ الكتاب وسيلة تجميل أو عملية ديكور،  
وهو الذي وجد ليشيد الدول و يقيم الحضارات، بل هو في حقيقته  
فكر وروح وعقل وإنسان حاضر معك يستطيع أن يحدثك ويقنعك  
ويفيدك، لقد أدمنت شراء الكتب، ويخيل إلي أنني لو امتلكت الملايين  
لأنفقتها كلها في شراء الكتب وهوما يؤرق نفسي لأنني أعلم أنني  
أزيد من أعداد الحزاني والمسجونين.

استطاعت هموم الحياة ومشكلاتها أن تثنييني عن القراءة في فترة من  
الفترات، أطلقت عليها فترات العجز من حياتي، ومهما كنت أتكسب  
وأتربح من المال، فإنني أعلم أنني خسرت شيئاً لا يُقدر بأموال الدنيا  
مجتمعة، لقد خسرت السعادة والمتعة الحقيقية بمعشوقتي..

في بعض اللحظات تسوقني الشفقة للإفراج عن بعض هؤلاء  
المسجونين، ولكن الصدمة الكبيرة حينما أكتشف أن هذا الإجراء لم  
يكن في مكانه الصحيح، وأن صاحبنا المفرج عنه من نوعية الكتب  
(الفالصو) التي لا تستحق السجن فقط.. بل تستحق الإعدام، فهناك  
كتب تجعل قارئها يكره نفسه ويكره القراءة ويلعن الكتب.. لكنني  
حينما أمسك بالكتاب لا أتركه حتى أنتهي منه، رغم أن الشوق  
لقراءة غيره تجتريني جرأً، ولكنني أتحلى بالصبر احتراماً لما في يدي،  
ورغبة صادقة في الاستفادة منه والتركيز معه والعناية به واحترامه.

أهتم أحيانًا بالكم وأحب أن أضخم رفوف المقروء.. لكن هذا أبدًا لا يجعلني أتهاون في إكمال ما بيدي، لأن الفائدة هي همي الأول وغايتي المقصودة، فأنا أرفض أن يكون حالي كحال الكاتبة (مريم الساعدي) حين قالت: (حتى الكتب التي قرأتها فأنا لم أنه كتابًا منها كما ينبغي، أقرأ أحدها ونظري على الأكوام أمامي أريد الانتهاء بسرعة منه لأنتقل للثاني، فيشعر الكتاب بين يدي بعدم إخلاصي في الإصغاء له، ويعتب علي فأنتهيه ويرحل دون أن يترك في ذهني حرفًا منه ودون أن يترك في قلبي قبسًا من نور كلماته.. ما هكذا تؤقي الكتب.

الكتب مثل الناس؛ حين تتعرف على أحدهم فاحرص أن تراه جيدًا وتسمعه، وتمنحه مساحة من قلبك يثريها بوجوده الخاص ويزرع فيها أزهارًا تمنح نبض قلبك عبثًا أقوى يجعل طريق حياتك أحلى)١  
بعض الكتب أقضي وقتًا كبيرًا في قراءتها ولا أخرج من ورقها الكثير إلا بمعلومة أو معلومتين تكون جديدة عليّ، وهو ما يشفع لها في نفسي، ولا يشعرني بمضيعة الوقت معها حينما أضافت إلي جديدًا لم أكن أعرفه من قبل..

ربما أهدي أحدهم كتابًا ألفته فيلقاه بفتور وكأني أعطيته صحيفة أومجلة! وأحاول أن ألتمس له العذر فأقول في نفسي: لعل به بعض الضيق أو أن هناك مايؤرقه، فلننتظر يومًا أو يومين، حينما يذهب ما

1 - من مقال بصحيفة الاتحاد للكاتبة مريم الساعدي - الثلاثاء ٣٠ أبريل ٢٠١٣

ألم به ويعي ما أهديته إياه..وبعد الانتظار يتبين لي أن الفتور نابع لأن الكتاب لا قيمة له في نفسه، وأنني أثقلت عليه حينما زودته به فصار عبئًا عليه.. وأزوره مرة تلو مرة وأنتظر أن يحدثني بشيء منه أوييدي ملاحظة عليه، ولكنه لا يذكر شيئًا عنه كأن لم يكن، وأتلفت بنظري في حجرته لأجد كتابي في ركن مهممل لم تمسه يده بعد.. أوتبصر عينه بعض سطوره..

وأشعر في هذه اللحظة أن كتابي يستغيث بي ويناديني ويستعطفني ويقول لي: لماذا تركتني عند هذا الذي يهملني ولا يدرك قيمتي، هل تكرهني إلى هذا الحد وأنا كتابك؟ ألا فلتعلم أن إهماله لي إنما هوفي حقيقته إهمال لك أنت..فلوأنه قدرك لقدرتي.. وإذا بنفسى تهتف به من داخلي تقول له: كفاك لوما وجلدًا وتقريبًا..ثم أنتشله

فأنتشله على حين غفلة من صاحبي لأسترده مرة أخرى وأبحث عمن يستحقه لأهديه إياه.. ويمر من الزمن قليله وكثيره، وأنتظر عله يكتشف أن كتابي لم يعد بحوزته، أويتنبه لاختفائه من بيته، ولكنه لا يدري من أمره شيئًا وكأنه لم يكن، ومع هذه اللامبالاه تذكرت (برناردشو) حينما زار معرضًا للكتاب المستعمل فوجد نسخة من كتابه كان أهداها إلى أحد أصدقائه معروضة للبيع فاشتراها وأهداها إليه مرة ثانية ليلقنه درسًا في الاحتفاء، أما أنا فلا أرى من يُهمل كتابي يستحق التفكير أوحتى العتاب..لأنني أنا الذي أخطأت أولاً في التقدير ووضعت بضاعتي في غير موضعها..!

# القراءة هي الحياة !

فالقراءة هي الحياة..!

تراه تعبير لا يغني عن شيء.. فالحياة متوفرة للجميع من يقرأ ومن لا يقرأ.. فما معنى أن تكون القراءة هي الحياة؟! شيء رائع أن نلقت إلى هذا التساؤل حتى نقف على المعنى الذي يوهمنا بأن الحياة في القراءة، وأن القراءة هي الحياة!

أجل يا أخي.. فالقراءة فعلاً هي الحياة.. أو بمعنى أدق.. فيها معنى الحياة الحقيقية، لأنها الطريق إلى النور والمعرفة والوعي والتقدم، ففرق كبير بين إنسان يعيش ويعرف في عيشه معنى الحياة، ويدرك دروب السعادة فيها، ويفطن إلى ما حوله من حقائق وتجارب وغوامض وآفاق، وبين إنسان جاهل خامل لا يدرك من الحياة والسعادة فيها إلا أن يملاً بطنه ويرضي مزاجه ونزواته وشهواته..!الأول يتقدم ويرتقي وينهض.. والثاني يتراجع ويتخلف ويسقط..!

ولعل مقارنة بين إنسانين كانت مقارنة لطيفة رقيقة هادئة.. ولكني أحيلك إلى مقارنة أخرى أشد صراحة وجرأة! لتعرف حجم الخسارة في إهمال القراءة..!

(إن الميزة الحقيقية التي تميز الإنسان على الحيوان هي أنه حيوان مثقف، وكل محروم من الثقافة هومن الانحطاط بمثابة الحيوان، وإذا

نحن عشنا بلا ثقافة، لا نقرأ ولا نفكر في تاريخ هذه الدنيا ومصيرها وعلومها وآدابها، فإننا نعيش عيشة حيوانية، فيجب أن نغرس في أنفسنا عادة الدرس، ونعيش مدى حياتنا مجدين في جامعة الدنيا) ٢

أما (عائض) فقد أراد أن يدلي بدلوه في المقارنة، فكان عميق الوصف، قوي التشبيه، حين قال: ( أما من لم يقدر له الله أن ينال نعمة القراءة.. فلا تراه يفرق بين المكتوب والمرسوم، واللعب والجد، والحق والباطل، مما يسطر في صفحات الكتب والجرائد والمجلات، والألواح والصخور، إلا بأن هذا لون صورته له الرؤية، لا يعلم من محتواه شيئاً، ولا يدري من مضمونه عرفاً ولا نكراً، يرى الحروف والكلمات والجمل والسطور، رؤية قد يعجبه جمالها، دون أن يعرف ما تحمله في أحشائها من جواهر وأصداف، أو ما أثقلت به صنوانها الدانية، وأغصانها من ثمار لذیذة يانعة.. لا فرق بينه وبين صبي خرج لتوه من رحم أمه، أو مجنون فقد عقله، فكلهم حرم من التمتع بنعمة القراءة، إلا أن الصبي والمجنون معذورون بسقوط التكليف عنهما، وهو من المؤهلين للتكليف العيني والواجب الكفائي في أمور دينه ودينها) ٣

ويقول خالد في الوصايا العشر: ( يقول خالد: الذي لا يحيى عقله بالقراءة المستمرة، يستحق العزاء والرثاء...!! فإذا كنت من الذين يقرؤون فهنيء نفسك وطالبها بالمزيد، وإذا لم تكن؛ فأدرك مكانك في

2 - في الأدب والحياة - سلامة موسى

3 - عاشق - عائض القرني

القافلة؛ قبل أن تذهب نفسك حسرات..!! فلوخلت الحياة من نعمة القراءة والفكر لكانت عبئًا لا يطاق.. فالقراءة كما قيل هي النور الذي يسعى بين يديك وهي الرئة التي تَنَشَّقُ بها الحياة..)

يقول المثل الغربي: ( إذا أردت أن تسعد إنسانًا فحُبِّبْ إليه القراءة )

ويقول (جون هرشل): ( إن من تيسرت له أسباب القراءة يصير ولا شك سعيدًا لأنه يقطف من حدائق العالم، وتتجلى أمام عينيه أحوال الأمم الغابرة، ويكون كمن عاش مع أفضل أفرادها وكأما خلقت الدنيا له )

وقيل: ( القراءة مثل الماء والهواء، لا يعيش الإنسان بدونهما، وبدون القراءة لا يجد الإنسان ذاته، بل يعيش في الدنيا منقطعًا عن الحياة والأحياء )

وقال العقاد: ( القراءة وحدها هي التي تعطي الإنسان الواحد أكثر من حياة واحدة لأنها تزيد هذه الحياة عمقًا )

بل كان من القراء من يبغض فصول الحياة من أجل القراءة، حيث كان (جيته) يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول وكان يتعب من القراءة في ضوء الشموع، التي يقص فتيلها بنفسه، حتى كانت آخر كلمة نطق بها قبل وفاته: (النور) لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية، لذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء!.

لم تكن القراءة في حياة هؤلاء مجرد هواية أوتسلية، وإنما كانت غرامًا وعشقًا، أو كما قلنا: تعني لهم الحياة.. أما الذين يقولون: هوايتنا القراءة، فهي المقولة التي لم نسمعها أبدًا من أتراب جيلنا، فأغلبهم من كانت هوايته في الرياضة أوالسباحة أواللعب والترفيه والتسابق والصيد ومشاهدة الأفلام والرحلات والسفر، وغير ذلك من لهوالحياة ومسلياتها، أما كلمة قراءة، فلا أذكر أبدًا أنني سمعت من ينطق بها أويتقولها على لسانه أوجالت بخاطره وهواه.. !

وإذا كنا نأسى أن لا يقولها أحد منا، فإن الدكتور (راغب السرجاني) رفض الاعتراف بمصطلح الهواية،وبين أنها ضرورة من ضروريات الحياة التي لا بد منها للإنسان..!

يقول السرجاني: (هل يصح أن يقول أحد هوايتي شرب الماء مثلًا؟! إن كل الناس يشربون الماء؛ فهذه ليست هواية، وإنما هي ضرورة، كذلك لا يصح أن يقول إنسان: إن هوايتي الأكل؛ لماذا؟ لأن الأكل ضرورة وليس هواية، فكل الناس يجوعون ولا بد أن يأكلوا، ربما تفضل طعامًا على آخر، لك هذا، لكن أن تمتنع عن الطعام أوعن النوم أوعن التنفس فهذا يؤدي بك ولا شك إلى الهلاك؛ لأن كل هذه الأشياء من الضروريات لحياة الإنسان..! وأرى أيضا أن أي إنسان لا بد له من القراءة..

يجب أن تقرأ ليس كتابًا أو اثنين فقط، وليس يومًا في الأسبوع أو شهرًا في السنة فحسب.. ولكن يجب أن تكون القراءة هي منهج

حياتك.. لا يمر عليك يوم دون أن تقرأ.. وليس المقصود أي قراءة.. بل القراءة المفيدة النافعة.. القراءة التي تبني ولا تهدم، وتصلح ولا تفسد...! القراءة إذن ليست هواية، فمن غير المناسب أن نسمع من يقول: أنا لأحب القراءة، أولست متعودًا عليها، أو أمل سريعًا منها، فهذا مثل من يقول: أنا أمل الأكل؛ لذلك فلن آكل!!)٤

وما أروع ذلك الشاب الذي هم بالزواج.. وكان يقوم بتجهيز شقته التي يقيم فيها مع شريكة الحياة، لقد جعل المكتبة أول اهتمامه من أثاث البيت وأفرد لها حجرتها الخاصة قبل حجرة السفارة والمعاش..! والعجيب أنك ترى بعض الذين لا يقرؤون ينظرون للقراء على أنهم حمقى جهلاء، يفنون أعمارهم فيما لا نفع فيه، ويفسدون أوقاتهم فيما لا عائد منه، ويحرمون أنفسهم من متع الحياة وبهائجها..! لكن الحقيقة التي تغيب عن أذهانهم، أنهم هم المحرومون من أعظم متع الحياة، طريق النور والمعرفة.. والأقبح منه أنهم لا يمكن أن يفهموا ذلك أو يقدروه..!

نعم. فد(القراءة حياة الشعوب، ومفتاح المعرفة للوصول إلى الرقي والتقدم في شتى المجالات؛ وتختلف كثير من مجتمعاتنا العربية أحد أبرز أسبابه.. انغلاقها وهجر القراءة..

القراءة غذاء للروح ومتعة للنفس والمصدر الأصيل لبناء الإنسان وتنمية ثقافته، القراءة تحفظ الوقت، وتضبط الفكر والسلوك؛ فما

4 - القراءة منهج حياة - د. راغب السرجاني

أحوجنا أن نصنع إنسانًا بالكتاب والقراءة! والذين تخلوحياتهم من المتعة أناس أشقياء تعساء.. فالمتعة هي معنى الحياة، لكن المتعة يحار في تفسيرها وفهمها وانتهاجها كثير من الناس.. فمنهم من يعدها في الطعام والشراب أو النساء أو المال والجاه، ومنهم من يجدها في المعرفة والثقافة والقراءة والفضيلة وإصلاح دنيا البشر، وهو ما يقودنا لقول آخر وهو: إن الذين تخلوحياتهم من المتعة الحقيقية هم الأشقياء التعساء وليس غيرهم.. ومتعة القراءة من أرفع وأرقى المتع التي يشعر بها أصحابها، لأنها الحياة المتعددة والحياة الواعية، والحياة التي تقوم على تنمية العقل وتغذية روافده ليفهم مغزى الحياة.. ليس مهما أن تكون المكتبة فخمة أو فاخرة ذات أدراج مذهبة، ولكن المهم: ماذا فيها من كتب؟.. ينبغي أن يكون في ذهنك مشروع واضح لشراء مجموعة ضخمة من الكتب وهذا الكلام ليس موجهاً للأغنياء فحسب، بل هو للفقراء والأغنياء على حد سواء؛ فالإنسان إذا أحس بقيمة الكتاب سيوفر بلا شك من مأكله ومشربه ليشتريه، وربما يأكل الإنسان أكلة واحدة بثمن أربعة أو خمسة كتب، وربما يشتري قميصًا بثمن عشرة كتب، بل ربما خرج في رحلة أسبوعية مثلاً بثمن مكتبة قيمة جدًا!..

عندما قضى (أوسكار وايلد) سنتين في السجن عقوبة على تهمة الشذوذ.. خرج محطم النفس كسيرًا حزينًا على هذا المستنقع الذي رمى بنفسه فيه وأضاع كثيرًا من مجده ووقاره، خرج من السجن ولم يكن همه إلا شيء واحد وأمنية واحدة، وهي كما قال: (أن يكون

عندي ما يكفيني للعيش ثمانية عشر شهراً حتى إذا لم أستطع تأليف الكتب النافعة، استطعت على الأقل أن أقرأ الكتب النافعة، وماذا بعد هذا من لذة ومتعة؟!)

والذين ينشدون الطريق لهذه المتعة والشعور بها والانضمام لفريقها، لابد لهم من القراءة المستمرة و(المثابرة عليها والحماسة في متابعتها والتحلي بالصبر والتسلح بالعزيمة للاستمرار فيها، فكم من شخص توقف في أول المسير عند أول عثرة اعترضت طريقه، وغاب عن ذهنه أن أول عوامل النجاح في كل مسعى هو مقدار الوقت وكمية الجهد الذي نبذله في سبيل ذلك)٥

لقد كانت القراءة في حياة السلف هي المعنى الجميل الذي يجدونه فيها، ويعيشون في دوحته.. لا يستطيعون أن يمر يوم من أيامهم دون القراءة والمطالعة، فأزمانهم أغلبها بين الكتب، يقرؤون ويستفيدون ويعتبرون ويستمتعون وينهلون من فيض معارفها، ووافر كنوزها، ولك أن تتخيل مدى هذا الاهتمام الذي لا ترتسم لك صورته الحقيقية إلا بعرض بعض أحوالهم أو بتعبير أدق.. بعض هيامهم..

قال (ابن أبي حاتم) رحمه الله: (كنت أقرأ على أبي وهو يقرأ وهو يكتب وهو يمشي وهو يركب وهو في بيت الخلاء )

وكان (الخطيب البغدادي) لا يمشي في طريق إلا وفي يده جزء يطالعه،

---

5- اقرأ - ساجد العبدلي

والنووي أيضًا..

وكان الإمام (ثعلب) أحد أئمة النحو والأدب، إذا دعاه رجل إلي وليمة يشترط على صاحب الوليمة أن يجعل له فراغًا لوضع كتاب ليقرأ فيه.. يقول: أنا أشترط أن أضع كتابًا بين يدي أقرأ فيه، وكان سبب موته أنه خرج يوم الجمعة بعد العصر من المسجد، وكان في يده كتاب يقرأه، فجاءت فرس فصدته فسقط في هوة فأخرج وهو يتأوه ويصيح ومات اليوم الثاني..!

وأما (الفتح بن خاقان) فإنه كان يحمل الكتاب في كفه أو في خفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبول أو الصلاة، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يبلغ الموضوع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه، إلي أن يأخذ مجلسه، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة، أخرج الكتاب من كفه أو خفه، وقرأه في مجلس المتوكل إلي حين عوده.!

وكانت لمحمد بن سحنون جاريه يقال لها (أم مدام) فكان عندها يومًا، وقد شغل في تأليف كتاب إلي الليل، فحضر الطعام، فاستأذنته فقال لها: أنا مشغول الساعة. فلما طال عليها الانتظار، جعلت تلقمه الطعام حتى أتى عليه، وتمادي هو علي ما هو فيه، إلي أن أذن لصلاه الصبح، فقال شُغلنا عنك الليلة يا أم مدام! هات ما عندك، فقالت: قد ألقمته لك والله يا سيدي، فقال: ما شعرت بذلك.!

إلى هذا الحد الرهيب كانت الكتب في حياتهم، وكانت القراءة في

أيامهم! شغلوا بها كل أوقاتهم وملأوا بها حلهم وترحالهم حتى قال  
قائلهم:

وزهدني في الناس معرفتي بهم  
وطول اختباري صاحبًا بعد صاحبٍ  
فلم ترني الأيام خلًّا تسرني  
مبادئه إلا ساءني في العواقبِ  
ولا قلت أرجوه لكشف ملمةٍ  
من الدهر إلا كان إحدى المصائبِ!  
فليس معي إلا كتاب صحبته  
يؤانسني في شرقها والمغربِ

وقال آخر:

نعم المحدث والرفيق كتاب  
تلهوبه إن خانك الأصحاب  
لا مفسيًا للسر إن أودعته  
وينال منه حكمة وصواب

## القراءة طريق النهوض

كانت اليابان واحدة ممن أدركوا هذا السر النفيس، وعرفت طريق نهوضها بعد كبوتها الفادحة وانهارها المزمّن، فهي الأمة المثقفة التي اتخذت من القراءة طريقها لبناء مستقبلها العظيم..! لقد نهضت بعد الضربة الموجهة التي تلقتها من أمريكا في الحرب العالمية الثانية في أغسطس ١٩٤٥م، وكان لهذا النهوض أصوله وجذوره الكامنة في النفس اليابانية.

لقد صمم اليابانيون أن يكونوا شيئاً، وأن يصنعوا معجزة بعدما انهارت بلادهم ودُمرت، وكان لهذا التصميم الذي انطلقوا منه ليحققوا بغيتهم قواعده التي قاموا عليها لحلمهم المنشود، فالأمة اليابانية أمة مثقفة وأمة قارئة.. إنها القراءة إذن وصحبة الكتاب.. سند اليابانيين وسبيلهم في قيامهم المعجز من ساحة الهزيمة ومستنقع اليأس، إلى آفاق الرقي والإعجاز العقلي، بل كانت النافذة التي أطلوا منها على العالم، ليرى على أيديهم كيف بمقدور الإنسان أن يصنع المعجزات، ويأتي بالخوارق، وأن يحيا من عدم وينهض بعد هزيمة..؟!!

حينما قام صديقي الدكتور (حياة الله عتيد) بزيارة لليابان طلبت منه أن يرصد لي أحوال الناس وطباعهم هناك، فكان مما قال لي: عندما ترى اليابانيين في الأماكن العامة في الباصات والقطارات تجد الجميع في صحبة الكتب يقرؤون، حتى أن أحدهم يقرأ وهو واقف

سواء كانت صحيفة أوتاب أو جهاز حديث، وهذه الظاهرة منتشرة بشكل غير طبيعي فـ ٩٩٪ يقرؤون ولا يضيعون أوقاتهم، ولا تجد منهم من يجلس عبثاً، فالكل في عمل وشغل واهتمام، فلا تجد منهم إنساناً عاطلاً، وقد رأيت في المترونساء يحملن أطفالهن، الولد يرضع.. وأمه تقرأ!!

وهذا هو السر في تقدم اليابانيين، فهم مولعون بالقراءة على اختلاف مراحلهم ومشاربهم العمرية وتنوعهم الوظيفي، وبالرغم من أن دوام العمل عندهم يبلغ ٠١ ساعات، إلا أن ذلك لا يُثنيهم عن القراءة، فهي غذاء الروح وضرورة من ضروريات الحياة، حتى مع الملهيات المنتشرة والتي تصرف الناس عن الكتاب كالإنترنت وأجهزة الجوال والألعاب الالكترونية، فإنهم لا يستغنون عن الكتاب، وتنتشر المحلات التي تبيع الكتب في كل مكان، وهي كثيرة ومتعددة، تجدها في محطات القطار والأسواق والشوارع، والناس يقرؤون وقوفاً وجلساً.. منتظرون أوراكبون، حتى سائق الأجرة يشعل النور ويقرأ وهو ينتظر الزبائن، والباعة في المحلات لا يفوتون فرصة القراءة حينما يخلو المحل من الزبائن.

تقول الكاتبة ريم خليفة: (الشيء الوحيد الذي يشغل اليابانيين غير العمل هو قراءة الصحف بشتى أنواعها وهم الذين يعتبرون أخذ قسط من النوم في وقت الظهيرة أو إجازة يعد بمثابة عار وعيب على الفرد، وهو الأمر الذي كانت تردده على مسامعي صديقتي اليابانية أيام مقاعد الدراسة في لندن (ماي اوكانو) التي كانت

تبهرنى بتخصيص ٨٠ في المائة من وقتها يوميًا للقراءة كعادة قسرية تربت عليها وترعرعت عليها منذ صغرها وهو ما لمستته فيما بعد عندما زرت بلدها اليابان في العام ٢٠٠١م، فالياباني إما قارئ لكتاب أو صحيفة أو مجلة حتى وهو في القطار عدا طبعًا وقت العمل فهضم المعلومات بشراهة هي مهمة في غاية الأهمية للياباني)٦

وهذه الأخلاق الجماهيرية لا يقوم بها شعب من الشعوب إلا حينما يكون لديه كما يقال: استعداد فطري للنهوض، وهي عادة قديمة متأصلة في اليابانيين وليست حديثة أو وليدة ظروف معينة، فالشعب الياباني قارئ منذ عقود، ومن قبل أن تصيبه الضربة النووية الأمريكية.. ونستشهد هنا بما ذكره الرحالة التتري المسلم (عبد الرشيد إبراهيم) ذلك في كتابه (العالم الإسلامي) حينما زار اليابان عام ١٩٠٩م، وكتب عنها وسجل مشاهداته، فقال حين ركب الباخرة اليابانية من (فلاديفوستوك) إلى اليابان:

(كانت الباخرة تسير بسرعة اثني عشر ميلًا في الساعة، لم يعد هناك فرق بين البحارة والمسافرين، كلهم في لباس أنيق، والكل يطالع.. تحولت باخرتنا إلى دار كتب تمدد الناس على سرور أرجاء الباخرة في يد بعضهم كتاب، وفي يد البعض الآخر جريدة، إنهم مشغولون بالمطالعة باستثناء بعض العمال الروس المسافرين إلى أمريكا، فإنهم أسلموا أنفسهم للنوم لأنهم أميون، أما اليابانيون فيمضون كل 6- صحيفة الوسط البحرينية العدد 1469 الخميس 14 سبتمبر 2006م الموافق 20 شعبان 1427هـ

أوقاتهم بالمطالعة حتى الطباخين وموزعي الطعام لا ينقطعون عن القراءة) وحينما ركب القطار وأراد الذهاب إلى يوكوهاما من محطة (ماي بارا) قال: (تحرك القطار في العربة ثلاثة أوروبيون وبقية الركاب يابانيون ملابسهم غريبة أكثرهم يلبسون في أرجلهم جوارب بيضاء وقباقيب، خلع الركاب نعالهم، فجاء المسؤول عن العربة بنعلين لكل راكب، وقعد الركاب كما يقعد أهل الإسلام في الصلاة، وبعد نصف ساعة أكب الركاب جميعهم على المطالعة، فكل واحد تناول بيده جريدة أو كتابًا، وتحولت العربة إلى مكتبة متنقلة، أما الذين ينظرون من نوافذ العربة هنا وهناك فكانوا ثلاثة الأوروبيان وأنا)

وحينما زار قرية يابانية لم يكن الحال مختلفا، فالرغبة في القراءة والثقافة هي هي التي تجدها في المدينة حيث قال: (إن الفطور عندهم في الصباح هو قراءة الصحف، وإن أفقر البيوت عندهم تشتري أول ما تشتري الصحف حينما يمر بائع الصحف بالسيارة في الفجر..)

كما يحرص اليابانيون على الطفولة، ويهدفون إلى بناء الإنسان القاريء، حتى تكون القراءة في حياته عملية فطرية منذ نعومة أظفاره، حيث يقومون بترجمة ٢٠٠ كتاب من الكتب الجيدة في أدب الطفل للغة اليابانية كل عام، حيث يسافر كل عام فريق ياباني متخصص إلى (معرض ميونيخ الدولي للكتاب) في ألمانيا، ويعمد الفريق إلى دراسة جميع ما هو موجود في المعرض، من كتب الأطفال، بجميع اللغات، ثم يعود الفريق نفسه إلى بحث ودراسة المناسب منها،

لترجمته إلى اللغة اليابانية، كي يستفيد كل طفل على أرض اليابان،  
فيصبح ملماً بما يحصل عليه أطفال العالم من معلومات!.

وهكذا تبني اليابان أجيالها وتخرج أطفالها.. لقد جعلوا من الإنسان  
شيئاً مبهرًا؟ وكان الكتاب سلاحهم الذي أعانهم على قهر اليأس  
والهزيمة..!

فهل للمنتكسين أن يخطوا خطوات اليابان، فيتسلحوا بالكتاب  
ويتداووا بالقراءة؟!

والقراءة لها بعد اجتماعي.. فالذين يقرؤون هم من يقودون العالم،  
ومن لا يقرؤون يرتعون ذيولاً للأمم، حتى القيم والأخلاق تتأثر  
بالقراءة من عدمها، فنرى مثلاً طبقة العمال فقدوا قيمهم لأنهم لا  
يقرؤون، وفي اليابان ١٪ فقط لا يقرؤون وفي السويد ٢٪ وفي أمريكا ٤٪  
وفي إسرائيل ١٣٪، والقصد بهذا التعبير ليس الشخص الذي لا يقرأ،  
ولكن معناه: أننا لو قدمنا له اختباراً مقنناً لا يجيب فيه ولا يحصل  
على ٧٥٪ منه، فمستوى التمكن عندهم يقل عن هذه الدرجة،  
وليس معنى هذا أنهم لا يقرؤون بتاتاً، وإنما هناك تجهيل بالثقافة  
والهوية والتاريخ.

أذكر أن رئيس ألمانيا قال بعد توحيدها: ينبغي على كل شاب أن  
يغير وظيفته ثلاث مرات، ولن يكون هذا إلا بالقراءة في ميادين  
جديدة في المعرفة، وتعلم ما يرتبط بهذه المعرفة!.

في عام ١٩٨٩م أنهت (كوريا الجنوبية) تنفيذ المرحلة الأولى من إنشاء مدينة (باجو) للكتاب الواقعة على نهر (هان) وهي مدينة متخصصة في صناعة الكتاب على مساحة كيلوونصف، وتُعنَى بتصميم وإنتاج وتوزيع الكتاب، وفيها أكثر من ١٠٠ برج و٢٠٠٠ دار نشر، وضمنت متاحف وقاعات ومراكز ومعارض وأوجدت ١٠,٠٠٠ فرصة عمل، وبها معرض سنوي تنظم فيه العديد من الفعاليات، ويزورها سنويًا أكثر من ٤٥٠ ألف زائر، وتحقق إيرادات أكثر من مليار دولار أمريكي، سنويًا ولا تقوم دولة متطورة ومتقدمة مثل كوريا بهذا العمل إلا للأهمية التي يمثلها الكتاب في نهضتها ومستقبلها، ومعرفتها الجيدة بأنه الضمان لاستمرار ما هي عليه من تفوق ومنافسة عالمية اقتصاديا وصناعيًا.

إن رفع معدلات القراءة الحرة في المجتمع هي الطريق الأسرع للنمو الاقتصادي لاعتبارها مكونًا رئيسًا من مكونات التعليم، وهو ما أكده معهد التعليم بجامعة لندن، والذي نشر دراسة تشير إلى أن الطلاب الذين يمارسون القراءة الحرة يحققون نتائج دراسية أعلى بكثير من أقرانهم الذين يكتفون بقراءة كتب التعليم النظامي، ولعل مثل هذه الدراسة تثير تساؤلات هامة ومحورية حول خطورة الاكتفاء بالتعليم النظامي على الأجيال، وأهمية القراءة الحرة للتفوق في التعليم النظامي، فضلًا عن الإبداع وتطوير المهارات والنجاح في الحياة عموماً..!

وأولى بالمجتمعات العربية أن تعد خطة شاملة تعزز فيها من كيان القراءات الحرة بكافة السبل والوسائل وعلى جميع الأصعدة، بداية من تشجيع الأسر على القيام بدورها المحوري في تأهيل الأبناء على حب القراءة والتعود عليها، مروراً بمؤسسات الدولة وعلى رأسها الإعلام الذي يقع على عاتقه العبء الأكبر في الترويج لهذه المهمة السامية، وانتهاءً بدور وزارات التعليم التي تُعنى بتخصيص حصص ومواد متخصصة للقراءة الحرة، وتقدير رحلات دورية ومنتابعة لمكتبة المدرسة والمكتبات الخارجية ليتعرف الطلاب على رغباتهم في عالم القراءة، ويتولد لديهم الاهتمام اللائق بها وهوما أخذت به كثيرٌ من دول العالم تجاه أجيالها ومواطنيها..!

لقد ألقى (وارن بافيت) أحد أكبر مستثمري القرن العشرين محاضرة أمام ١٦٥ طالباً في (جامعة كولومبيا)، فسأله أحد الطلبة عن أفضل وسيلة للبدء في مشروع استثماري، فأخرج (وارن) مجموعة كبيرة من الأوراق والتقارير وأخبره بأن يقرأ ٥٠٠ صفحة كهذه كل يوم لبناء قاعدة معرفية، وأجزم (وارن) بأن الجميع يمكنه فعل ذلك، ولكن لن يقوم به إلا القليل..!

لقد سئل (فولتير) عن سيقود الجنس البشري؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرؤون؟!.

ويقول (أرنولد توينبي): إن ارتفاع نسبة قراءة الكلمة المطبوعة هو الأساس الحضاري لتصنيف البلدان في العالم إلى دول متخلفة أو نامية أو متقدمة..!

وهنا لا بد من وقفة قرآنية نتأمل فيها قول الله سبحانه (اقرأ وربك الأكرم).. لنرى الإشارة الواضحة لمعالم النهوض، والسر الجلي لكل من أراد الرقي.. لقد أجمع المفسرون أن الأمر بالقراءة في الآية المباركة ليس خاصاً به ﷺ وحده، وإنما هو عام لكل مسلم يؤمن بالإسلام، فالقراءة إذن سمة إسلامية وأمر رباني..! كما أننا نعلم يقيناً أن ألفاظ القرآن الكريم لا تأتي عبثاً دون دلالة، وإنما يدل كل لفظ فيه على معنى دقيق أرادته الله تعالى وأظهره للمتأملين..

وهنا كان ولا بد لنا أن نتساءل.. لماذا جاء الأمر بالقراءة مصحوباً بقوله تعالى (وربك الأكرم)؟! لماذا الأكرم تحديداً.. ولم يأت بكلمة أخرى كالأعلم أو الأفضل أو الأعظم؟!

وحسب ما قال المتأملون: فإن هذا الاقتران فيه إشارة قوية، وإشعاراً هاماً، يلفتنا إلى أن القراءة طريق الكرامة والزعامة والسيادة، والسبيل الذي ينال به كرم الرب وغناه وتفضيله.. وهو اقتران متلازم شهد به التاريخ ودل على معناه.. فالليونانيون كانوا أكثر الناس قراءة وكتابة حينما كانت حضارتهم ملء السمع والبصر، فنالوا كرم الرب وصاروا زعماء العالم وقادته، واستطاعوا السيطرة على أكبر رقعة في العالم من الهند إلى مصر.. أما المسلمون الذين انطلقوا من كلمة (اقرأ) فكانت

لهم السيطرة على العالم القديم بعد أن قوضوا عروش الظالمين ونالوا  
كرم الله من سعة الدنيا والمملك العريض، وفي العصر الحديث وفي  
أيامنا الماثلة، لا يتمتع بخيرات العالم ولا ينال الكرامة والتفضيل  
والزعامة فيه، إلا الشعوب القارئة والأمم المطلعة.!

## أمة القراءة

ألا تراه غريباً.. أن تكون معجزة الاسلام الكبرى في كتاب يُقرأ ؟  
ألا تراه مثيراً.. أن يكون أول ما نزل من الإسلام قوله تعالى..(اقرأ!)  
ألا تراه يستدعي التفكير أن يكون عنوان الكتاب الإلهي مشتق من  
مادة القراءة..!

ألا تراه يستحق التأمل قوله تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده  
الكتاب)وهي النعمة العظيمة التي رأى الله تعالى أن البشر مهما  
حمدوه عليها فلن يبلغوا قدرها فكفاهم مؤونة حمده.. فحمد  
نفسه بنفسه..!؟

ألا يثير خواطرك نزول الوحي على محمد ﷺ بقوله: (اقرأ) فيرد عليه:  
ما أنا بقاريء، فيعيد عليه الوحي ثانية: (اقرأ)، فيرد: ما أنا بقاريء!  
فيلح عليه مرة ثالثة (اقرأ باسم ربك الذي خلق)..!

فإن كنت اليوم لا تقرأ وتحتج بأن من كان أفضل منك لا يقرأ.. فلا  
تنس أو تتغافل أن الوحي ألح عليه حتى عرف ما يقرأ..!

إنها دلائل دقيقة، وإشارات لطيفة، تنطق بقيمة القراءة وأهمية  
الكتاب، ومكانته في هذا الدين وهذه الأمة.. دلائل وإشارات تكاد  
تنادين بصوتها العالي، وتستنهض هممنا بهتافها المدوي:

عودوا إلى القراءة يا أمة القراءة..!

يقول تعالى: (اقرأ وربك الأكرم)

ويقول سبحانه: (ن والقلم وما يسطرون)

لقد كان الأمر بالقراءة أول التعاليم التي استهلكت به الرسالة الخاتمة مسيرتها في الحياة، ثم جاء القسم بآلة تحصيلها وهو القلم، بعد الإشارة إليها في سورة العلق

لقد دعى الإسلام إلى القراءة، وحض عليها، ومعنى أن تكون القراءة أول لفظة نطق بها وحيه، وأول لفظ جاء في قرءانه، فإن هذا له معنى عميق يشير بأن هذه الأمة هي أمة القراءة وأمة القلم وأمة العلم وأمة المعرفة..

لقد نزلت (اقرأ) قبل الأمر بتبليغ الرسالة والقيام بالدعوة في قوله تعالى (قم فأنذر) والتي هي مهمة الأنبياء الأولى، وكذلك نزلت قبل الأمر بالعبادة في قوله تعالى: (قم الليل إلا قليلاً)

فلم يقل له: اعبد أو اذكر أو تأمل أو اخشع، وإنما كانت (اقرأ)..

لقد دعى الإسلام للعلم وحض عليه فقال تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وهو استفهام إنكاري يحرض على طلب العلم من المهدي إلى اللحد فرائاً من الجهل والتراجع والتخلف..!

كما بين الله تعالى أن أخشى الناس منه وأكثرهم معرفة به هم

العلماء، أي العلماء به وبجلاله وعظمته، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، وإذا كان العلم بهذا القدر العظيم، وإذا كانت القراءة سبيل ذلك العلم وطريق تحصيله، فنحن إذن مأمورون بالقراءة!.

ويعلمنا رسولنا الكريم ﷺ أن العلم والقراءة، مسؤولية عامة وشاملة، مسؤولية العالم والمتعلم، حتى يحقق الجميع غايته المنشودة ورغبة هذا الدين في رقي هذه الأمة وريادتها يقول ﷺ: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا يفهمونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون..والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون ويتعظون أولأعاجلهم بالعقوبة)٧

والحديث الشريف دعوة نبيلة إلى لون جديد من التكافل الاجتماعي عن طريق العلم يوازي ويشبه تماما ما قرره من التكافل عن طريق الزكاة..!

وإذا كانت تُبهرنا الأمم الغربية في حضها على العلم، وحث مجتمعاتها على القراءة والمطالعة، فأين هم من هذا التوجيه المحمدي المبارك، الذي سبقهم به أعظم مصلح في التاريخ!؟

---

7 - رواه الطبراني في الكبير

لقد كان الإمام (حسن البنا) رحمه الله حريصاً على أن يكون لكل داعية مكتبته الخاصة لأنها العدة والزداد في مسيرته الدعوية، فالداعية بدون كتاب، داعية على جهل، ومثله يفسد أكثر مما يصلح... بل كان رحمه الله يوجه أتباعه لكتب بعينها ويسميها لهم كما فعل في كتاب (حماة الإسلام) لمصطفى نجيب، ولا شك أن هذا التشجيع، ساق الجماعة ليخرج منها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والمثقفين!

لا تحسبن القراءة وأثرها.. كشفاً حديثاً تميز به عصرنا عما سبق من العصور السالفة، وأأنه سر توصلنا إليه في زمننا الحاضر ضمن ما تم كشفه من عجائب ومخترعات ونظريات، فالمجتمعات القديمة كانت تدرك هذا السر وتشجع عملية القراءة، لما تنتجه وتخلفه من نهوض وتطور وإفادة هامة للحياة والأحياء.

يحكى أن أول مكتبة وضعها الفراعنة كتبوا على بابها: (هذا غذاء النفوس وطب العقول)..ومن هذا العنوان الفريد، يظهر إيمانهم الكبير وإدراكهم الواعي بقيمة القراءة في حياة الإنسان!.

إن الأمم الذكية تُنمي في أفرادها حركة العلم، وتدفع نشاطهم المعرفي، وتسهل كل طريق إليه، وذلك عبر الاهتمام بالقراءة والتشجيع عليها، أما تلك الأمة العظيمة التي كانت حضارتها منبع العلم الحديث ونواته المحركة، فإنها لم تكن تشجع على القراءة فحسب، وإنما كانت تقدسها، فيكفيك منها ما أشرنا إليه أن أول كلمة نزلت في كتابها المقدس هي كلمة (اقرأ) وهو البعد الذي أدركته الأمة فزاد اهتمامها

بالعلم والتعلم والكتب والقراءة، التي طورتها وجعلت منها أمة رائدة وحضارة قائدة..!

ثم ماذا يستقر في نفسك من قيمة القراءة في تراثنا وحضارتنا وعقيدتنا، حينما تعلم موقف الرسول ﷺ في فداء أسرى بدر، لقد كان المحاربون يبتزون بالمال والمعاهدات والشروط المذلة، أما رسول الله ﷺ فقد جعل فداء الأسير لنفسه وحياته أن يُعلم القراءة والكتابة لعشرة من أبناء المسلمين؟!!

لأنها أمة وليدة تريد أن تسابق الزمن في النهوض والقيادة والظهور، ليس اعتمادا على السيف.. وإمّا اعتمادا على خلق جيل قاريء مطلع.. شغوف بالعلم والمعرفة.

لقد كان الصحابي الذي يقرأ، مقدّمًا على الذي لا يقرأ، وينال من صحبة الرسول وملازمته ما لا يناله غيره..! وهو ما حدث للصبي (زيد بن ثابت) الذي قُدّم على كثير من الأصحاب الكبار وصار من كتاب الوحي..!

وفي تاريخ المسلمين كانت المكتبات الإسلامية يتحاكى بها الزمن في عظمتها وإحاطتها ونظامها، فقد كانت منبع المعرفة ومصدر القوة والنهوض..!

وكان (عمر بن الخطاب) ﷺ يُعني بالعلم، ويدرك أن القوة أساسها التعلم والمعرفة حيث أجلس (عامر بن فهيرة) ليعلم الأطفال، وحثه

أن يلقن الفهيم -أي الذكي- من غير درس، وأن يكتب للبيد على لوح، وتطورت الكتابيب والمدارس النظامية، وبدأ الفقهاء يتكلمون على إلزام المعلمين، وأولهم (أبو الحسن ابن محمد القاسبي) المولود عام ٤٢٣هـ الذي وضع مصنفه الرائع (أحوال المعلمين والمتعلمين) تحدث فيه عن إلزام التعليم ومما قال فيه:

(إن إلزام التعليم خطاب للمجتمع والتعليم لجميع الشعب، وتعليم جميع الصبيان واجب ضروري وشرعي، وذلك لأن معرفة العبادات واجبة، ومعرفة القرآن واجبة للصلاة، والوالد مكلف بالتعليم، وإذا لم يقوم قام شيخ الكتاب بذلك، وإذا لم يستطع الوالد لقلّة الإنفاق.. فعلى ولي الأمر القيام بذلك، والحكام آثمون لأنهم يقصرون في تعليم الناس) وهو ذات الكلام الذي أشار إليه ابن رشد والغزالي.

لقد كان لأمتنا تاريخ حافل مع الكتاب والعناية به، وإيجاد مكانة تليق به كرافد من روافد تقدمها وظهورها وقيادتها للعالم وهوما رصده الباحث الفرنسي الشهير (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) مندهشا من همة أمتنا وإقبالها على العلم والتعلم فيقول:

(والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما تحتمل، والعرب كانوا إذا ما استولوا على المدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس

العشرون التي روى (بنيامين التطلبي) المتوفي سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطيطة وقرطبة إلخ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة، ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلدا من الفهارس كما روى مؤرخو العرب، وقد قيل بسبب ذلك: إن شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من ٩٠٠ مجلد يكاد ثلثها يكون خاصا بعلم اللاهوت)

وقد قرأت فصلاً رائعاً عن رحلة العرب والمسلمين مع الكتاب، ألقى بظلاله على حب المسلمين للعلم والاطلاع وشغفهم بالكتب إلى درجة بعيدة المدى، وهو الذي أهلهم أن يصنعوا حضارة لا مثيل لها في دنيا الناس.

فقد كان العرب في أول أمرهم وهم يشقون طريقهم للقراءة والتدوين قد دونوا بعض الأحاديث النبوية والآيات والصور القرآنية والأشعار على رقع الجلد أو صفائح العظم أو ألواح الخشب، ولم تكن قد عرفت بينهم حركة التدوين أو التأليف، وقر أيام الإسلام ويأتي معاوية رضي الله عنه حينما ولي دمشق، وكان من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة، فترجم له طبيبه (ابن أثال) بعض الكتب في الطب ومجالات أخرى من الفارسية وغيرها من لغات الأمم السالفة، ثم قام الراهب

(أصفهان) القديم بعدها بفترة يسيرة بترجمة كتب في الطب والفلك والكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية.. وفي عهد (مروان ابن الحكم) تمت ترجمة كتاب (الطبيب أهرن) ٨، الذي كان مرجعًا طبيًا مهمًا، وتوالت عملية الكتب والمخطوطات والترجمات حتى جاء عهد (عمر بن عبد العزيز) لتنشط حركة التدوين والتأليف في الميدان الديني في تدوين السيرة والأحاديث النبوية الشريفة، وجوانب من تراث العرب وأشعارهم ومواقفهم في رقائق غير منظمة ولا يضمها كتاب جامع ينتهج الوحدة الموضوعية، كما تم التدوين كذلك في موضوعات علمية متنوعة من طب وفلك وأدب وشعر، ولكنها كانت يسيرة حتى جاء عصر النهضة العلمية في العصر العباسي وبعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية وتم الاحتكاك المباشر بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى، وكان الدافع المباشر لهذه الحركة هو اهتمام الإسلام نفسه بالعلم والتعلم، فاهتم أفراد المجتمع المسلم بالكتاب والقراءة، ونقل وترجمة مختلف العلوم والكتب التي تقع في أيديهم، ولقد كثر في هذا الزمان عدد من العلماء والأدباء والشعراء والقادة والولاة والمؤرخين والأطباء والشعراء، وكان عصر النبوغ والتفتق الذهني، كما كان المسلمون في هذا الوقت أكثر انفتاحًا على غيرهم، وتدفعهم

---

8- وهو أهرن القس طبيب نصراني تعلم الطب في الإسكندرية وكتابه عبارة عن كُنَاش جمع فيه أوراق جعلت كالدفتر تُقَيّد فيها الفوائد والشوارد في الطبّ، يتألّف من ثلاثين مقالة ومؤلف باللغة اليونانية، وضاعت أصول هذا الكُنَاش، ولم ينته إلينا منها إلا تلك النقول التي نثرها الطبيب أبوبكر الرازي (ت ٣١١هـ) في كتابه، واكتسب كُنَاش أهرن أهميةً لأنّه أوّل كتاب طبي ترجم إلى العربيّة..

المعرفة لاكتشاف الآخر والتطلع لما عنده من ثقافة ومعرفه وتراث كبير..

وفي أيام المنصور استدعي الطبيب (جورجيس بن بختيشوع) لعلاجه بعد أن استاء وضعه الصحي على يد الأطباء المسلمين، وكان هذا الطبيب يصحب معه بعض الكتب الطبية، فأراها المنصور وطلب منه أن يترجمها، وكان هذا فتحاً كبيراً وجديداً وبدايةً لهضة رسمية تتولاها الخلافة لإنعاش الحركة العلمية، حيث أنشأ المنصور خزانة للكتب حوت كل ما ترجم وكثيراً مما ألف وما أهدي إليه، وما جيء به من أطراف الدنيا من كتب في مختلف الفنون، وكان من بينها كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب إقليدس في الهندسة وغيرها.

إلى أن وجد المنصور أن خزانة كتبه صارت ضيقة ولا تتسع لما جمعه من كتب، كما كانت تضيق بمن يزورها من العلماء والباحثين والقراء والمطلعين، فأمر أن يفرد لها مبنى خاص وأخرجت خزانة الكتب من دار الخلافة وأصبح لها مكانها الخاص الذي يضم قاعات للتعليم والمطالعة!

لقد كانت صحوة كبيرة في هذا الميدان فالأمة العربية توجهت من فتوحات السيف إلى فتوحات القلم والعلم والكتاب وكما قيل: بيدو للمطلع على كتب التاريخ التي أرخت لتلك المرحلة أن العلوم والفنون والكتابة والنسخ قد غدت مرضاً بل وباء أخذ بالانتشار بسرعة، وما من شيء يعيق سيره.

ونعبر عصر المنصور الذي أسس لحركة التأليف والترجمة، وكانت خزانة كتبه هي البداية القوية لاهتمام العرب بالكتاب، وتحقيق معنى كون هذه الأمة هي أمة القراءة والكتاب، إلى عصر المأمون لنرى الاهتمام الكبير بالكتب والعلم والترجمة، فقد أرسل إلى ملك الروم وفدا محملا بالهدايا الثمينة يرأسه الحجاج بن مطر ويوحنا البطريق ليطلعوا على خزائن كتب ملك الروم ويحملوا منها ما يرونه مناسباً، فرجعوا من رحلتهم العلمية الكشفية، بكم عظيم من الكتب في نواح متعددة من فنون العلوم، ومنها كتب لأفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس وغيرهم من علماء اليونان.

وعندما تحقق النصر للمسلمين على ملك قبرص، هادنه المأمون وجعل من ضمن شروط الصلح أن يتخلى الملك القبرصي عن خزانة كتب اليونان التي بحوزته، فأنصاع الملك القبرصي لذلك، ومما يرى: أن فرحة المأمون بتلك الكتب كانت توازي فرحته بالنصر الذي حققه الجيش! وقد وصف القلقشندي دار العلم هذه بقوله: ( كان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة، ولا تقوم عليه نفاسة، ولم تزل كذلك حتى دهمت التتر المغول بغداد) وكانت النهاية المؤسفة والمأسوية التي يئن لها تاريخ المعرفة والثقافة.

ولم تكن دار العلم والحكمة مقصورة على بغداد وإنما كان هناك مثيلاتها في كل مصر من الأمصار وهو توجه عام للدولة، ولذلك العصر.. حتى أن الفاطميين أنشأوا مكتبة كبيرة أطلقوا عليها نفس

الاسم، نقل إليها الحاكم بأمر الله الفاطمي من خزانة كتبه الخاصة وخزائن الأمراء ما يقارب ٦٠٠ ألف مجلد ليصل مجمل مجلداتها على مليون ونصف مليون مجلد.

كما روى القفطي على لسان ابن سينا لدى دخوله مكتبة (منصور بن نوح) سلطان بخارى: (فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، في كل بيت كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد) كما أنشئت في بغداد وبجوار دار العلم والحكمة فيما بعد مكاتب عدة مثل مكتبة دار العلم التي أنشأها البويهيون عام ٣٣٨هـ ومكتبة المستنصرية ومدرستها التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله، وكان إلى جانب هذه المكاتب الرسمية أو التابعة للحكام مكاتب خاصة كثيرة وضخمة تفتح أبوابها لطلاب العلم، وتقوم كذلك بالدور نفسه في جمع الكتب من كل مكان وترجمتها ونسخها ونشرها على غيرها من المكاتب في دور الخلافة، حتى يعم النفع والفائدة، ومنها مكتبة أبناء شاعر التي ضمت ذخائر الكتب التي بذل أصحابها من أجلها مبالغ طائلة، ومكتبة الطبيب أمين الدولة بن غزال الذي بلغ عدد كتبه ٢٠,٠٠٠ مجلد ومكتبة الطبيب أمين الدولة ابن التلميذ والتي نقلت بعد وفاته على ٢١ جملا إلى دار المجدد بن صاحب ومكتبة الطبيب أفرائيم بن الزفان في مصر حيث ترك بعد وفاته أكثر من ٢٠,٠٠٠ مجلد، ومكتبة الشريف الرضي ومكتبة أبي نصر سابور بن أردشير وغيرها من المكاتب التي لا تعد ولا تحصى.

وفي هذا الزمان لم تكن حركة التأليف موقوفة على المسلمين وحدهم، وإنما اصطبغ العصر كله بتلك السمّة، فظهرت كتب لمن يعيشون في دار الخلافة ولا يدينون بالإسلام، فألفت كتب عن الدين المسيحي وعقيدة التثليث وكتب حول الديانات غير السماوية وشرحت عقائدها.

وفي أيام السعديين بالمغرب كان المنصور الذهبي مولعًا باقتناء الكتب وجمع منها خزانة عظيمة، وسار خلفه ابنه زيدان على سنته في الاهتمام بالكتب، فنمى الخزانة التي كانت عند والده. ولمّا قام عليه أحد أقاربه واضطرّ للفرار كان أوّل ما فكر فيه خزانة كتبه فوضعها في صناديق ووجّهها الى مدينة آسفي لتسجن في سفينة كانت هناك لأحد الفرنسيين لينقلها الى أحد مراسي سوس. فلمّا وصلت السفينة انتظر رئيسها مدّة أن يدفع له أجره عمله، ولما طال عليه الامر هرب بمركبه وشحنه الثمينه، فتعرض له في عرض البحر قرصان إسباني وطارده حتّى إستولى على المركب الفرنسي وأخذ الصناديق، فلمّا فتحوها ولم يجدوا بها الا الكتب، فكروا، من حسن الحظ أن يقدّموها هدية لملكهم. ولما وصلت هذه الكتب الى الملك فيليبي الثاني، الذي كان منهمكا في بناء الدير الفخم للقدّيس «لورينثو» بالمحل المسمّى الإسكوريال أوقفها على هذا الدير، وهي التي لا تزال إلى اليوم موجودة به، ويقصدها العلماء من كل الأقطار للإستفادة من ذخائرها ونفائسها الثمينه .

أما فيما كان يبذل للعلماء لدى تأليفهم كتشجيع لهم ولغيرهم، فكان شيئاً لم نسمع به من قبل في أمة من الأمم، فقد روى المؤرخون أن حنين بن إسحاق كان يتقاضى من الخليفة المأمون وزن ما يقوم بترجمته ذهباً مثلاً بمثل، ولذلك كان يختار من الورق أثقله ويفسح ما بين الكلمات ما استطاع.

ويقول الطبيب (جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع): (صنفت مئتي ورقة أخذت عنها ألف دينار).

ولنا أن نقول: بأن كل هذه المكتبات والحركة العلمية الزاهية الزاهرة، كانت البذور الأولى لتكوين جيل عظيم من العلماء ورواد المعرفة الذين قادوا ركب الحضارة والتقدم، ووضعوا أسس العلوم التي قامت عليها الحضارة الحديثة، وما أروع أن تعرف الأجيال الناشئة ويقرر عليهم في مناهج التعليم سفراً يضم حياة هؤلاء وجهودهم وما قدموه للدنيا وكيف أضأوا للعالم دروب الجهالة والظلام؟

نحتاج للأجيال أن تعرف الخوارزمي وجابر بن حيان وابن نفيس والإدريسي وابن طفيل وابن رشد والطوسي وابن خلدون وغيرهم كثير ممن وضعوا أسس الحضارة في كتبهم، فاستكملت أوروبا مشوارهم العلمي.. أما نحن فتراجعنا وأصابتنا غيبوبة مزمنة..!

ومن باب الأمانة لابد أن نذكر هذا التحول الخطير في حياة هذه الأمة وكيف كانت قبل هذه الموجة العاتية من ولعها بالكتب والمكتبات..

هل كانت هذه الروح وهذا الشغف له جذوره قبل مجيء الإسلام  
أوفي بداياته.. والحق أن المدارس والمتابع لتلك الفترات ليجدن موقفا  
مختلفا تمام الاختلاف ولكنه اختلاف له أسبابه وظنونه وتداعياته..

وإنك لتعجب من هذه الأمة حينما تقارن بين سلفها وخلفها.. فمع  
هذا الشره في حب الكتب والمكتبات كان لها قديماً موقفها السلبي  
الذي رفضت معه كل محاولة للتدوين، وحثرت فيه من كل صحيفة  
مكتوبة.. ولم يكن ذلك بغضاً للعلم أو إلفاً للجهل، وإنما كانت لها  
ظروفها الخاصة وملكتها التي حباها الله بها.. كما كان لها تصورها  
الذي تعذر فيه..

فالرسول ﷺ يقول: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) ٩

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنا لا نكتب العلم ولا نُكتبه) ١٠

وهي نصوص تقرر بأمية الأمة التي ظهر فيها الإسلام، فكانت  
وسائلهم العلمية تعتمد على الحفظ الذي رفعوا من شأنه ومجدوه  
حتى أنه كان الوسيلة في تحمل الرواية ونقل الحديث النبوي الشريف،  
وقد ذم بعض الصحابة كتابة الحديث نفسه.. حيث روي عن أبي  
نضرة قال: (قيل لأبي سعيد: لو أكتبنا الحديث. فقال: لانكتبكم، خذوا  
عنا كما أخذنا عن نبينا ﷺ)

9 - رواه ابن ماجة وأبوداود والنسائي

10 - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

وكان ابن عباس ينهى عن كتابة العلم ويقول: (إنما ضل من كان قبلكم بالكتب)

وقال أعرابي: (حرف في تامورك خير من عشرة في كتبك).

وهذه العادة كانت مشهورة عند العرب فكان منهم من يحفظ أشعار غيره بسمعة واحدة وقد جاء أن (ابن عباس) حفظ قصيدة (عمر بن أبي ربيعة): (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) في سمعة واحدة، وقد دفعهم إتقانهم لهذه الملكة أن يحتقروا كتابة العلم في قراطيس وتوارثه المسلمون في صدر الإسلام

حتى أن علياً عليه السلام كان يخطب يوماً ويقول: (أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا يرجع فمحاها، فإنها هلك الناس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم وعن أبي برده ابن أبي موسى الأشعري قال: ( كتبت عند أبي كتابا كبيراً فقال إئتني بكتبك، فأنتيته بها فغسلها)

وعنه أيضاً: كان أبو موسى يحدثنا بأحاديث فقمنا لنكتبها فقال: أتكتبون ما سمعتم مني؟ قلنا: نعم قال: فجيئوني به، فدعا بماء فغسله، وقال: (احفظوا عنا كما حفظنا).

وغير هذا من النصوص التي وردت في التحذير من التدوين والكتابة ولأن الحفظ عندهم كان سمة تميزوا بها.. ومع تغير الأزمان واختلاف الطباع والاحتكاك بالأمم تطورت الفكرة، وعرف العرب النسخ

والكتابة والتدوين.. كما كانوا يرفضون أي كتاب آخر غير (القرآن  
الكريم) لتهتم به النفس وتعنى به همة القاريء..!

## عشاق القراءة

تعالوا بنا نعايش بعض العاشقين، ونرى من غرائب عشقهم وهيامهم ما فاقوا فيه عشاق النساء، والمتغزلين بسحر المرأة ومفاتها وخطوتها وحركتها ونظرتها وهمستها، كانت القراءة هي العمل الذي يصبحون عليه ويمسون، ويقومون ويقعدون، وكان أحدهم يستطيع أن يفارق زوجته وأبناءه.. لكنه أبدأً لا يستطيع أن يفارق كتابه، فهو صاحبه وأنيسه، وجليسه ولصيقه، الذي لا يتركه في حله أو ترحاله، وصحوه أو منامه.

كان للجاحظ منذ نعومة أظفاره ميل واضح ونزوع عارم إلى القراءة والمطالعة حتى ضجرت أمه وتبرمت منه، وظل هذا الميل ملازمًا له طيلة عمره، حتى أنه اشتهر عنه أنه لم يكن يقنع أو يكتفي بقراءة الكتاب والكتابين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر..!

وأورد (ياقوت الحموي) قولاً لأبي هقان، وهو من معاصري الجاحظ ومجالسيه ما يدل على نهم الجاحظ بالكتب وقراءتها، حيث يقول فيه: (لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان ولا عجب إذ ذاك في أن يفرد الصفحات الطوال مرات عدة في كتبه، للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها)، لقد كان كما قيل:

أشبهه بآلة تصوير، فليس هناك شيء يقرأه إلا وينطبع في ذهنه ويظل في ذاكرته أمادًا طويلة.!

لقد طلب العلم في سن مبكر، فقرأ القرآن وتعلم مبادئ اللغة، ولكن اليتيم والفقر كان حائلًا منعه من التفرغ للعلم وطلبه، فلم يجد إلا أن يبيع السمك والخبز بالنهار ويكتري دكاكين الوراقين في الليل، فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته، حتى كان السبب في موته هوسقوط محبوبته عليه، وهي المكتبة بما فيها من كتب ومخطوطات.

بل كان من الذين يرون في إنفاق المال على الكتب، لذة لا تعدلها لذة إذ يقول في الحيوان: (من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب أذ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه) ♦

وقال (سليمان الحموي) أحد شيوخ ابن حجر:

وقائلة أنفقت في الكتب ما حوت

يمينك من مال فقلت دعيني

لعلي أرى فيها كتابًا يدلني

لأخذ كتابي آمنًا بيمينني

ولك أن تتخيل أن يصل هذا النوع الخطير من العشق بأصحابه إلى حد المرض وهو ما حكاه (ابن القيم الجوزية) رحمه الله عن شيخ الإسلام (ابن تيمية) قدس الله سره حيث قال:

(وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرضي، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض! فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك.. أليست النفس إذا فرحت وسرت وقويت فدفعت المرض فقال: بلى! فقلت له: إن نفسي تسر بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا) ١١

ووصفه تلميذه (ابن عبد الهادي) في العقود الدرية بقوله: ( لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروي من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال ولا تكل من البحث، وقل أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله)

وقال عنه الشيخ (محمد خليل هراس): ( كان لابن تيمية بصر نافذ، ونفس طُلعة لا تكاد تشبع من العلم ولا تكل من البحث، ولا تروي من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، حتى أنه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أوفي مصر، في السجن أوفي البيت، بل إنه كان يتوجع ألمًا وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق من عنده في أخريات أيامه) ١٢

11 - روضة المحبين لابن القيم

12 - ابن تيمية السلفي - الدكتور محمد خليل هراس

كما كان (ابن الجوزي) عصياً في عشقه.. فقد سجل حاله وصور هيامه ونفسه الطويل في القراءة في كتابه الجليل (صيد الخاطر) فكان مما قال: (وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أقرأه، فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد وفي ثبوت كُتب أبي حنيفة، وكُتب الحميدي، وكُتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد الخشاب، وكانت إجمالاً وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولوقلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب)

وقال السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة محمد بن أحمد الصغاني: (وكان إماماً علامة متقدماً في الفقه والأصلين والعربية، مشاركاً في فنون، حسن التقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال: أعرفه أزيد من خمسين سنة، وما دخلت إليه قط إلا ووجدته يطالع أويكتب)

وكان (ابن المبارك) يكثر الجلوس في بيته للقراءة والتزود من العلم ومطالعة الكتب ومعرفة أحوال النبي ﷺ وصحبه الكرام، فقيل له: ألا تستوحش فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه..!

وغضب حينما قيل له: إنك تكثر الجلوس وحدك؟ وقال: أنا وحدي؟! أنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء والنبي وأصحابه ثم أنشد هذه الأبيات:

ولي جلساء ما أمل حديثهم      ألباء مأمونون غيبا ومشهدا  
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم      معينا على دفع الهموم مؤيدا  
يفيدونني من علمهم علما مضى      وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا  
بلا رقبة أخشى ولا سوء عشرة      ولا أتقي منهم لسانا ولا يدا  
فإن قلت: أحياء فلست بكاذب      وإن قلت: أموات فلست مفندًا

وحينما نذكر كلمة عشق فلا بد أن تغير النساء، وهو ما حدث بالفعل وعبرت عنه زوج (ابن شهاب الزهري) حينما جمع كتبًا كثيرة ولازمها ملازمة شديدة فقالت: والله إن هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر!

وكان (ابن سينا) فيلسوفًا وطبيبًا عبقريةً وهو لم يتجاوز العشرين بعد، وفي يوم من الأيام استدعاه الأمير (منصور بن نوح) ليعالجه من مرض مستعص، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه، ثم قال له يريد مكافأته ماهي الهدية التي تحب أن أهديها لك؟ فقال ابن سينا: إنني منذ زمن بعيد أتوق إلى هدية واحدة أطمح إليها، فاستعد الأمير ليجيب طلبه وقال له ماهي إذن: فقال له أمني أن تفتح لي خزانة كتبك.. وروي عن (الحسن اللؤلؤي) أنه قال: لقد مرت علي أربعون عامًا ما قمت ولا نمت إلا والكتاب في صدري!..

هذا قسط من أخبار العاشقين القدامى، وما زال الزمن ولودا

بأمثالهم.. فلا يرحل منهم راحل إلا ويولد غيره قائماً بالعهد سائراً على النهج، يوالون القراءة بالعشق جيلاً بعد جيل.. لقد كان (برنارد شو) يبدأ في قراءة الكتاب أثناء ارتداء ملابسه، فيلبس القميص ويجلس ليقراً قليلاً، ثم يلبس البنطال، ثم يعود ليقراً، ثم يلبس ربطة العنق، وينكب على القراءة، ثم الجوارب، ثم الحذاء، ويفعل نفس الشيء عندما يخلع ملابسه!

وعندما ذهب (نابليون) للمنفى، كان ينتظر السفينة القادمة من فرنسا المحملة بكتب جديدة حتى قرأ في منفاه سبعة آلاف كتاب، وحتى في الجبهة وميدان القتال، كان شغوفاً بالقراءة ولم يتركها ولا يكاد يفرغ من كتاب حتى يلقيه من نافذة عربته، أو يعطيها للجنود..!

كان العالم الانجليزي (إسحاق نيوتن) لا ينام لساعات ممتدة متواصلة كبقية الناس، وإنما كان ينام بشكل متقطع، ينام لساعتين ثم يستيقظ ليقراً ويعمل، ومتى نال منه التعب نام لساعتين مرة أخرى وقام مجدداً ليقراً ويعمل، وهكذا يقضي يومه..!

وما أعجب أن تقترن النهاية أيضاً بالكتب تلك النهاية التي تفرع المرء من كل مآرب الحياة، لكن صولة الفرع مهما كان قرع طينها، لم تكن أبداً لتثني (سارتر) عن معشوقه حينما قال: (بدأت حياتي كما سوف أنهيتها بين الكتب)

وكان منهم من يراها غذاء للروح، ولا بد له أن ينفق لتحصيله كما ينفق في تحصيل طعام الجسد، فهذا العملاق (زكي مبارك) أيام اعتقاله كان يقسم ماله قسمين، قسم لطعامه وقسم لكتابه.. لأنه يرى أن غذاء الروح والعقول لا يقل عن غذاء البطون.!

ويصف أحدهم مكتبة (أحمد لطفي السيد) بقوله: (تكون المكتبة في العادة جزءاً من البيت، ولكن بيت لطفي السيد باشا هو جزء من مكتبته، وهو يرصد كل وقته تقريبا للقراءة والدراسة، ولا ألقىه مرة إلا وأجد له اهتماما بموضوع ثقافي أولغوي يثير المناقشة بيننا..!) ١٣

وحكى عاشق آخر شغفه بالكتب وحبه للقراءة فقال: (اشترت كتابا من مدينة غير مدينتي ثم رحلت إلى بلدي، فما استطعت السير بسيارتي شوقاً إلى الكتاب، فما كان مني إلا أن توقفت في الطريق وقرأت الكتاب بأكمله، ثم أكملت مسيري..!

وقال غيره: (لقد مرت علي أيام كنت أهرب فيها الكتب إلى مكتبي العامة في المنزل مع الخضار خشية غضب الوالدين )

ثم يذكر لنا (توفيق الحكيم) حياته مع القراءة وعشقه لها.. ذلك العشق الذي بلغ أن يؤثرها على الطعام والشراب.. هاهو يذكر تلك السنوات التي التهم فيها الكتب والعلوم التهاماً، فبعد أن قرأ حوار الشيطان مع فوست في ليلة شاتية، وهي القصة التي ذكرها في كتابيه (ثورة الشباب) و(يقظة الفكر) حيث كتب يقول:

13- حياتنا بعد الخمسين - سلامة موسى

(مضى على تلك الليلة عشرات الأعوام التهمت فيها الكتب التهاما، وأحطت بمختلف العلوم والفنون علمًا، وعشت مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين، وأحبت فيها المعرفة حبًا كالجنون.. فلم أكن أطيع صبرًا على الجهل بفرع من فروعها، وكنت أحيانًا لا أملك من النقود غير الضروري لأكل بقية الشهر وأصافد في واجهة الحانوت كتابًا أو كتابين فما أحجم، وأدفع فيهما ما معي، وأتبلغ طول أيامي بمرق الأرز ونقيع الشاي.. وذهب بي الجنون إلى حد الرغبة في الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب عليه، فنظرت في كتب الفلك، والعلوم الروحانية، والرياضيات العليا..!)

أما (خالد) فإن قراءته كانت لا تقف عند حد، وكانت واسعة غزيرة تشرق وتغرب، وكان يقول: (أكببت على الفكر الغربي في مؤلفاته المعربة أقرؤه رويدا رويدًا.. ثم بعد ذلك جاء الوقت الذي تفرغت فيه له ورحت أطلعه بنهم وإعجاب.. (تولستوي - ومكسيم جوركي - وفكتور هيغو - وجوليان والدوس - هكسلي - فولتير - روسو - أناتول فرانس - ويلز - إمرسون - وقرأت لماركس).

وكان أديب الدعاة أستاذنا وشيخنا الدكتور (محمود عمارة) طيب الله ثراه، حريصًا في صباه على قراءة الأهرام يوميًا، وكان لهفا عليها لما فيها من مقالات أدبية شبهها بباقة الزهر الجامعة لكل ما في بستان المعرفة من أفانين، من المقالة الأدبية إلى القصيدة الشعرية والطرافة والتعليق، وقد شكلت هذه الصحيفة تكوينه الثقافي،

وكانت البداية التي تولدت منها عاطفته نحو القراءة، فكان يأوي إلى سطح البيت في قريته الريفية، حتى لا يقطع عليه قاطع هذه المتعة التي يجدها في قراءة الصحيفة مما ترتب عليه حرمانه أحيانا من الطعام.. ومنذ ذلك الوقت وبسبب صحيفة الأهرام تكونت لديه عادة القراءة وهي العادة التي يؤكد أنها لا تولد مع الإنسان وإنما يتحصلها بالدأب والمعاناة)

وكان (بورخس) قد أصابه العمى والذي عده أفدح مصاب له في الحياة، لأنه حجب عنه النور، ولكن لأنه منعه من القراءة ومطالعة الكتب، وهو العاشق الهائم بها، كان ذلك في بداية الأربعين من عمره مما اضطره أن يعتمد على أمه وأصدقائه في قراءة الكتب التي يريدونها ثم يكتبون له ما يريد، ولم تمنعه علته وعجزه أن يكون أشهر كتاب عصره.. لكنه في نفس الوقت كان يواسي نفسه ويصبر على بلائه ويقول: (لقد وهبني الخالق عشق الكتب وابتلاني بالعمى في آن واحد، ياله من تناقض رائع)

ويبدأ أن غرامه بالكتب وحبه للقراءة يرجع إلى والده الذي حاول أن يكون كاتباً لكنه فشل، أما بورخس فلم يفتش لأنه عشق القراءة وكانت أمنيته تلوح في خياله، قال عنه الشاعر الإسباني (مونتيرو) حينما التقى به في عام ١٩٩١م: (لقد علمني كيف أكون قارئاً أصيلاً لتمرير القراءة دوماً، بحيث يصبح الكتاب جزءاً مني وليس مجرد شيء بين يدي كما أنه يشترط إعادة قراءته)

ويقول (أبرتوماغويل): (لقد علمنا كيف نقرأ، وقد كان يكتب وهو يقرأ، ويقرأ وهو يكتب، وربما هو القارئ الذي انتهى كاتبًا، والكاتب الذي انتهى قارئًا)

ارتبط (بورخس) منذ صغره بالكتاب، وقضى عمره في القراءة والمطالعة، وقد قيل عنه: إنه لو أُتيح له أن يدفن نفسه بين دفتي كتاب لفعل، كانت الكتب شاغله الشاغل فهي في بيته وفي عمله وفي طفولته وصباه وهرمه، لقد تولى أمانة المكتبة الوطنية في العاصمة (بوينس آيرس)، حينما كان في منتصف عمره وهي أكبر مكتبة في الأرجنتين، وأصبح بهذه الوظيفة حائزًا على الكنز الذي حلم به في مقتبل عمره، كنز من كتب عتيقة، ومخطوطات مهمة، ومجلدات غطاها الغبار، وأرشف تزامحت فيها الكتب التي طبعت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين..

إن عشق الكتاب حالة فريدة من الهيام والإخلاص يصعب فهمها على الإنسان العادي، الذي لا تمثل الكتب ولا القراءة شيئًا في حياته، ولربما عد أصحابها من زمرة المجانين الذين فسدت عقولهم.. ! ثم إذا حاول أن يفسر هذا الغموض الذي يكتنف هذه الحالة، فإنه لا يستطيع ولا يهتدي إلى ذلك سبيلًا..!

والإنسان القارئ لا يتخذ الكتاب مسلاة أو شاغلًا له عن الفتور أو مؤنسًا له في أوقات الضيق والفراغ، وإنما يكون الكتاب بالنسبة للقارئ محبوبه وهواه الذي لا يطيق بُعاده أو هجره وجفوته.. ولعل

هذا ما يفسر لنا بعضًا من أحوال السابقين.. فقد كان أحدهم في  
سكرات الموت، وعلى فراش الرحيل، ويطلب ممن حوله أن يقرؤوا  
عليه، لأنه يحب أن يموت وهو قائم على القراءة، ذلك العشق الذي  
لازمه طوال حياته..!

ويأتي الحديث الشريف ليلقي بظلاله على تلك الحالة فقد قال ﷺ:  
(منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا)

ويقول الشاعر:

ليس عندي شيء ألد من العلم      فلا أبتغي سواه أنيساً  
ما تطعمت لذة العيش حتى      صرت للبيت والكتاب أنيساً  
إنما اذل في مخالطة الناس      فدعهم عزيزاً رئيساً

## ماذا نقرا ؟

لا يولد الإنسان من بطن أمه قارئاً، وإنما لابد من عوامل طبيعية وأسباب حياتية تقوده لهذه الهواية النفيسة، وأول ما نجد ذلك عند المبكرين إليها.. فمنهم من تعلمها عن طريق المحاكاة والتقليد.. كأن يقلد الولد أباه أو أخاه أو أمه.. حينما انفتحت عينه على الدنيا فرأى أيديهم تحمل الكتب، وأعينهم تقلب في صفحاتها، أو عرف القراءة حينما شجعه عليها معلم الفصل أو رغبت فيها الأنشطة الثقافية التي تنظمها المدرسة.. !

والقراءة في ذاتها كأي شيء في الحياة لا تتولد الرغبة فيه إلا إذا وجدت الحاجة إليه، (وهو ما أشار إليه علم النفس بأن كل إدراك عقلي مهما كان نوعه لا يصبح محل تطبيق إلا حين يكون مرتبطاً بشكل وثيق بحاجة من الاحتياجات الأساسية التي أوردتها العالم الأمريكي (ابراهام ماسلو) عن سلم الحاجات وإذا لم ترتبط بشيء منها فلن يهتم بها الإنسان وقد أوردتها ماسلوفيا يلي:

- ١- الحاجات الفسيولوجية أي حصوله على المأكل والمشرب والمسكن وخلافه
- ٢- حاجته للشعور بالأمن والأمان الفيزيائي.
- ٣- حاجته للإشباع الاجتماعي، كحصوله على الأصدقاء والأحبة.

٣- حاجته للشعور بتقدير الآخرين له والإشادة بفضله.

٤- حاجته لتحقيق ذاته والنجاح في الحياة وبالتالي شعوره بالرضا

عن نفسه.)١٤

وأمام هذه الاحتياجات كان القاضي (هولمز) رئيس المحكمة العليا في واشنطن، وهي المحكمة التي تفصل بين حقوق الولاية وحقوق الحكومة المركزية، بل بين حقوق البرلمان وحقوق الرئيس في أمريكا حينما تجاوز سنه التسعين أذاع حديثاً افتتحه بكلمة الشاعر اللاتيني القديم: (إن الموت يجذب أذني ويقول: عش فياني قادم)

وأمام هذه القولة الآسية..لم يمنعه هذا الشعور العميق بدنواالأجل وكبر العمر، أن يعمل ويتجمل بالأمل، ويطور من قدراته ومعارفه وذهنه..!، فحينما زاره روزفلت عام ٢٣٩١م عقب انتخابات الرئاسة، وجده يقرأ كتاب الجمهورية لأفلاطون، فسأله: ماذا تبغي من قراءة هذا الكتاب ؟، فأجاب القاضي (هولمز):أبغي ترقية ذهني يا مستر روزفلت..!

إنه الاحتياج إذن ما دفع صاحبه.. ومنعه أن يتسرب إليه أي شعور باليأس من الحياة، خاصة بعدما عبر التسعين التي تجعل الكثيرين يقضون أيامهم في الفراش وأوقاتهم في التسلية والراحة.. لقد انطلق الرجل ليعمل ويدرس ويتثقف ويقرأ ويرتقي..!

---

14 - كيف تجعل القراءة جزءاً من حياتك - ساجد العبدلي

كما نجد أولئك الذين يشعرون بالحرمان من القراءة.. يقف أحدهم ليقول: ماذا أقرأ؟ لأنه لا يستطيع ولا يدري كيف يلج إلى عالم القراءة.. ومن هنا لابد من البحث العميق في أبعاد نفسه ليتساءل: أي مجال يحب حتى يقرأ فيه، إذ لابد له أن يقرأ فيما يحب وهي الخطوة الأولى لصنع الإنسان القاري..

ومن هنا.. كان على المرء أن ينظر في نفسه بماذا تحقق له القراءة حتى يقبل عليها؟ هل ستكون طريقه للتفوق؟ هل تزيد من حب الناس له؟ هل هي لازمة له كأستاذ جامعي أو محاضر أو باحث؟ هل هو إعلامي أو معد لبرامج يومية أو كاتب لعمود يومي بالصحف ولا بد له من الجديد عن طريق البحث والقراءة؟ هل يحاضر في نادي ثقافي أو صالون أدبي ويطرح على المشاركين رأيه وحلوه لكثير من القضايا التي يصقل المعرفة بها عن طريق القراءة؟ هل يستمتع بها وترتاح نفسه لها؟ هل تحقق له اللذة التي تغنيه عن العالم وتساعد على الهروب من مشكلاته وأزماته؟

هناك من يقرأ.. لأنه يريد أن يكتشف ميادين مجهولة عليه ولا سبيل للوقوف عليها إلا بالقراءة، وهناك من يقرأ ليجتهد عن معلومة ولبيكتشف مصدرها وهي القراءة الباحثة، وهناك من يقرأ بغرض النقد وكشف العورات وتصيد الهفوات التي يقع فيها كاتب الكتاب، وهناك من يقرأ حتى يقتبس الأفكار والجمل والتراكيب اللفظية ليستعملها في أحاديثه وكلامه مع الناس، وبعضهم يجعلها

سبيلاً للفخر والمباهاة ويشعر بنفسه حينما يستشهد بالكتب التي  
يقرأها.. !

ومن هنا كان تحديد الغرض والهدف من القراءة ودراسة الدافع  
إليها شيئاً ضرورياً ضروري لبداية الطريق الصحيح للقراءة، فالمهم  
أن تبحث عن الغرض، وتحدد الهدف، ومع وجود العزيمة تصير من  
القارئين..!

إن الإنسان يظل طوال حياته يتعلم.. فهو يخرج إلى الحياة فيقتبس  
معارفه من بيته وأسرته ومدرسته ومحيطه ومجتمعه الذي يعيش  
فيه.. ولكنها موارد لا تُغني صاحبها ولا تشبع رغبته في المعرفة، كما  
أنها لا تضعه على طريق العلم والفهم للحياة، أو تُعده الإعداد  
الكامل والمطلوب لإدراك حقائقها.. ومن هنا كان لابد من طريق آخر  
لبناء العقل والمعرفة، وتحصيل الخبرة والدراية والإحاطة بما يخفى  
على العقول.. إن الجسد يطلب نموه بالطعام والشراب وكذلك العقل  
ينمو بالمعرفة والقراءة والعلم والاطلاع، وإذا امتنع الجسد عن الطعام  
هلك وهزل وضمير وخرجت منه الروح، وكذلك العقل يهزل ويقصر  
ويضمحل إذا لم نعطه وغمناه غذاءه من العلم والثقافة والمعرفة،  
وهذا هو الهدف المباشر للقراءة التي نكرم بها هذا العقل الذي  
هو أعظم مخلوقات الله، والقراءة لا تكون للتسلية وإنما هي رسالة  
كبيرة ووسيلة مثلى لرقى الإنسان والمجتمع ورقى الحياة كلها، فبها  
يتعرف الإنسان على كثير مما جهله وكثير مما يجب معرفته،

بها يتقرب الإنسان إلى ربه ويعرفه معرفة حقيقية تؤهله للقرب منه سبحانه، حينما يقرأ كتابه وسنة نبيه ﷺ ويتعرف على مغزى الشريعة وغاية الأمر والنهي، كما أنها تُنمي ملكة التفكير والتأمل التي إذا وصل إليها الإنسان وبلغها صار على جانب كبير من الحكمة وفهم حقيقة الأشياء والبصيرة النافذة، التي تخترق الغيوم والضباب.. فكل كتاب تقرأه يُفجر فيك طاقات من التفكير والإبداع تستقر في أعماقك وتظهر في أعمالك، فهي تطوير فعال للقدرات العقلية تستطيع من خلالها أن تتعامل مع مشكلات الحياة وأزماتها التي تواجهها..!

ومن أعظم ما تكسب القراءة صاحبها معرفة النفس والوقوف على خصائصها وخطاياها وعلاتها وأدائها فيعالجها، وتبصره بنقائصها فيكملها أو إفراطها فيحد منه.. ونستطيع بالقراءة كذلك أن نقود من حولنا بأيسر الطرق نحو الوثام والوحدة والتآلف، رغم اختلاف الطباع والغرائز والنزعات والنحل، والقراءة غير التعليم الذي يُعد الخطوة الأولى نحو الثقافة والوعي، نستطيع بالقراءة أن نفهم طبائع الشعوب وسلوك الأمم وسجايا الأوطان لنعرف ما يناسبها وما يفسدها وما يصلح أمرها، فنستدعي الدواء ونتجنب الداء، وندرك المداخل التي تؤثر فيها وعليها فيسهل تعاملنا مع عناصرها ونجح في علاقتنا بها.. إننا نقرأ لأن القراءة طريق النهوض حسب ما أدركت الدول المتقدمة، التي تتصارع على القمة وتتسابق نحو الريادة.. وهي التي تذهب بنا في آفاق الماضي فنستفيد من التاريخ، ونقتبس منه

الدروس والعبر، ونتعلم من مواقفه وأحداثه، والأمة التي لا تاريخ لها تشعر باليتم والتيه فهي محرومة من التجربة، وليس لها ماض يرشدها ويوجه أزماتها ويعلمها العدو من الصديق، ويصرها بالتعامل الجيد مع الأحداث.

يقول شيخنا (القرضاوي): (قراءة التاريخ توسع الآفاق وترينا أحوال الأمم وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام بها وبهم، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور؟ كيف ترقى الأمم وتهبط؟ كيف تقوم الدول وتسقط؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم؟ وكيف تحيا الحضارات وموت؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو؟ التاريخ كثيراً ما يعين على فهم الواقع المائل، ولا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع، وهذا ما جعل العرب قديماً يقولون: ما أشبه الليلة بالبارحة! وجعل الغربيين يقولون: التاريخ يعيد نفسه.!) ١٥

تعطينا القراءة حياة فوق حياتنا وأعماراً فوق أعمارنا، وخبرات فوق خبراتنا وهي المعاني التي فهمها الأستاذ (العقاد) حين قال: (لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة..)

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى  
عمر الإنسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن  
كانت لا تطيلها بمقادير الحساب..

فكرتك أنت فكرة واحدة..

شعورك أنت شعور واحد..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أولاقيت بشعورك شعورًا آخرًا،  
أولاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح  
فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين.. كلا..  
وإما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الأفكار في القوة والعمق  
والامتداد.. والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة  
ومحسوس في عالم العطف والشعور.. ففي عالم المشاهدة يجلس المرء  
بين مرأتين فلا يرى إنسانا واحدا أو إنسانين اثنين، ولكنه يرى عشرات  
متلاحقات في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه.١٦

ويقول د.(طه حسين): ( وما نعرف للإنسان شيئا يحقق تفكيره  
وتعبيره ومدنيته كالقراءة، فهي تصور التفكير على أنه أصل لكل ما  
يقرأ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ).

وتأتي القراءة كأداة الرقي والتهديب والوقوف على ما يُحسن المشاعر  
ويقوم الأحاسيس ويغرس معالم الرحمة والعدالة في الوجدان، وهو ما  
16 - أنا - عباس العقاد

اهتدى إليه الأستاذ (عمر التلمساني) رحمه الله وظهر له أن أعظم فوائد القراءة في نفسه أنها أكسبته أخلاقاً عظيمة وجعلته قدوة في الذوق والإحساس وغمّت فيه كثيراً من المشاعر التي استطاع أن يكسب بها القلوب.. فقد قال: (الشيء الوحيد الذي استفدته من وراء كل هذه المعاناة أنني أعرف للناس أقدارهم، فلم أمس إنساناً بقلمى ولا بلساني، حتى الذين هاجموني ونالوا مني لخلافي معهم في الرأي)

جاء ذلك بعد ما قرأ في يفاعته أول ما قرأ قصص (أبي زيد الهلالي سلامة) و(عنترة بن شداد) و(سيف بن ذي يزن)، ثم تدرج حتى قرأ روايات (اسكندر ديماس) وابنه وتعرف إلى أبطال قصصه، وكانت شجاعتهم ودفاعهم عن معشوقاتهم تملك كل أوقاته في شهور الإجازة، ثم قرأ الأرض لـ(إيميل زولا) وقال عنها: (لم تنل مني اهتماماً لوقاحتها وخروجها عن حيز الذوق واللياقة رغم الطنطة التي أثرت حولها)، ثم قرأ البؤساء وكل ما كتبه (المنفلوطي) وكان كما قال: (كنت نهماً في القراءة، ورغم هذا العشق للأدب لم أستطع أن أكون أديباً، وأقبلت على القراءة الدينية فقرأت الزمخشري وابن كثير والقرطبي وسيرة ابن هشام وغيرها من السير، وقرأت أسد الغابة والطبقات الكبرى ونهج البلاغة والأمالي والعقد الفريد لابن عبد ربه والعقد الفريد لابن سيده والبخاري ومسلم من الجلدة إلى الجلدة.. ورغم كل هذا فإني أؤمن بأن ما قرأته قطرة من بحر لا تروي ظمأ) ١٧

17 - ذكريات لا مذكرات- عمر التلمساني

ما من عظيم من العظماء أوقائد من القواد إلا وللقراءة في حياته أثر كبير واهتمام بالغ، إن لم تكن هي السبب الأساس في بزوغ نجمه وانبعاث موهبته، لأن القراءة تطرد الجهل والتخلف من سماء العقل والتفكير، ليخلوا الطريق أمام الإبداع والابتكار.. القراءة تعطي القدرة على الخلق والإبداع، وكل من ظهر ونبغ في عالمنا العربي كان أساسه القراءة، كمشرفة والسنهوري والعقاد، كما كان لها كبير الأثر فيمن ظهر من السياسيين أمثال تشرشل و(أبراهام لينكولن) الذي أدرك علاقتها القوية في اتخاذ القرار السياسي فكان لا يفتأ يقرأ ليل نهار لإيمانه الكبير بقدرة القراءة في مساعدته على إدارته وكثيراً من قراراته، كما نجد العلاقة القوية بين القراءة والحرية فالذين يقرؤون هم الأحرار، لأن القراءة تطرد الخرافات والهواجس التي تسيطر على الإنسان ولا تستطيع هذه الأمور أن تغش الإنسان المطلع المثقف..

حاجة الإنسان إلى القراءة حاجة ماسة، وعنصر هام من عناصر الحياة السعيدة، فإذا كان للقراءة كل هذا التأثير في الحياة، فكيف نُهملها ونتغافل عنها؟! أولى بنا أن نُغير من بلادتنا فنهب إلى المطالعة، ونصادق الكتب، وننحي عنها غبار الإهمال، ونعاهدها أن لا تغيب عن أيدينا أبداً (فالكتاب هو الصديق الصدوق وهو مخزن المعلومة وهو الذي تعيش معه ويعيش معك، ولا يعترف بالعمر ولا بالزمان ولا بالمكان، إنه يعطيك من فرائده ومن خيراته، من فضله وعطائه)

ولله در القائل:

وَخَيْرُ جَلِيسِ الْمَرْءِ كُتُبٌ تُفِيدُهُ  
عُلُومًا وَأَدَابًا، كَعَقْلِ مُؤَيَّدِ

وقال غيره:

سلوا التاريخ عن هدي الكتاب      وما يحويه من رأي صواب  
وكم من جيل ساروا في هداه      وكم قد ضم من عجب عجاب  
وما للجيل عن كتب غناء      وفيها الجمع دوما للرباب  
وبدء الوحي للمختار اقرأ      معان الوحي غيث في انسكاب  
لدينا مكبات فلنزرها      هي البستان يا خير الصحاب  
وكم في الكتب من فتح لباب      وكم في الكتب من علم لباب  
رياض العلم فيها ضوء علم      وتذليل عظيم للصعاب  
بطون الكتب تحوي كل كنز      ومن يقرأ رآها في انسكاب  
لها تأثيرها في كل آن      وفي الأجيال كهل أو شباب  
وتصنيع الكتاب اليوم أمر      مهم كالمطاعم والشراب ١٨

## التشجيع على القراءة

يقول العقاد: ( إنني أومن بكلمات التشجيع التي يتلقاها الناشيء في مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم فيمضي إلى وجهته على يقين من النجاح)

إن التشجيع على القراءة والدفع إليها ليست بعيدة عن حديث العقاد، فقد كانت نصيحة السابقين والمتأخرين، وكل من يلتمس نبوغا مبكرا فيمن حوله من الناشئين النابهين، ولعل النصيحة بالقراءة هي أول ما تلقاها أدينا الكبير الأستاذ الشيخ (خالد محمد خالد) في أول لقاء له بالشيخ الأزهري (محمد عبد اللطيف دراز) فقد حضر خالد مجلس (النقراشي) يوما ولما هم بالرحيل طلب منه النقراشي أن يمكث حتى يتعرف على الشيخ (دراز) لأنه كما قال له: تائر كبير، ولما حضر الشيخ دراز حيا النقراشي وساعتها هم خالد بالاستئذان قال له الشيخ: انت ساكن فين يا وله؟ فأجاب خالد: في الحي الحسيني يا مولانا.. فقال له: خلاص اقعد لما نمشي سوى، فطريقنا واحد، يقول خالد: (صافحنا معالي الباشا وانصرفنا، وكان فضيلته يسكن في حي الحلمة أمام المحكمة الشرعية العليا، وأثناء سيرنا راح يناقشني في قضايا السياسة، فشرعت أقارن بين موقعه من مؤتمر الصلح بباريس وموقف سعد زغلول مفضلا موقف الأول على الثاني، والشيخ يحاورني، وقد وضع ذراعه في ذراعي ويصح لي بعض

أخطائي واستنتاجاتي، وكان مما قاله لي: شوف يا خالد يظهر انك ذكي، ودكاؤك السياسي يبشر بالكثير، ولكن أنصحك أن تقرأ كثيراً وكثيراً، ثم قال وهو يضحك: ومين عارف يمكن يطلع منك حاجة كويسة، ثم ودعته أمام باب فيلته ومضيت لسبيلي).

وهي ذات النصيحة التي وجهها خالد نفسه للشباب الذين يولون وجوههم شطر الأدب والكتابة حيث قال عنهم في مذكراته: (والشباب المولي وجهه شطر الأدب والكتابة عليه أن ينضج موهبته على نار هادئة.. كما عليه أن يتوسل بالأناة وبالتواضع ويكسر جهوده للحقيقة، حتى يكون من رعاياها وحدها وليس من رعايا ملك ولا رئيس ولا عظيم..!! فإذا فعلوا فيني من خلال تجربة واعية وصادقة أبشهم بأن سيكون لهم إن شاء الله ما يشتهون..

اقرؤوا.. ثم اقرؤوا.. ثم اقرؤوا.. واختراروا لأنفسكم ما تقرؤون..!!  
وفكروا.. وتأملوا.. وارفضوا.. وتقبلوا..

واذكروا الحكمة القائلة: (بالمثابرة والصبر، يصبح ورق التوت حريراً )

كثير من العباقرة لا يعدونبوغهم أن يكون كما أشرنا نابغاً من حفاوة والد أوتحفيز أم، أوتشجيع معلم دفعه إلى غايته بكلماته، التي تمثل سقاءً يروي في نفسه منابت النبوغ، فتورق وتثمر أينع الثمار.. وكم يتحिन الإنسان منا أن يلقي عالماً كبيراً أومفكراً مرموقاً!. فيمثل بين يديه، ويعرض له ما عنده حتى يحظى منه بإعجاب أو كلمة تجدد طاقة نفسه.. وقد وفرت الظروف للأستاذ العقاد وهو صغير أن يلتقي

بالأستاذ الإمام (محمد عبده) الذي زار مدرستهم، فعرض معلم الإنشاء كراسة العقاد على الإمام، فنظر فيها وأعجب ببعض كلامه وناقشه فيه، وكان الموضوع عن (الحرب والسلام) ثم قال وهو ينظر إلى معلمه: ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا فيما بعدُ!.

ودفعته كلمات الإمام للأمام!.

وكم يحتاج شبابنا لكلمات الأئمة والمفكرين والموجهين! التي تغرس فيهم الأمل، وتوجههم نحو القراءة، وتولد فيهم الطاقات الكامنة التي تنفع الأمة وتثري نهضتها!.

يُقر (نجيب محفوظ) دوماً بفضل (توفيق الحكيم) عليه.. وكان يردد: (لولا الحكيم لما كنت أديبًا).

وقد أغرتني تلك المقولة بقراءة كتب (توفيق الحكيم) فتخطيت ما كتبه هو.. لأقرأ ما كتب عنه.

وكان أولها كتاب (توفيق الحكيم يتذكر) لـ(جمال الغيطاني)، الذي ذكر فيه حديث (الحكيم) عن شخصية الرجل الذي شجعه وحبب في نفسه قراءة الأدب والعناية به، وهو مدرس اللغة العربية، شيخ معمم، إلا أنه عصري في تفكيره، لم يتقيد بالأساليب القديمة في التدريس، وأسلوبه فريد جعل يحبب الأدب العربي إلي الطلاب، ويجذبهم إليه ببعض أشعار الغزل الرقيق للعباس بن أحنف، ومهيار الديلمي، وعمر بن أبي ربيعة، ومن شابههم والإقلال من شعر المديح

والحكم والمواعظ، فما أن يلقي ما لديه على الطلاب المراهقين إلا  
ويضجون بالإعجاب ويطالبون بالمزيد، بل ويسألون عن المصادر  
ويدونون ما يسمعون في دفاترهم.. وهم بحكم مرحلتهم العمرية،  
تشتعل عواطفهم ويألفون الحديث عن الحب والهيام والشعور  
الجميل والخيال البديع، كانوا يحبون أن يسمعوا:

ابعثوا أطيافكم لي في الكرى إن أذنتم لعيوني أن تنام  
أو:

غيض من عبراتهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى وليقينا  
ولم يكن على حد تعبير الحكيم يهمهم أن يسمعوا:

علو في الحياة وفي المماتٍ لحق أنت إحدى المعجزات  
أو:

له بفناء البيت سوداء فخمة تلقم أوصال الجذور العراعر  
ومنذ ذلك الحين، وعلى يد هذا المعلم، بدأ اهتمام الحكيم بالأدب  
العربي، الذي أحبه كل الطلاب، وبدا ذلك في موضوعاتهم الإنشائية  
التي كانوا يرصعونها بأبيات الشعر والعبارات الرصينة والسجع،  
وصور البيان المختلفة.

ثم يعتب الحكيم على نفسه؛ لأنه نسي اسم هذا الشيخ، وكان من  
الواجب أن ينقش في ذاكرته!.

أحياناً تدفع غيرك للنجاح دون قصد، وقد يكون هذا الدافع بمثابة

التشجيع، ورسم طريق جديدة لمن يستلهمه تصرف عادي.. لكنه  
يعتمل في نفس متلقيه فيوجه حياته ويترك أبواب مواهبه، وهو ما  
حدث للأديب الكبير (ثروت أباطة) الذي أعطاه والده يوماً مجموعة  
قصية أدبية للأطفال، كان أهداها له مؤلفها الكاتب الأديب (كامل  
كيلاني)..

ولم يكن للوالد أن يتخيل يومًا أن تكون هذه المجموعة هي المنطلق الذي سيكون منه فيما بعد، الأديب الكبير (ثروت أباظة)!

ففي كتابه (لمحات من حياتي) يقول: ( أذكر وأنا في الثامنة من عمري أن الأستاذ (كامل كيلاني) أهدى عشرة كتب من مؤلفاته إلى أبي، وأعطاني أبي هذه الكتب، ودخلت إلى غرفتي وانبطحت أرضًا وبدأت أقرأ الكتب، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا في عالم سحري عجيب..وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتي، وأجمل أوقاتها هي تلك التي بدأت فيها أتعرف على الكتاب وأصاحبه صعبة دامت حتى يومنا هذا، واستطعت بفضل مكتبة (الكيلاني) أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون أن أشعر بأي جهد، فحين بدأت قراءته سيطرت عليّ متعة القراءة، وانتقلت بعد ذلك إلى (تيمور)..ثم في غير ترتيب زمني رحلت أقرأ للعمالقة مبهورًا بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقلي ووجداني وكياني كله، وأنا أقرأ لطفه حسين وهيكل والعقاد والزيات وأحمد أمين والزيات).

وهكذا كانت البداية التي جعلت من الفتى الصغير أديبًا مرموقًا فيما بعد..!، وإذا كانت من قدرة بعض التصرفات العادية الطبيعية أن تصنع مستقبلًا باهرًا..!

فكيف بنا لوتعهدناها وتعمدناها، وأردنا فيها غايتنا إلى غدٍ مشرق لمن نريد؟!

أما الكاتبة والأديبة (نعمات أحمد فؤاد) فإن نبوغها كان وراءه تشجيع كبير من والدها ومعلمها..

أما الوالد فقد أحس بموهبة ابنته مما جعله أن يصر على تعليمها ويقاوم رغبة جدها في منعها من التعليم، فأرسلها إلى القاهرة لتلتحق بمدرسة حلوان الثانوية الداخلية للبنات، وكان شتاؤها دراسة وصيفها قراءة لما أعده والدها لها، هذا الوالد المشجع من كتب سبق له قراءتها وتعليقه على ما فيها من أشياء هامة كي تلحق ابنته صاحبة الرؤية بقراءتها ويناقشها بعد ذلك فيما قرأته..!

أما هذا المعلم المشجع فقد كان نعم المعلم الذي تفتقده أجيالنا اليوم.. هذا الرجل لم يقتصر على مجرد كلمات التشجيع، وإنما تبنائها وذهب لوالدها يرجوه أن يهتم بها.. إنها لا تنساه أبداً وتذكر فضله عليها وتحكي قصته معها فتقول:

(عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي بمدرسة مغاغة بالمنيا، ذهبنا في رحلة لمصنع السكر وبعد عودتنا طلب منا الأستاذ (أحمد عطية) معلم اللغة العربية كتابة موضوع تعبير من عدة جمل عما شاهدناه في الرحلة، فكتبت ٢١ صفحة بهت بها المعلم إلى حد أنه بكى من شدة التأثر

، وذهب لوالدي يطلب منه معاونته في رعاية موهبتي الأدبية، يومها تأكد لوالدي ما شعر به من قبل، وبدأ الاثنان في إمدادي بالكتب

والمجلات التي يمكنها تنمية ملكة الكتابة عندي، وزاد هذا من مكانتي

لدي أستاذي حتي إنني عندما كنت أذهب له لشأن ما أثناء تدريسه في فصل غير فصلنا، كان يطلب من البنات الوقوف لتحيتي من شدة تأثره بموهبتي وأنا عمري لم يتعد العاشرة

وعندما التحقت بالمدرسة الثانوية الداخلية في القاهرة، تكرر موقف المساندة لموهبة الكتابة لدي من قبل مدرس اللغة العربية الأستاذ محمد الحوفي الذي كثيراً ما كان يثني علي موضوعات التعبير التي أكتبها بعبارات مؤثرة في الصفحة الأولى من الكراسة، وكلما تذكرت أساتذتي جالت بخاطري حالة من المقارنة بين حال جيلي والجيل الحالي، فلا أعتقد أن هناك الآن معلماً يتبني موهبة تلميذه ويحاول الدفع بها على نحو ما لقيت) ١٩

وعلى ذات الخطى نبعت موهبته من المدرسة ومعلميها الذين وجهوه صغيراً حيث يذكر الروائي (إبراهيم عبد المجيد) صاحب (لا أحد ينام في الإسكندرية) بداياته مع القراءة، والتي كان السبب فيها تشجيع البيئة المحيطة به وخاصة المدرسة والمعلم الذي بدأ يغرس فيه الميل إلى حب القراءة والاطلاع فيقول: ( في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، حينما كنت في المدرسة الابتدائية وهي بالمناسبة مدرسة حكومية، حيث كانت المدارس الخاصة هي مدارس الجاليات الأجنبية

19 - صحيفة المصري اليوم بتاريخ ١٤ يوليو ٢٠٠٨م

كانت هناك جماعة للشعر، جماعة للموسيقى، جماعة للخطابة، جماعة للجوالة، وغيرها من الأنشطة، وقد ساهمت هذه المجموعات في صقل موهبتي ومواهب الكثيرين غيري .

ومن هنا أستطيع القول: إن المدرسة والسينما وحكايات الغرباء هم ثالث الإغواء في مسيرتي الأدبية: أدين بالفضل لمدرس اللغة العربية، حينما كنا في الصف الرابع الابتدائي وأتذكر اسمه جيدا، هو الأستاذ (حسان)، هذا الأستاذ المحترم كان يدخل الفصل ومعه جريدة الأهرام أو الأخبار ويقرأ لنا المقالات ويعرفنا بكتابها، فهذا مقال لمصطفى أمين، وهذا لطفه حسين، رغم أن أعمارنا لم تتجاوز العاشرة، الأمر الذي شجعنا على شراء الجرائد وكان ثمن الجريدة نصف قرش، فكنت أشتري يوما بمصروفي اليومي، ويوما آخر أشتري سندوتش أو حلويات..

المدرسة أيضًا أتحت لي قراءة الكتب، فقد كانت هناك حصتان أسبوعيا مدتهما ساعتان، يختار فيها كل تلميذ كتابا يقرأه؛ في الساعة الأولى تتم القراءة الحرة، وفي الساعة الثانية يحكي كل تلميذ للآخرين ما استوعبه، ويعلق المدرس على ما قرأه التلاميذ، ومن هنا جاء الحكي، لقد أحببت القصص التاريخية لمحمد فريد أبوحديد، وقصص الأطفال لكامل كيلاني..

ويتابع في حديثه عن دور المدرسة في تنمية خياله وتشجيعها له في أن يكون أديبًا يقول: كانت المدرسة تنظم رحلة يوم الجمعة لسينما من سينمات الدرجة الثانية كان اشتراكها ٣ قروش وهواشتراك زهيد

الثمن بالنسبة لمعظم الأسر، وكان الاشتراك يشمل الانتقالات ووجبة وتذكرة السينما التي يبلغ ثمنها أصلاً ٠١ قروش، فهي رحلة مدعمة من المدرسة، والسينما تعني الخيال، وحينما كبرت قليلاً كنت بعد أن أشاهد الفيلم، أبحث عن الرواية التي تناولها مثل لرواية (الإخوة كرامازوف) أو (الإلياذة والأوديسا) وفي تلك الفترة كنت شبه مقيم في السينما..

ثم ظهر للكاتب طريق آخر استطاع أن يوفر له الكتب ويشجعه على ذلك المسار ويلبي نهمته المتعطشة للقراءة، فقد كان في صغره ذا قدرة شرائية محدودة، وكان يلجأ لمكتبة المدرسة والمكتبات العامة أو مكتبة الجامعة، كما كان عم سيد بائع الصحف في منطقة محطة الرمل بالإسكندرية، وكان يستعير منه الكتب ويقرأها في مقابل مادي بسيط يقل كثيراً عن ثمن الشراء، فقد كانت هناك كتب زهيدة الثمن مثل سلسلة أقرأ التي كانت تباع بقرش واحد، وكانت هناك كتب غالية الثمن، مثل أعمال (دستوفسكي) التي كانت تباع بـ ٥٧ قرشا وهو مبلغ كبير وقتها.. وبعد أن تخرج في الجامعة، بدأ تكوين مكتبته التي بلغت في بعض الأوقات نحو ٦ آلاف كتاب، ثم بدأ في توزيع الكتب على أصدقائه ومعارفه قبل أن يغادر الإسكندرية للقاهرة.. وكانت فلسفته في ذلك أنه قرأها.. وعلى الآخرين أن يستفيدوا منها..!

إن التشجيع على القراءة وتقديم الكلمات المحفزة على المطالعة، تؤتي ثمارها إذا وجدت أذنا مصغية أو أذهاناً ملبية، بل إن بقدرتها

لواستجابات لها العقول وتقبلتها العزائم أن توجد الجيل القاريء الذي نطمح إليه وننشده في أبنائنا.. ما على المرء فقط إلا أن يهتم بالأمر ولا ينفك يبذر كلمات التشجيع هنا وهناك عليها تصادف أرضاً خصبة فتتموحيها وتؤتي أكلها، كما عليه أن يفكر في ابتكار الوسائل المرغوبة كتقديم الجوائز والهدايا ليعرف الصغير أن القراءة طريق يجر عليه السعادة والتفوق والجوائز التي يتوق إليها..!

كما نجد لونا آخر من التشجيع يجب أن نهتم به وندفع أصحابه لمزيد من التآلق فيه، وهم أولئك الذين يقرؤون ببطء وهدوء وروية، فيأتي تحصيلهم ضعيفاً ضئيلاً وارتباطهم بالكتاب ليس على المستوى المطلوب والمرغوب فيه، وهؤلاء ليسوا كغيرهم.. فهم يفهمون معنى الكتاب وقيمة المطالعة، لكن عزائمهم تحتاج لشحن مستمر وتحفيز متواصل، وتشجيع متتابع، حتى يزيدوا من إنتاجهم ويحترفوا القراءة، وينتقلوا من مجرد مطلعين إلى قراء عاشقين واليهين!

وللتشجيع على القراءة المستمرة بشكل يومي قدم موقع Ifiehack استراتيجيتين بزيادة معدل القراءة بفعالية، بحيث يمكن قراءة أكثر من ٣٠ كتاباً خلال السنة الواحدة.

أما الطريقة الأولى فتتمثل في قراءة ٢٠ صفحة لكل يوم، فمع كل صباح وبعد تناول كأس من الماء وكتابة ٣ نعم تحمد الله عليها، يفضل قراءة ٢٠ صفحة من أي كتاب على الأقل لمدة ١٠ أسابيع، وعلى هذا النحو يمكن قراءة نحو ٣٦ كتاباً خلال عام واحد.

وتأتي الطريقة الثانية في الساعات الأولى من اليوم، حيث يقضي أكثر الأشخاص ساعات الصباح الأولى في الاستعداد للذهاب إلى العمل أو الجامعة، لكن ماذا لو تم تخصيص بعض ساعات الصباح لتطوير الذات، لذا قبل الخروج من المنزل ينصح بقراءة صفحات قليلة من أي كتاب لزيادة النشاط والحماسة لبدء يوم جديد.. فليكن التشجيع إذن بدايتنا الأولى لإيجاد جيل قارئ ومثقف ينهض بالحياة وينتقل بالمجتمع من الجهل إلى العلم، ومن الظلام إلى النور، ومن الذهول إلى الوعي والإدراك.

## في صحبة الكنب

اعتزل الكاتب الأرجنتيني (بورخس) أقرانه في طفولته لسوء أخلاقهم ولأنه كان ضعيف البصر، وانطلق في عالم آخر غير عالمهم، فأخذ يغذي نفسه بالقراءة، ولازم الكتب منذ الصغر، وسن لنفسه في القراءة قواعد صارمة لا يحدد عنها، وكان نابهاً نابغاً.. فقد استطاع أن يتقن الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، ومن خلال هذا الإتقان كانت كتبه التي يقرأها لا تقف عند حد لغته الأصلية وإنما كان يشرق ويغرب في القراءة بما أتقنه من لغات..!

لقد نذر (بورخس) حياته في القراءة وصحبة الكتب، وهو ما ساقه إلى إظهار نبوغ مبكر حين ترجم وهو في التاسعة من عمرة كتاب (الأمير السعيد) لأوسكار وايلد من الإنجليزية إلى الإسبانية ونشر بالصحف، وظن الناس أن والده من قام بهذا العمل..!

ينتقد (بورخس) نفسه ككاتب لكنه أبداً لا ينتقدها كقاريء.. فيقول: لا علم لي إن كنت كاتباً جيداً، لكنني قاريء جيد وذلك أهم.

أما زواره فكان يدهشهم منه ذلك البيت الصغير الذي حشده بالكتب وأعجبهم منه كذلك تقديره لها، فهذه معاجم وهذه موسوعات وهناك مختارات أدبية تصحبها بعض عيون الآداب العالمية، مرصوفة كلها على الرفوف، قرأها كلها بلغاتها قبل أن يُصاب بالعمى، وأصبح الرجوع إليها عسيراً إلا بوجود قاريء يجيد لغاتها..!

ولك أن تتعجب فعلى الرغم من عماه والرؤية التي فقدها، فإنه إذا أراد كتاباً من مكتبته ينهض إلى مكانه ويستله وحده من بين الكتب دون أن يخطيء، ويرجع ذلك لحالة الإلف والود التي نشأت بينه وبين كتبه وحينما عين أميناً للمكتبة الوطنية، كان يحمل في مكتبه حقيبتين كبيرتين محشوتين بالكتب ومرتبّة على نظام معين يعرفه ويتمكن من خلاله أن يخرج ما يريد منها ويحدد ما يتبغي من أنواعها، ثم يعود إلى منزله فيقرأ إلى أن يبلغ الليل، وكانت أمه البالغة من العمر تسعين عاماً خير معين له على هوايته ورغبته في المعرفة، فقد كانت تقرأ له كتبه المحببة بصوت عالٍ كما أعادت عليه قراءة بعض الكتب التي سبق له الاطلاع عليها، وحينما أصيب العمى صار ولوعاً بإعادة قراءة ما سبق له قراءته، وكأنه يريد اكتشاف ما سبق له اكتشافه..

إن عشاق الكتاب مولعون باقتناء الكتب الكثيرة والجديدة ولا يفكرون أو يطرّق في خاطرهم إن كانوا سيقرونها أم لا..! وهناك من يشجع على ذلك ويدعوا لاقتناء الكتب حتى ولو كانت تتجاوز القدرة على القراءة ويحثون على الزيارة الدائمة للمكتبات والتعرف فيها على كل جديد واقتناء ما يناسبهم منه..

والذين لديهم حب القراءة ويريدون أن ينتقلوا لمرحلة العشق، لابد لهم أن يجعلوا من القراءة عادة مزمّنة في حياتهم، ولا بد لهم أن يكون الكتاب دوماً في صحبتهم لا يفارقهم في حل أو ترحال.. وفي هذا

الحين ومع هذه العادات، ومع مرور الوقت في ممارستها، يجد المرء أن حالة من الألفة والارتباط والهيام قد نشأت بينه وبين القراءة، وهي ذات الحالة التي وجدناها في (الحكيم) حينما أثر كتابه على ثيابه في رحلته إلى أوروبا، وكيف جرى في نفسه صراع الاختيار الذي لم يدم طويلاً لأن حُب الكتاب صار يجري في دمه: يقول الحكيم: (هبطت هذه الجنة عام ١٩٣٨م أحمل حقيبة واحدة فيها بذلة واحدة وكتاب واحد هو العقد الفريد لابن عبد ربه بكامل أجزائه..! ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسي من الأسفار من كثرة الحقائق، فطار ترددي وأنا أتجهز للسفر: أحمل بذلة أخرى وأترك ابن عبد ربه؟ واستقر عزمي آخر الأمر على إيثار الزميل أعبر به البحار والجبال وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه، وأريه مناظر لم ترها عينه، فللأديب على الأديب حق، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة، فبذت الثياب وأخذت الأديب وانطلقنا..

لم يكن يخطر لي على بال.. أن هذا الأديب يلازمني على هذا النحو في كل مكان، لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل ملازمة عصاي.. فأنا لا أخرج من الفندق في الصباح ولا أعود في المساء ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهى إلا ومعني ابن عبد ربه.. حقيقة أن في جوف هذا الأديب كثير من طلي الحديث وهو خير أنيس وجليس في مثل وحدثي) ٢٠

20- ثورة الشباب - توفيق الحكيم

وإذا كان الحكيم قد نجح في الاختبار وأثر العقد الفريد فإن هناك من كان يهيم في القراءة فلا يدري بما حوله من الدنيا!!

أما ثروت أباطة فكان يقهر الصعاب ويتحدى العوائق من أجل القراءة.. فقد كان لا يكره شيئاً في حياته كما كان يكره الاستيقاظ مبكراً والسبب في ذلك أنه كان يسهر إلى ساعات متأخرة من الليل يقرأ، وكانت القراءة تستهويه وتبتلعه حتى لا يفيق إلى الساعة التي ينام فيها، وظل عمره كله لا ينام إلا بعد أن يقرأ، وقد يقرأ ساعات متصلة أو أقل أو أكثر ولكن لا بد له أن يقرأ على أية حال، ومن عجب أنه كان في رأس البر ولم تكن الكهرباء متاحة له، فكان يضع على صدره بطارية جيب ويقرأ عليها حتى يخفت نورها وتصبح الكلمات غير مقروءة فينام مرغماً..

وفي غير ترتيب زمني راح يقرأ للعمالقة مبهوراً بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقله ووجدانه وكيانه كله، فأخذ يقرأ لطفه حسين والعقاد وهيكل والزيات وأحمد أمين والمازني الذي جعله بخفة ظله يقيقه وهو يقرأ وحده في غرفة مغلقة.. وتعلوقه قهقهته ويسمعها الذين بخارج الغرفة.. والله وحده يعلم ماذا كانوا يظنون به..

وهو تفاعل واندماج بالقراءة تفصل وعي صاحبها عن عامله ومحيطه فلا يدري بمن حوله أو يعيرهم أي اهتمام، ولعله يذكرنا باسماعيل الجوهري، حينما استدعاه خاله الفيلسوف الفارابي ذات يوم من

حجرته فلم يرد عليه لأنه كان مستغرقاً في القراءة رغم صغر سنه، حتى أيقظته أمه من سباحته العميقة في بحر المعرفة العميق!.

وصدق (الجاحظ) الذي كان أكثر الناس أنسا بالكتب وحباً في المطالعة وهو فخر أمتنا بما ترك من تراث فريد يتمتع بالظرف والطرافة والفائدة وقد حداه الشوق أن يصف الكتاب وماذا يعني له فقال: (إِنْ وَعَظَ أَسْمَعُ، وَإِنْ أَلَّهَى أَمْتَعُ، وَإِنْ أَبْكَى أَدْمَعُ، وَإِنْ ضَرَبَ أَوْجَعَ، يَفِيدُكَ وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْكَ، وَيَزِيدُكَ وَلَا يَسْتَزِيدُ مِنْكَ، إِنْ جَدَّ فَعَبْرَةٌ، وَإِنْ مَزَحَ فَنَزَهَةٌ، قَبْرُ الْأَسْرَارِ، وَمَخْزَنُ الْوَدَائِعِ، قَيْدُ الْعُلُومِ، وَيَنْبُوعُ الْحِكْمِ، وَمَعْدِنُ الْكِرَمِ، وَمُؤَنَسٌ لَا يَسْأَمُ، يَفِيدُكَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ، وَيَخْبِرُكَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَخْبَارِ الْمَتَأَخَّرِينَ، إِنْ أَطَلْتَ النَّظَرَ إِلَيْهِ أَطَالَ إِمْتَاعُكَ، وَشَحَذَ طَبَاعُكَ، وَفَحَّمَ أَلْفَاظُكَ، إِنْ أَلَّفْتَهُ خَلَّدَ عَلَى الْأَيَّامِ ذِكْرُكَ، وَإِنْ دَرَسْتَهُ رَفَعَ فِي الْخَلْقِ قَدْرُكَ، فَأَكْرِمْ بِهِ مَنْ صَاحَبَ، وَأَعَزِّزْ بِهِ مَنْ مَوَافَقَ!)

ويقول: (الكتاب نعم الأنيس في ساعة الوحدة ونعم القرين ببلاد الغربة، وهو وعاء مليء علمًا وليس هناك قرين أحسن من الكتاب، ولا شجرة أطول عمرًا ولا أطيّب ثمرة ولا أقرب مجتنى من كتاب مفيد، والكتاب هو الجليس الذي لا يمدحك، والصديق الذي لا يذمك والرفيق الذي لا يملك ولا يخدعك، إذا نظرت فيه أمتعك وشحذ ذهنك، وبسط لسانك، وجود بيانك، وغذى روحك، ونفى معلوماتك، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة.

ولولم يكن من فضله عليك إلا حفظه لأوقاتك فيما ينفعك وصونها  
عما يضرك من فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة ومجالسة  
من لا خير فيهم، لكان في ذلك على صاحبه أسبغ نعمة وأعظم منة،  
فالكتاب صديق يقطع أوقات فراغك في مؤانسة تنجيك من الوحدة  
المملة كما ينقل إليك أخبار البلاد النائية فتعرف أنباءها كما تعرف  
أنباء بلدتك)

أما (عائض القرني) فيرسم لنا ما يمثل الكتاب للقاريء، وكيف هو في  
حياة المطلع، في سفره الممتع الذي اعترف فيه بأنه عاشق فقال: (ما  
نظر رجل في كتاب إلا خرج بفائدة فالغنيمة الرابعة كطف الحكمة  
من الصحف.. إنك يوم تغلوبالكتاب تطوى لك الزمان وتطل عليك  
الدهور وتناجيك العبر وتشجيك العظات وتصلقك التجارب وتدهشك  
العجائب، احلب درر العلم من ثدي الأسفار فإن في الدفاتر مملكة  
الأفكار، وصاحب الكتب مع كتبه أغنى من قارون الكنوز، وأعز من  
نعمان الكنائب وأحسن حالا من البرامكة ومصاحب القرطاس أطيب  
عيشا من نديم الكاس، إن مصاحبة الكتب تصونك من تيه الملوك  
وتحميك من صلف الجبابرة وتحوطك من سطوة الظلمة وتحفظك  
من لوم الحاسد وتشفي الشامت ورؤية الثقيل ومنة البخيل وكدر  
الغبي ومؤونة المغتاب وطييش السفيه لذلك أدعو إلى الإكثار من  
فلي الكتب ودوام تفتيش الصحف والمصابرة في مسامر المصنفات  
فما قيمة الزمن بلا مطالعة؟ وما فائدة العمر بلا قراءة؟ وكيف  
يحلوالعيش بلا كتاب؟ ذهبت الدول ونسي الملوك وتعطلت الأسواق

ودرست المنازل وتهدمت القصور وبادت الحدائق وفنيت الأموال وهلك الرجال، ولكن خلدت الحكمة في الكتب وبقيت المعرفة في الصحف، وقر العلم في المؤلفات..

وبعد تجربة طويلة مع الكتاب، ورحلة عسيرة مع الأوراق، عدت بقناعة أنه لا أوفى ولا أصفى ولا أحفى من الكتاب، الصديق الذي لا يَمَلُّ، أو يعتب، أو يهجر، أو يجفواً أو يصد، أو يخون، أما الكتاب فلا ملل ولا عتب ولا هجر، ولا جفاء، ولا صدود ولا خيانة فلما تيقنت ذلك صحبت الكتاب، فهو على ذراعي إذا نمت، وعلى صدري إذا اضطجعت وفي حضني إذا جلست، وتحت إبطي إذا مشيت (٢١)

وقد حاز السلف العظيم قصب السبق في صحبة الكتب والأنس بها ففي الحيوان: (كان عبدالله ابن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مقبرةً من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسئل عن ذلك، وعن نزوله المقبرة؟ فقال: لم أرَ أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب، ولا أسلم من الوحدة، ف قيل له: قد جاء في الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل..)

وقال الحافظ أبي طاهر بن أبي الصقر: (هذه كتبني أحب إلي من وزنها ذهباً)..

وقال الإصمعي لرجل: ألا أدلك على بستان تكون منه في أكمل روضة، ويكف عنك إذا سئمت؟ قال: نعم قال: عليك بالكتاب!.

وذكر ابن رجب في (الذيل) في ترجمة عبدالصمد البغدادي العلامة المتفئن المتوفي (٦٧٦) أنه صنَّف حُطْبًا انفراديًّا بِفَنِّها وأُسلوبها وما فيها من الصَّنعة والفصاحة، وجمع منها شيئًا كثيرًا ذهبَ في واقعة بغداد مع كتبٍ له أُخرى بخطِّه وأصوله، حتى كان يقول: (في قلبي حَسْرَتان: ولدي وكُتُبِي) (وكانا قد فُقِدا جميعًا في واقعة بغداد) ٢٢ ولعل ما يعبر عن أسفه ويجسد معنى حسرته قول أحدهم:   
أجلُّ مصائب الرجل العليم مصائبه بأسفار العلوم  
إذا فُقد الكتاب فذاك خطب عظيم قد يجلب عن العليم  
وكم قد مات من أسف عليها أناس في الحديث وفي القديم  
وجاء في ترجمة الفيروزآبادي أنه اقتنى كتبًا نفيسة حتى سمعه بعضهم يقول: (اشتريت بخمسين ألف مئقال ذهبًا كتبًا وكان لا يسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال، ويخرج أكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل)

كان الإمام السيوطي قد نشأ في بيت علم وتقوى، (وتفتحت عيناه على والده الذي يواظب على قراءة القرآن وعلى كتب العلم التي يراها أمامه في كل ركن من أركان البيت وهو صغير، والإنسان ابن

22 - ذيل طبقات الحنابلة (٢ / ٢٩٢).

بيئته قاعدة عامة قد تشذ أحيانا ولكنها مع السيوطي لم تشذ، وكانت ولادته بين الكتب.. ذلك أن أباه كما يقول العيدروس في (النور السافر من أخبار القرن العاشر) احتاج إلى مطالعة كتاب فأمر الأم أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعت فأطلق عليه: ابن الكتب(٢٣

وقال فيه البستاني (هو صاحب التصانيف الكثيرة في كل فن، ولا غرو فإن ما كان عليه من الفكر الثاقب والحدق الشديد والاجتهاد في المطالعة والاقتصار من الدنيا على القلم والقرطاس، مع خلو الظروف من بوائقها، ومساعدة الاحوال له في أعماله، وإعطاء أوقاته حقوقها من العمل، وقريحته شوطها في ميدان البلاغة، وإطلاق غارة أفكاره في ميدان الأدب، كل هذا قد أدى بهذا العالم المدقق إلى إنشاء تصانيف كثيرة) ٢٤

(وكان رحمه الله لا يكتب في موضوعًا إلا بعد الرجوع إلى ما كتب حوله وكان دائب القراءة لا يفتر كثير الاطلاع، وحينما كتب كتابه الشهير الاتقان في علوم القرآن اطلع على كتب لا تحصى تدور حول كتب التفسير وعلوم القرآن وجوامع الحديث والمسانيد وكتب الاحكام والإعجاز وفنون البلاغة وغير ذلك، وقد ذكر كل الكتب التي رجع إليها في صدر كتابه وفي أثناء مقدمته بما يقرب من مائتي كتاب

---

23- الحافظ السيوطي - عبد الحفيظ فرغلي القرني

24 - دائرة معارف البستاني ج ١٠ ص ٣٥٨

وكلها من الكتب الجوامع التي تفيض بالعلم وتزخر بالمعرفة) ٢٥

ونقل الشوكاني عن المؤيدي اليماني قوله في البدر الطالع: (كان من عجائب الدهر وغرائبه في مجموع عمره تسع وعشرون سنة، وقد فاز من كل فن بنصيب وافر، وصنف في هذا العمر القصير التصانيف المفيدة، والفوائد الفريدة العديدة وذكر عددًا منها ثم قال: وإذا سافر أول ما تضرب له خيمة الكتب، وإذا ضربت دخل إليها، ونشر الكتب والخدم يصلحون الخيم الأخرى، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم ويحرر ويقرر مع سلامة ذوقه..)

وقيل:

نعم المؤانس والجليس كتاب تخلوبه إن خانك الأصحاب لا مفشيًا سرًا ولا متكدرًا وتفاد منه حكمة وصواب وقال عمرو بن العلاء: ما دخلت قط على رجل ولا مررت بداره، فرأيته في بابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه أنه أفضل منه عقلاً.

وقيل لرجل: ما يؤنسك؟ فضرب على كتبه وقال: هذه.. قيل: فمن الناس، قال: الذين فيها!

وقيل لبعضهم: أما تستوحش؟ قال: يستوحش من معه الأنس كله؟  
25 - الحافظ جلال الدين السيوطي - عبد الحفيظ فرغلي - سلسلة أعلام العرب ص ١١١

قيل وما الأنس؟ قال: الكتب.!

وكان منهم من يعز عليه فراق الكتاب، حكى التُّبْرِيْزِي أن أبا الحسن الفاي الأديب، كانت له نسخة بكتاب (الجمهرة) لابن دُرَيْد في غاية الجَوْدَة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها، واشتراها الشريف المرتضى أبوالقاسم -المذكور- بستين ديناراً، وتصفَّحها فوجدَ بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفاي، وهي:

أُنِسْتُ بِهَا عِشْرِينَ حَوْلًا وَبِعْتُهَا لِقِطَالٍ وَجُدِي بَعْدَهَا وَحِنِي  
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي سَأَبِيعُهَا وَلَوْ خَلَّدْتَنِي فِي السُّجُونِ دِيُونِي  
وَلَكِنْ لَضَعْفٍ وَافْتِقَارٍ وَصِبْيَةٍ صِغَارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُئُونِي  
فَقُلْتُ وَمَ أَمَلِكِ سَوَابِقِ عَبْرَةٍ مَقَالَةٍ مَكْوِيٍّ الْفُوَادِ حَزِينِ  
وَقَدْ تُخْرَجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ كَرَائِمٍ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضَنِينِ

وجاء في السير للذهبي في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس أنه ( كان ذا غرم بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة حقها وباطلها، بحيث أنها قاربت نحوًا من مئتي ألف سفر.. وكان باذلاً للذهب في استجلاب الكتب ويعطي من يتجر فيها ما يشاء، حتى ضاقت بها خزائنه لا لذة له في غير ذلك وقل أن تجد كتابا إلا وله فيه نظر وفائدة )

وساق (ابن عبد البر) في (جامع بيان العلم وفضله) أن (أحمد بن محمد بن شجاع) بعثَ غلامًا من غلمانِه إلى أبي عبد الله بن الأعرابي - صاحب الغريب- يسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي منهم أتيتُ، قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرّة وفي هذا مرة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبوأيوب: يا أبا عبد الله! سبحان الله العظيم، تخلفت عنّا وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقلت: أنا مع قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي معهم أتيتُ، فقال ابن الأعرابي:

لنا جُلساءُ ما مَمَّلُ حديثهم      الباءُ مأمونون عبيًا ومَشهدا  
يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى      وعقلًا وتأديبًا ورأيًا مُسَدِّدا  
بِلا فتنةٍ تُخشى ولا سوءِ عِشْرَةٍ      ولا يُتَّقَى منهم لسانًا ولا يدا  
فإن قلتَ: أمواتٌ فلا أنتَ كاذِبٌ      وإن قلتَ: أحياءُ فلستَ مُفَنِّدا  
وأخيرا قال (جلبرت وايت): (ليس هناك كتب أوأكوام من الأوراق  
الميتة على الأرفف.. بل هي عقول حية)

ولعلنا ندرك بعد المعنى حينما نعيش مع خالد في تأمله لهذه  
الصحة حيث يقول: (وهنا نتأمل ماذا لواستطاع العلم أن يرد إلى

الحياة بعض الناس لبعض الوقت، وأذيع مثلا أن سقراط وأفلاطون والغزالي وشكسبير والمعري وتوم بين وروسووفولتير وابن رشد والفارابي وهيكل وماركس وجيته وأرسطوسيكونون يوم كذا في مكان ما من العالم.. وخلال الفترة التي سيقضونها أحياء سيستقبلون زائريهم ويتحدثون إليهم ويجيبون عن أسئلتهم.. أفلا تتركب إليهم ثبح البحار، ومخاطر الجووتنفق من ثروتك بسخاء، كي تبلغ مكانهم وتجلس إليهم!؟

ألا فاعلم أن العلم قد دهم إلى الحياة فعلا، وأنهم وجميع إخوانهم المفكرين جالسون هناك ينتظرونك في كل وقت.. وفي أقرب مكان وبأيسر نفقة..!! أجل في أي مكتبة من المكتبات المبتوثة تلتقي بهم في مؤلفاتهم.. لقد اخترع العلم الطباعة، وصنعت الطباعة الكتاب، وخلدت بين دفتيه أعظم تراث للبشرية كلها؛ وهو الفكر..

واعلم أيضا أنك حينما تجلس مع كتب أفلاطون أو شكسبير أو ابن خلدون، فأنت في الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء في أصفى ساعات حياتهم، وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم أحياء..! ٢٦

## حتى لا يضيع العمر !

يا لها من مأساة محزنة حينما تجد المقاهي تغص بالشباب والشيخوخة، فإذا اقتربت من أحدهم وسألته ماذا تصنع هنا؟ يقول لك: أقتل الوقت.. وهكذا أصبح أؤمن شيء في الحياة عبثاً على الإنسان يريد أن يقتله ويتخلص منه، وهولاً يعرف كيف يستثمره ويستفيد منه، أو يرفع من قدراته عبر اكتساب المعارف والثقافات، أو المشاركة في مشروع أو خطة تهدف إلى نمو المجتمع وازدهاره..!

وتأتي القراءة من أعظم السبل التي تقضي فيها وقتك، وتذهب فيها ساعات عمرك.. والتي بالتأكيد لا تذهب هباءً، بعدما أحيت فيك قيمة العقل وأصقلته بالمعرفة والحكمة والخبرة والدراية..

أما الذي عاش عمره دون أن يطالع كتاباً، فهو مسكين لا بد أن نتحسر عليه قبل أن نسخط منه، لأنه جهل طريق المعرفة ولم يجد من يرشده لطريق السعادة.. أما الفطنون لقيمة أعمارهم، فقد سارعوا ليملأوا كل لحظة فيها بالفائدة، وكان منهم محبو القراءة والمدركون لقيمة الكتاب، فإنهم لم يشغلوا أوقاتهم بالقراءة فحسب، بل راحوا يبحثون في أعمارهم عن هذه الأوقات الضائعة التي تضيع من حياة الناس دون أن تستلقت انتباههم..!

نعم.. ففي حياة كل منا أوقات كثيرة ضائعة تفلت من وقته ومن حياته من حيث لا يدري، خاصة إن كان من هؤلاء الحريصين على أوقاتهم، ولوأنه جلس في نهاية كل أسبوع ليحصي هذه الأوقات الضائعة على مدار هذه الأيام السبعة، لوجدها كثيرة كبيرة، فإذا اغتتمها في شيء نافع لربما حقق إنجازا يذكر.

وتأتي هذه الأوقات كأوقات الانتظار في عيادات الأطباء أو الوقوف في الطوابير لانتظار دورنا فيما نريده من أمور المعاش، أو الانتظار في الدوائر الحكومية لإنجاز الإجراءات اللازمة لإنجاز مصالحنا، أو الانتظار في السيارة وقت الزحام، أو في أوقات السفر في المطارات والطائرة والقطار..!

ولعل القراءة والثقافة هي أروع وأليق ما يستطيع المرء إنجازه في مثل هذه الأوقات، وعليه دوماً أن لا يسير إلا وبصحبه كتابه الذي يقرأ فيه، ليكون سلوته في مثل هذه الظروف الفاترة والمواقف المملة، وحتى لا يسبب له الكتاب أي حرج في حمله والسير به، فإنه ينصح بحمل الكتب ذات المقطع الصغير والحجم القليل، التي لا تُسبب أي شعور بالنعاء في حملها، أو العبء في السير بها.. كروايات وكتب الجيب أو ما يشبهها من الطبقات الصغيرة التي أعدت خصيصاً لهذا الغرض، والقراءة في هذه المواقف قادرة أن تزيل أي نوع من الشعور بالقلق والتوتر، وتساعد القارئ قضاء وقته بإفادة عظيمة وتجنب أي إحساس بالملل والفتور..!

ويذكر أن (تشارلز داروين) صاحب كتاب (أصل الأنواع) كان يقسم الكتاب إلى نصفين، ويحمل كل نصف في جيب من جيوبه، وكان يقول: إنه لا يستطيع حمل الكتاب بيده، وكذلك من الصعب وضع الكتاب كله في جيب واحد).

ويقول (كونفوشيوس): (مهما بلغت درجة مشغولياتك، فلا بد أن تجد وقتاً للقراءة، وإن لم تفعل فقد أسلمت نفسك للجهل بمحض إرادتك) ولعل أروع المواقف التي عرفت في هذا الإطار هو ما جاء عن الإمام (ابن القيم الجوزية) أنه ألف كتابه العظيم (زاد المعاد في هدي خير العباد) وهو ذاهب للحج على راحلته، وكذلك موقف الإمام الشهيد (حسن البنا) رحمه الله، فحينما صدر كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور (طه حسين) غفر الله له وأحدث ضجة هائلة بين المثقفين، الذين تحولوا بين قاذح ومادح ناقد ومؤيد وأعلن حينها أن الأستاذ (حسن البنا) سيناقش الكتاب ويعطي فيه رأيه في حديث الثلاثاء الذي كانت تحتشد فيه جماهير غفيرة ومن كل الشرائح والطبقات لتستمع إلى (حسن البنا) وهنا عزم الدكتور (طه حسين) أن يحضر هذا اللقاء في مكان خفي، حتى يسمع رأي (حسن البنا) ونقده للكتاب.. ولم يجد البنا رحمه الله متسعاً من الوقت ليقرأ فيه الكتاب إلا ذهابه وإيابه في التزام، حيث قرأ الكتاب واستوعبه وخط النقاط التي منها سينطلق حديثه، لقد اغتنم وقته ولم يضيع منه هفوة.. ولم تكن قراءة الكتاب حجة له ليأخذ إجازة أو ينعزل عن الناس بعلّة الوقوف على مكامن النقد فيه، خاصة وأن الجميع

ينتظر رأيه، وحينما حان وقت الحديث.. عرض الكتاب بدقة باهرة، وكان يستشهد منه بنقاط يحفظها وكأنه قد عكف على قراءته ليل نهار، فأعجب الدكتور طه برأيه وتحليله الذي خلا من كل مسحات الهجوم والتوبيخ والتعريض، وطلب بعدها أن يلتقي بحسن البناء وكان قوله الشهير: (لو كان كل أعدائي مثل حسن البناء، لكنت أول من مددت لهم يدي بالعون.!).

ولك أن تتخيل أن ينصرف ذهن أحدهم إلى نموذج من هذه الأوقات الضائعة من حياتنا، والتي لا يفكر فيها أحد، وهو وقت قضاء الحاجة، فقد حاول رجل أن يستفيد من هذا الوقت المهمل والضائع في حياة الكثيرين، فأخذ معه كتاباً صغيراً وصمم على قراءته في وقت قضاء الحاجة، فكتشف أن هذا الوقت الذي يخجل بعض الناس من التحدث عنه، يمكن أن يُغتنم في المطالعة وأنه لو اغتنم بشكل جيد، فسوف يوفر ما يقارب من المائة والخمسين دقيقة شهرياً !

ولعل هذا الموقف شبيه بما قاله ابن القيم في روضة المحبين: ( وحدثني أخو شيخنا ( يقصد أخوالإمام بن تيمية ) وهو عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه عبد الحليم قال: كان الجد أبو البركات إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع).. وذلك لكي لا يضيع الوقت في غير القراءة ومطالعة العلم.. ويوجد في أمريكا ما يسمى بهيئة قراء الحمام وهي مؤسسة تجارية للطباعة والنشر ظهرت في عام ١٩٨٨م، وتقوم فقط بطباعة كتب ثقافية خفيفة الطابع مخصصة للقراءة أثناء التواجد في الحمام لقضاء الحاجة.!

وبعضهم ومع تطور الزمن لجأ إلى فكرة جيدة، وربما يستحسنها الكثيرون ممن يحبون القراءة أو يصعب عليهم حمل الكتاب وهي وسيلة الكتاب المسموع، وهو عبارة عن تسجيل صوتي لمجموعة من الكتب المتنوعة يمكن للشخص أن يسمعها بأذنه وهو في أي مكان سواء كان مسافراً أو منتظراً أو يمارس الرياضة، ويقال بإنها بدأت في الغرب وحققت نجاحاً ملموساً على مستوى من يرغبون في اغتنام أوقاتهم والاستفادة منها..!

كان أحد أخوالي وهو خريج دار العلوم لديه مكتبة كبيرة، وقد بلغ الستين من عمره وأحيل إلى المعاش، وكان مولعاً بشراء الكتب حتى بعد خروجه للمعاش، وهو ما دعاني لأسأله: لماذا تشتري الكتب وتحشدها في مكتبتك، وكأنني ألمح بسؤالني إلى سنه الكبير وأن ما سلف له لن يكون بحجم ما بقي، فإذا به يعاجلني قائلاً: إن زمن القراءة لم يأت بعد.. بل هو قادم في الطريق.. وهو ما أثار عجبني واندعاشي..!

وتذكرته وأنا أقرأ للأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) في كتابه (أرجوك أعطني عمرك) قوله (إن قوة الخلق والابتكار لدى الإنسان تبدأ غالباً بعد الأربعين لأن عقله لا يهرم ولا يشيخ، وإما يزداد توهجاً إذا حافظ على اهتمامه بالحياة من حوله وحرص دائماً على أن يجعل لنفسه في كل مرحلة من مراحل العمر هدفاً صغيراً يسعى لتحقيقه، ثم ينتقل من بعده إلى هدف آخر قريب فالشيخوخة الحقيقية هي الإحساس

المدمر بأن العمر قد انقضى ومات الأمل وضاعت الأهداف والغايات والاهتمامات وليست في أي شيء آخر.. )

ثم يسرد الأستاذ مطاوع قصة رجل كان موظفا حكوميا كبيرا أحيل للمعاش منذ ٨٢ عاما إلى كتابة هذا الكلام حيث كان الرجل يقضي أوقاته في القراءة والبحث والكتابة بالرغم من أنه لم يكن في يوم من الأيام كاتبًا ولا باحثًا، لكنه أراد أن يحافظ على توهج الشمس الداخلية لديه فخلق لنفسه هذا الاهتمام الجديد وراح يقرأ ويبحث ويكتب، حتى ولوم يقرأ أحد ما كتبه!

وقد فاجأ الأستاذ عبد الوهاب يومًا بدراسة من ٣٠٠٠ صفحة كتبها بخط يده وبخط جميل مرتب عن مشكلات الأسرة المصرية من خلال رسائل بريد الجمعة في فترة زمنية محددة وأهداها له فأعجب الأستاذ بها وبهمة الرجل وحيويته وحسن اختياره لما شغل به نفسه ووقت فراغه، طبعها له في الأهرام ٥٠٠ نسخة وأهداها لمكتبات كليات الإعلام والدور الصحفية والمهتمين بهذه النوعية من الدراسات.. ثم غاب عنه فترة ورجع إليه بدراسة أخرى من ٣٠٠٠ صفحة عن بريد الأهرام وتيارات الرأي العام التي يعكسها خلال فترة محددة، ثم بدراسة ثالثة ورابعة حتى بلغ مجموع صفحات دراساته هذه ١٤٠٠ صفحة كتبها بخط يده وظل الرجل بعدها يقرأ ويبحث ويكتب!.

إن العمر لم يتوقف به حينما توقفت وظيفته، وإنما استطاع أن يوجد لنفسه حياة أخرى، وأضاف لنفسه عمراً آخر، وكان ميدان القراءة والكتابة هو الشيء الوحيد الذي بقدرته أن يمنحه هذا الشعور.

(لكي يتمكن أي شخص من أن يجعل القراءة جزءاً من حياته اليومية، عليه أن ينمي هذه الملكة حتى تصبح عنده شيئاً اعتيادياً ونظاماً دائماً في حياته كالأكل والشرب..! تقول إحدى الإحصائيات:

إن ثمانين بالمائة ممن لا يقرؤون كتاباً في الشهر يتذرعون بأنه ليس لديهم وقت لذلك، وهذا أمر غريب لأنه مثلما يجد المرء وقتاً للطعام والشراب، ومثلما يجد وقتاً للتسوق ومشاهدة التلفاز وللجلوس مع الأصدقاء يمكنه لو أراد أن يجد وقتاً للقراءة، وأما أولئك الذين يقضون ساعات طويلاً في النوم فهؤلاء لا يقبل منهم بأن يعتذروا بقلة الوقت المتاح للقراءة!) ٢٧

يقول (ابن القيم) رحمه الله: (وقت الإنسان هو عمره الحقيقي ومادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم وهو يمر مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عاش عيشة البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة فموت هذا خير من حياته)

ويقول ابن الجوزي: (ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل).

وكان عليه رحمة الله، من أحرص الناس على أوقاتهم وإفنائها في العلم والقراءة والتصنيف، وكان يشتكي من زواره لأنهم يكثرون زيارته فيفسدون عليه وقته ويضيعونه، فماذا يفعل ليستفيد من هذا الوقت؟! قال: (أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة، ولكن لا بد منها لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب فأرجأتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي)

ومثله كان (مصطفى صادق الرافعي) رحمه الله فمن يأتي لزيارته، كان يجلس معه ويأتي بكتاب ويقرأ مع زائره لكي يغتنم وقته فلا يضيع في القيل والقال وما لا نفع فيه!

أما الإمام (سليم بن أيوب الداري) وهو من كبار أئمة الشافعية، فكان يحاسب على الأنفاس أن تضيع دون فائدة فقد قال التنوخي السوري: حدثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتاً يمضي عليه في غير فائدة، إما ينسخ وإما يدرس وإما يقرأ، فينسخ شيئاً كثيراً، ولقد حدثني عنه شيخنا الإسفراييني وهو أحد تلامذته بقوله:

أنه نزل يوماً على داره ورجع فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي.!

وكان لموظف الشرق (جمال الدين الأفغاني) مهمة كبيرة وفي سن مبكرة حيث كتب عنه تلميذه المسيحي (أديب إسحاق) فقال:

(إنه تبحر في العقول والمنقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخله في ذلك بدءاً بدء شيء من التصوف، فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والمريدين، كل ذلك وهو دون العشرين)

كما أن التمرس في القراءة يُعطي فائدة هامة وهي الحفاظ على الوقت من الهدر والضياع، فلو أنك قرأت يوماً لكاتب من الكتاب، ورأيت أن كتابته وصياغته وأسلوبه وتناوله لا يروقك، فإنك لن تقرأ له مرة أخرى، وهذا من أهم عوامل حفظ الوقت، وربما نجد ذلك في بعض دور النشر التي تنشر كتباً لا تستهويك، لأنها تنتهج انتهاجاً فكرياً يخالف توجهك ولا ينسجم معك، فإنك بالبديهة ستعرض عما تنتجه من هذه الكتب، فلا يضيع وقتك فيما لا تحبه..

وقد ألمح أحد الكتاب إلى شيء هام جداً يحفظ على القارئ وقتَه وجهده، فقد يخطيء كثير من القراء حينما يقعون في فخ إحساسهم أو اعتقادهم بوجوب إكمال أي كتاب يشعرون في قراءته، فالحقيقة أن هذا فخ خطير يصرف القارئ عن استكمال سياحته في عالم القراءة البديع..

ويقول أحد الأشخاص: إنه شرع في قراءة كتاب منذ سنوات عدة، ولا يزال لم ينتهي منه لأنه كتاب عسير وثقيل، ثم يردف قائلاً: بأنه وبالرغم من ذلك مصمم على إنهائه، طال الزمان به أوقصر، والحقيقة أنه مخطيء، وربما يظن أنه يحسن صنعاً!

وذلك لأن هذا الوقت الذي أهدره في مصارعة كتاب لا يحبه، كان بإمكانه أن يصرفه لقراءة كتب عديدة، أقرب لنفسه وفهمه واستيعابه، لأن قراءة الكتاب ليست هي الغاية، وإنما القراءة والفائدة منها هي الغاية الكبرى، فالقراءة رحلة وسياحة في عالم الفكر لأجل الاستمتاع والحصول على الفائدة، فإن وجد الإنسان في رحلته أنه لا فائدة ولا متعة، فلماذا يواصل الرحلة إذن؟! عليه أن يقطعها ويتجه إلى رحلة أخرى فيها ما يريد..)ومن هنا جاء النصح بالسؤال عن الكتب الجيدة، والبحث عنها وقراءتها، حتى يتحقق المقصود ويحافظ المرء على وقته الثمين..

يقول (رينيه ديسكارتيس): (إن قراءة الكتب الجيدة هي بمثابة التحاور مع أعظم العقول التي عاشت عبر العصور).

## أطفالنا والقراءة

تقول (جاكلين كيندي): (ليس من طريقة تتسع بها آفاق وعوالم طفلك مثل تحبيبهم للقراءة )

حينما يطبع حب القراءة في نفوس الصغار، فلا شك أنهم سيكونون قراءً في المستقبل، وسيمثل لهم الكتاب ضرورة هامة في حياتهم لا يفارقونه أو يستغنون عنه، وهذا تحديداً ما نريده إن أردنا السير على درب الرقي والنهوض.

كثير من النابغين ما ألفوا الثقافة، وشقوا طريقهم الذي ارتسم لهم، إلا حينما وجدوا من يشجعهم ويدفعهم إلى القراءة وصحبة الكتاب والتعرف عليه والولوج إلى داخله، حتى تصير القراءة موهبة تجري في عروقه ويشب عليها طبعه.. وكثير منهم لم يجدوا تشجيعاً أو حرصاً.. ولكن قدر لهم أن يروا من آبائهم أو إخوانهم من يقرأ أمامهم فشرعوا في محاكاتهم وتقليدهم وصاروا يهتمون بالكتاب حتى تولدت موهبة القراءة في وجدانهم.

أذكر وأنا صغير وفي بداية علاقتي بالكتاب أن من أكبر العوامل التي حفزتني على القراءة، صورة أخي الكبير وهويقرأ وهو ما ولد في نفسي اندفاعاً لمحاكاته وتقليده..

وقد أثبت تاريخ القراءة أن القدوة فيها عنصر هام وخطير في تدريب الناشئة والأجيال على القراءة، وإذا ما أردنا درسًا عمليًا واقعيًا في ذلك، فليس أرفع فيه مما حدث للطبيب الدكتور (نجيب محفوظ) وهو غير الأديب الكبير (نجيب محفوظ)، وتشابه الاسم بينهما ليس مصادفة، فالدكتور (نجيب محفوظ) هو الذي أشرف على ولادة أم الأديب الكبير التي كانت متعسرة، فما كان من تقدير الأب لهذا الجهد، إلا أن سمي وليده باسمه.!

لم يكن الاسم وحده الذي يربط بين الشخصين، فقد كان الدكتور (نجيب محفوظ) أديبًا جديرًا بقدر ما كان طبيبًا عبقريًا، تعرّف ذلك من كتابه (حياة طبيب) الذي عرض فيه سيرته الذاتية ومشوار حياته، وقدم له عميد الأدب العربي (طه حسين)، وأشاد فيه بأسلوبه، وذكر أنه من فرط حلاوته قرأه مرتين، ويعزم على قراءته للمرة الثالثة.

ولك أن تعلم أن هذه الملكات الثقافية، كانت نتاجًا للظروف التي أحاطت به وشجعت، فوالده كانت له مكتبة كبيرة، حوت كتبًا كثيرة في ميادين شتى، وأبرزها كتب الدين التي طالعها نجيب في أوقات فراغه، وتعلم منها آداب المناظرة والإيمان بالحرية لكل ذي فكر، كما كان أبوه مشتركًا في شتى الصحف اليومية والمجلات العلمية، وكانت تعقد بمنزلهم جلسات في قاعة الاستقبال، يدور فيها الحوار بين أزواج أخواته، ويتناولون مختلف الموضوعات، فكان أحدهم يتلوا الصحيفة بصوت عال وتدور بعدها المناقشات.

ويحكي الدكتور (نجيب) في كتابه: ( ما أذكره لأبي أنه كان يريدني أن أقرأ له قبيل نومه إصاحًا من الكتاب المقدس، ويشرح لي ما يخفى علي أثناء القراءة من دقائق المعاني، وكانت أُمي تستظهر كثيرًا من الآيات، وتفسر لي ما يغمض من معانيها، وفيما بين الثامنة والثانية عشرة من عمري، اشتد شغفي بالقراءة، فلم أكن أدع من مكتبة أبي كتابًا إلا طالعته، كما أني كنت أحرص على قراءة ما يأتينا من نشرات تجارية تبين أسعار القطن وحركة الأوراق المالية، فإذا استعصى علي فهم شيء منها استعنت بأبي على حل ما يعترضني من غموض).

كل هذه العوامل وما إليها.. قد وجهته نحوالثقافة والقراءة وحب العلم والمعرفة، فهي تشجيع ودافع صنع منه عقلية ماهرة متفوقة.

وهناك من لم يكن لأبائهم دور في توجيههم نحوالقراءة.. وإنما كان هناك وفيما يحيط بهم، مناخ يذكر الكتب ويقود إلى ما فيها من متعة.. ومن هذا الصنف كان عميد الأدب العربي (طه حسين) فرغم فقدده لبصره ووجوده في بيئة ريفية تموج بالفقر تارة وبالخرافة تارة أخرى، إلا أنه عرف الكتاب وعرف الطريق للقراءة ولعلها كانت البداية التي صنعت منه هذا الأديب الكبير، فقد كان باعة الكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليط من الأسفار، وكانوا يحملون في حقائبهم مناقب الصالحين، وأخبار الفتوح والغزوات، وقصة القط والفأر، وحوار السلك والوابور، وشمس المعارف الكبرى في السحر وكتبًا أخرى، وقصص المولود النبوي، ومجموعات من الشعر الصوفي،

ثم كتبًا في الوعظ والإرشاد، وأخرى في المحاضرات وعجائب الأخبار، ثم قصص الأبطال من الهلاليين والزناتيين، وعنصرة، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، والقرآن الكريم، وكان الناس يشترون الكتب كلها، ويلتهمون ما فيها التهامًا، وكانت عقليتهم تتكوّن من خلاصته كما تتكون أجسامهم من خلاصة ما كانوا يأكلون ويشربون.

وقد قرئ لطفه حسين من كل هذه الكتب، وكان يحفظ منه الشيء الكثير، ولكنه عُني بشيئين عناية خاصة: عُني بالسحر، وعُني بالتصوف، (وما كان أبعد صبينا وأترابه عن (ابن خلدون) وأمثال (ابن خلدون)!) إنما كانت تقح في أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء، فيقرؤون ويتأثرون ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة، وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن، وكثيرًا ما يختلط في عقولهم السحر والتصوف، فيصبح كلاهما شيئًا واحدًا، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله). ٢٨

وكان السحار أول من قرأت له من الأدباء، وقد كانت له طفولة عرف فيها طريقه للكتاب والقراءة، حيث يصور لنا ذلك الميлад الذي جاء عن طريق المحاكاة والتقليد، والذي لم يكن متعمدًا، أو إلى ذلك قاصدًا، حينما كانت الأحاديث تدور في السلامك بين أخويه أحمد وسعيد وأصدقائهما حول الروايات التي قرؤوها وحول المجلة،

وكانت الأحاديث في الليل بين أبيه وصحبه تدور حول الكتب التي كانوا يقطعون الوقت بقراءتها والتعليق عليها، فاشتهد أن يشارك في تلك الأحاديث، وشحذ ذلك همته فعزم على القراءة كما يقرؤون وأن يدلي برأيه فيما يقولون..يقول: ( فأقدمت متهييا على قراءة ماجدولين للمنفلوطي ولكن ما أن قرأت بضع صفحات حتى أحسست سرورًا يغمرنني؛ إنني أستطيع أن أفهم ما أقرأ وأن أتأثر به وأن أنفعل به.

ومرت الساعات وأنا عاكف على الكتاب، فنسيت كل ما حولي، وعشت مع أبطال الرواية حتى أوشكت على نهايتها، ومست أذني أصوات مهمهمة فذهبت على حيث كانت الأصوات منبعثة والكتاب في يدي، فرأيت ابنة أخي الصغيرة نائمة شاحبة اللون تلتقط أنفاسها في جهد، وأهل الدار حولها مطأطي الرؤوس في حزن، ففطنت إلى أنها في النزاع الأخير فانقبض صدري، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أترك ماجدولين وهي تجود بأنفاسها، فأسرعت إلى القراءة وسالت عبراتي ونسيت كل شيء، إلا أن ماجدولين تموت، ذهبت ماجدولين في الغابرين، وانطلقت الأصوات مفاجعة مولعة في الحجرة التي سحبت فيها ابنة أخي، فخييل إلي أن الصوت ما انطلق إلا لموت ماجدولين. ٢٩

لم يكن السحار وحده من ساهمت الظروف المحيطة بدفعه لعالم القراءة دون قصد منه، أورغبة من مشجع، وإنما هناك كثيرون صاروا أدباء ومفكرين وتسامعت الدنيا بإبداعاتهم، لمجرد صدفة أوتقليد

أوتصرف معين، لم يكن صاحبه يدري ما يجره من أثر عظيم على هذا الطفل الناشئ!

وقد قرأت أن بعض الدراسات الاجتماعية أوضحت: أن الأطفال يصبحون أكثر إيجابية وقربًا من القراءة إذا هم عاشوا نوعًا من التواصل الإيجابي مع والديهم أثناء القراءة .

لابد من الجلوس مع الطفل والقراءة له بمعدل ٠٣ دقيقة يوميًا والتأكد من أن معلمه في الحضانة أو الروضة يقرأ له وبصوت مرتفع يوميًا، ويعطيه كتبًا لكي ينظر إليها.. لبناء علاقة من الألفة بين الطفل والكتاب.

ومن المهم أن يقدم الوالدان قدوة جيدة لطفلهما حيث سيدرك الطفل أن القراءة شيء مهم في حياة الإنسان عندما يرى أباه وأمه يقرأن بشكل مستمر في المنزل، وعليهما أن يقترحا القراءة كنشاط يمكن أن يقوم به الطفل أثناء وقت الفراغ، وأن يوفر له الكتب الجيدة في مكتبة منزلية قريبة من متناول يده، كما يأخذه وبشكل مستمر لزيارة المكتبات وشراء ما يروق له من الكتب تحت إشرافهما، ومن المفيد أن يقومان بمناقشته فيما يقرأ، كأن يعطى أسئلة مكتوبة، ويطلب منه البحث عن إجاباتها في كتاب ما..

ولكي يدرك الأبوان قيمة دورهما في نبوغ الأبناء، لابد من معرفة قصة بن كارسون وأمه.. فنحن نستطيع بالقراءة أن نصنع المعجزات

في حياتنا وحياة أبنائنا لأننا وجهناهم إليها وأدخلناها في حياتهم، وهو ما أدركته هذه الأم البسيطة التي لم تتلق تعليماً يؤهلها لإدراك هذه الفكرة والقناعة الكاملة بدور القراءة كحل سحري يرتقي بالأفهام ويحول مسار الإنسان من القاع إلى القمة..!

لقد تركت هذه الأم المدرسة وهي في الصف الثالث وتزوجت وعمرها ٣١ عامًا ثم انفصلت عن زوجها وترك لها ولدين لتقوم وحدها بعملية التربية.. لقد كافحت وكدحت وتعبت كثيرا في تربية ولديها، فعملت خادمة في المنازل، وكانت تزاوّل عمليّن أو ثلاثة في اليوم الواحد، حتى تملك القدرة التي تؤهلها لتوفير ما يحتاجه من معيشة حسنة.. وعاشوا جميعاً في شقق متداعية تعبث فيها الجرذان والصرابير في أحياء سكنية تنتشر فيها الجريمة والعنف..!

وفي ظل هذه الآلام.. أصابتها الصاعقة وشعرت أن أملها في ولديها يتبدد، حينما علمت أن ولدها الأصغر (بن كارسون) يعاني انحدارا في مستواه الدراسي، وأنه أغبى طفل في المدرسة وأنه يُعرف بين أصدقائه بالطفل الغبي.. كان ذلك و(بن كارسون) في الصف الخامس وفي الثامنة من عمره..!

وأمام ما ترسمه الأم من طموحات وأحلام في خيالها وعقلها لولديها من مستقبل كبير يعوضان به ما حُرمت هي منه، ويكونا حبل النجاة من هذه الحياة المؤلمة، كانت لها ردة فعل قوية على هذا النبأ المزعج وعزمت أن تعالج الأمر وتصحح من مسار ولدها،

وكانت طريقة علاجها على درجة كبيرة من الوعي، حينما قامت كلها على القراءة حتى تزيل هذا التبلد في عقل طفلها وتنسحب غيوم الغباء من سماء نفسه..إنها لم تفعل شيئاً إلا أن قللت من أوقات مشاهدة التلفاز واللعب لتكون أوقاتاً قصيرة جداً في اليوم، وأن يقوم ولدها باغتنام بقية الأوقات في المكتبة العامة بالمدينة يقرأ ويطلع ويتثقف!.

ولم تحدد له ما يقرأه، ولكنها تركت له حرية الاختيار وطلبت منه أن ينهي كتابين في الأسبوع الواحد في أي مجال أو نوعية من الكتب التي يُحبها ولكن بشرط أن يقدم لها تقريراً في نهاية الأسبوع يلخص لها فيه ما قام بقراءته، مع ملاحظة أنها لم تكن تعرف القراءة، ولكنها كانت توهمهم بذلك وتقوم بوضع خطوط على التلخيص!

احتج عليها كثير من الجيران والأصدقاء لأجل هذا الأسلوب القاسي في معاملة ولديها وحرمانهما من حقهما الطبيعي في اللعب كسائر أترابهما، ولكنها لا ترعوي للاحتجاج، لأنها كانت فرعة على مستقبلهما، واستمرت في خطتها إلى أن آتت أكلها.. لقد كان بن كارسون يحب علم الحيوان فقرأ الكثير في هذا العلم، وعلم الصخور، كان يقرأ في المكتبة ويطبق هذا العلم بشكل عملي على البيئة الفقيرة التي يعيش فيها بين السكك الحديدية..

وبعد فترة وفي أثناء الدراسة، وبعد تنفيذ هذه الخطة للأم، دخل المدرس على التلاميذ في الفصل الدراسي وكان بيده صخرة وقال لهم:

من يعرف اسم هذه الصخرة؟ وهنا انتظر بن كارسون الذي قرأ كثيراً وزادت معارفه أن يجيب أحد الطلاب الأذكياء على السؤال، ولكن لم يقم أحد منه بالجواب، انتظر أن يجيب أحد من بقية الفصل وكانت نفس النتيجة لم يجب أحد، وفي ظل هذا الصمت الرهيب والخيبة الشاملة والجهالة التي أطبقت على الجميع رفع بن كارسون يده طالباً من معلمه أن يجيب على السؤال، لم يتلق التلاميذ طلب صديقهم بحفاوة وتشجيع، وإنما كانت ضحكات مدوية وسخرية كبيرة، انفجروا جميعاً بالضحك والتعجب فكيف ل(كارسون) الغبي الذي يرسب في كل المواد أن يجيب ويعرف ما عجزوا هم عن معرفته؟!

وقام صديقهم ليجيب عن السؤال إجابة كاملة شافية مع وصف كامل لهذه الصخرة البركانية التي أتى بها المعلم وطريقة تشكلها مع تصادم الحمم المنصهرة مع الماء البارد.. وحينما فرغ من الإجابة توقع زملاؤه أن يكون ما قاله خطأ وانتظروا اللحظة التي ينهره فيها المعلم حتى يضحكون عليه مرة أخرى، ولكن رد المعلم فاجأهم حينما قال له: أحسنت يا بن فالإجابة صحيحة..! وهنا وفي هذه اللحظة الفريدة في حياة بن لحظة التفوق على أقرانه أدرك أن الذي انتشله وارتقى به من مرحلة أدنى طالب إلى طالب يثير الانبهار إنما هي القراءة، وطريقة أمه حينما وجهته إليها، وهنا قرر صاحبنا أن يوسع مجال القراءة لديه ويبدأ بقراءة المنهاج الدراسي، حتى أنه أصبح لا يضيع وقتاً بدون قراءة أو دراسة، وكان التحول العجيب

حينما أصبح هؤلاء الذين يرمونه بالغباء قديمًا يأتون إليه ليسألونه ويستشيرونه في كثير من المسائل !.

وأنهى بن دراسته الثانوية والتحق بالجامعة وحصل على البكالوريوس في علم النفس، ثم التحق بكلية الطب لينتقل من علم النفس إلى جراحة الأعصاب وأصبح مديرًا لمستشفى (بالتيمور) لجراحة الأعصاب للأطفال وهو في سن ٣٢ عامًا، وكان أول شخص ينجح في فصل التوائم السيامي الملتصق بالرأس وأحد أبرز جراحي العالم ويُجري مئات العمليات الحساسة والمعقدة في كل سنة في مناطق الجسم الحساسة..

وأنقذ حياة آلاف الأطفال بفضل موهبته وعبقريته، وقيل: إنه لم يتعد عدد النتائج السيئة للعمليات الجراحية الدقيقة التي أجراها (كارسون) على أدمغة الأطفال الذين يعانون من مشاكل عصبية، عدد أصابع يديه، وفي عام ١٩٨٥، أتقن إجراء عملية استئصال نصف دماغ الأطفال الصغار المصابين بنوبات صرع مزمنة دون الإضرار بنموهم أو بوظائف أعضائهم بدرجة كبيرة، وساعد (كارسون) أكثر من ١٠٠ طفل من خلال إجراء هذه العملية الجراحية، بعد مضي سنتين على هذا الاختراق الطبي، قاد (كارسون) فريقًا جراحيًا مؤلفًا من ٧٠ عضوًا أجروا أول عملية جراحية ناجحة لفصل توأمين متصلين عند الرأس. عاش التوأمين الألمانيان بعد عملية جراحية دامت يومًا بكامله تقريبًا.

وفي عام ٢٠٠١ وصفته مكتبة الكونغرس الأميركية بأنه أحد (الأساطير الحية) الـ ٨٩، كما منحه الرئيس السابق جورج دبليو بوش الميدالية الرئاسية للحرية عام ٢٠٠٩م، وهي أعلى تكريم تمنحه الحكومة الأميركية إلى المدنيين. وجاء الاعتراف الشعبي بعبقريته مع عرض الفيلم التلفزيوني (يدان موهبتان: قصة بن كارسون) (٢٠٠٩)، حول حياته وإنجازاته الاستثنائية.. وله أكثر من ٠٩ مؤلفا طبيا وهي من أكثر الكتب مبيعا!، وهكذا كانت النتيجة.. نتيجة القراءة..!

وتأتي قصة كارسون لتؤكد ما أكدته بعض الدراسات التربوية أن هناك ارتباط وثيق بين القراءة والطفل، وبين تقدمه الدراسي والعلمي بل أثبتت أن الطفل القاريء لديه تفوق لغوي ومهارة تعبيرية وسرعة بديهية وذكاء في الجواب، وارتفاع في مستوى الفهم، وتوسع دائرة الخبرات، وتفتح أمامه أبواب الثقافة والمعرفة..

كما كانت قصة صديقنا السعودي الأستاذ (طاهر التهامي الزهراني) مبهرة حينما عرض لنا دور والده في حياته وكيف دربه على حب الكتاب وعشق القراءة لتصير بعد ذلك طبيعة تجري في دمه، وهي تجربة رائعة ليت آباء اليوم يحذون حذوها، لقد ترك له والده ميراثًا خرافيًا أضاء له سنوات حياته بأكملها، وليس طفولته فقط.

ففي طفولته كان يحمل له القصص والحكايات وهو بعد لم يدخل المدرسة، ولم يتعرف على الحروف، وكان كلما استيقظ من النوم وهو صغير، يجد مجلة من المجلات المصورة تحت وسادته كمجلة

السندباد أو علاء الدين أو مجلة ماجد.. لقد وضعها له أبوه الذي كان حريصاً أن تكون بينه وبين الكتاب صداقة مبكرة قبل أن يدخل المدرسة وبعد أن دخلها انتقل والده إلى طريقة أخرى من طرق التحفيز وهي المكافأة على القراءة، فقد كان يقول له وإخوته: (من يقرأ كتاب كذا فله كذا وكذا من الريالات).. وفعلاً يكون عند وعده، وكان يراعي نوع الكتاب الذي يقرأه أبنائه بحيث يناسب المرحلة العمرية التي هم فيها، ولم يكن يتردد في إعطاء المال عندما تكون السلعة كتاباً يريد أحد أبنائه أن يشتريه!

ثم سلك والده طريقة ثالثة وهي نفس الطريقة السابقة، غير أنه كان يختبر معلوماتهم بعد القراءة بسؤال أو سؤالين، وفي كل مرحلة من مراحل القراءة التي يمرون بها تقل الصور والرسومات في الكتب وتكثر الكلمات والمعلومات.. كانت هذه طريقة والده حتى نهاية المرحلة الابتدائية، حينها كان صاحبنا قد أحب الكتب، ولكنه لم يحب القراءة بعد..!

وحينما سمع أبوه ذات مرة أن مدرسة ولده تعتزم فتح مكتبة، كان من الداعمين لتلك المكتبة، وكان الفتى يرى بعض كتبه وقصصه في أيدي الطلاب، وكان يشعر في ذلك بغيرة شديدة، والسبب أن هناك علاقة وصلة قوية مع هذه الكتب.. وعندما وصل ولده للمرحلة المتوسطة، توقف الأب عن هذه الطرق، وخلع أبواب خزانات الكتب، والتي كانت مغلقة في السابق، نزع تلك الأبواب وترك المكتبة مشرعة.

لقد جمع والده مواد مكتبته، فاشتملت على جميع العلوم والمعارف وكتابها من جميع أقطار العالم، عرب وعجم متقدمين ومتأخرين، حتى أنه يقول: لم أر في حياتي مكتبة مثل مكتبة والدي ليس في كثرة الكتب ولكن في تنوع محتواها كانت حديقة غناء، التنزه فيها لا يُمل أبدًا.

وبفضل هذه التربية أصبح الكتاب شيئًا مهمًا في حياة الأبناء، يقول طاهر: (كنت في أواخر المرحلة المتوسطة، تتابني لحظات اكتئاب مرعبة، وأذكر أن فراشي الذي كنت أنام عليه كان بجوار المكتبة تمامًا، وذات مساء كئيب جلست وأسندت ظهري على الكتب، ومددت رجلي للفراغ السحيق، ثم كانت تلك اللحظة الفارقة، ذلك المنعطف العظيم الذي أتذكره دائمًا، حينما اتكأت يدي على رف المكتبة المغرب، ثم وقعت يدي على كتاب، سحبته وكان عنوانه «سطور مع العظماء» لمحمد كامل المحامي، كان ذلك في مساء يوم من أيام عام ١٩٩٢م، أتذكر تلك اللحظة التي بعدها أصبحت قارئًا نهمًا، لدرجة أن أبي أصبح يخشى على تحصيلي الدراسي بسبب القراءة، بعد ربع قرن من تلك اللحظة أصبحت كاتبًا، وأصبح أبي يقرأ لي) ٣٠

في يوم من الأيام كتب أمين مكتبة المنصورة شهادة أعطاها للتلميذ (أنيس منصور) فيها: تشهد مكتبة المنصورة أن الطالب (أنيس

منصور) استطاع أن يقرأ كل ما في المكتبة من كتب وعددها ١٤٣٥ كتابًا.. وكان يومها في الخامسة عشرة من عمره!

ويقرر أنه حتى سنة التخرج لم يشغل نفسه بمطالعة مجلة مصورة ولا قرأ كتابا للتسلية.. بل هذه القراءة الجادة المفيدة، كما أنه لم يدخل السينما حتى تخرج من الجامعة!

وظلت القراءة هوايته إلى أن تخرج من الجامعة، وفي حديث له بالأهرام تحدث عن أبعاد القراءة وكيف جعلها الإنسان طريقه للخلود بنقل تراثه من جيل إلى جيل..!

الشباب بين الماضي والحاضر !

يقول محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

(إنَّ شبابنا المتعلِّم.. كسولٌ عن المطالعة، والمطالعةُ نصفُ العلم أوثلثاه، فأوصيكم يا شبابَ الخير بإدمانِ المطالعة والإكبابِ عليها، ولتكنْ مطالعتكم بالنَّظامِ حرصًا على الوقتِ أن يضيع في غير طائل، وإذا كنتم تريدون الكمالَ فهذه إحدى سبلِ الكمال)

هل تعلم أن أعداءنا يقيسون قوتنا وضعفنا بحالة الشباب ؟!

وهي وسيلة قديمة لجأوا إليها كمقياس لقوة الأمة وصلابة عودها وهمة أبنائها ومدى قدرتها على النزال والمواجهة.. زيغ وضياع وانحدار.. أم يقظة وحماس وجهاد.؟!

ولعل القراءة في نظري من أخطر الوسائل التي تُقاس بها حالة الشباب ومستوى الأمة، لأنها طريق الوعي والإدراك، وبدونها فلا وعي ولا إدراك، وحينها يكون كل شيء سهلاً مستباحاً.. فالأمة التي تتخبط في الجهالة، ويعيش مجتمعها في الظلام، تكون هشة متهاوية، ولقمة سائغة بين أنياب المتربصين بها.

ولا أتعس مما نراه اليوم من حال شبابنا العربي الذي هجر القراءة، وخاصم الكتب، وضل طريق المكتبات، ولا يدرك أنه بهذا البُغض إنما يبغض المستقبل والريادة والتفوق والنهوض..!

استطاعت الأجهزة الذكية والفضاء الإلكتروني، والتكنولوجيا المتطورة، أن تأسره وتجره إلى غيها، وفي الوقت الذي نعذرهم فيه بسبب هذه الملهيات، نجد الشباب الغربي يقدر الكتاب ويجعل من القراءة ضرورة حياتية، وزاداً يومياً لا بد منه كالطعام والشراب، فلماذا يختلف شبابنا عن شبابهم؟ ولماذا يتم التقليد في اللعب والهرج، ولا يتم في الإنتاج والإبداع والتفكير؟!

تأمل حديث (الطنطاوي) عن شبابه وشباب أترابه كيف كانت همتهم فيه؟ وكيف كان للكتاب والقراءة مكانه في مرحلته؟!.. حتى نعرف إلى أي هوة سحيقة وصل إليها شبابنا، وإلى أي درجة أهدرنا قيمته في كثير من لهوالدنيا، ومما لا نفع فيه من الهرج والمرج... ولوأننا أهدرنا ذهباً وجوهراً لكان أرخص بكثير من هذا الشباب

الذي لا يعوض ولا يقدر بثمن، ولا يمكن فداؤه بالقناطير المقنطرة  
من المال والثروة..!

يقول الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله: ( رأيتني في الصفوف  
الأوائل من الثانوية، وحوالي رفقة ما رأيت بعدهم مثلهم في إقبالهم  
على الدرس وجلدهم عليه، وفي رسوخ ملكاتهم الأدبية، وقوة طبعهم  
في الأدب، وسليقتهم في اللغة، وتسابقهم إلى مطالعة نفايس المصنفات،  
ومعرفة المصادر والأمهات، ولم يكونوا كشباب اليوم الذين يحاولون  
الكتابة قبل القراءة، ويغترون بالنشر فيحسبون أنهم أنداد وأقران  
لكل من يكتب في الصحيفة التي تنشر لهم، ويعلن أحدهم عن  
كتابه الذي سيتصدره قبل أن يكتب منه عشر صفحات، وينتقد  
الكاتب الكبير وهو لا يحسن أن يقيم لسانه في قراءة مقالة من  
مقالاته، ويخدع المجلة عن أدبه فتظنه شيئاً فتخدع عنه القراء، وما  
لم أذكر من صفاتهم آلم وأنكى...

وكنت قد قرأت طائفة من الكتب أذكر أن منها ( حياة الحيوان  
للمديري) وهو أول ما طالعت من الكتب، وهودائرة معارف كما  
يسمونها اليوم أو هو معلم جامع، فيه فقه ولغة وأدب وقصص  
وتاريخ وخرافات وعلم وحقائق.. أفدت منه كثيراً و( الصاحبى)  
لأحمد فارس وقد ألقى في نفسي إجلال العربية والإيمان بسعتها  
وجلالها، وحبب إلي جزالة الأسلوب وفحولة اللفظ، ولا أزال إلى اليوم  
أعجب برسالة ابن فارس هذا إلى من أنكر فضل الجديد، لأنه جديد  
ومال إلى تقديس كل قديم لأنه قديم، وأعدها من نفايس الآثار،  
ليليت للنشر والتوزيع -١٣٥-

وهي في مقدمة الكتاب، و(بلوغ الأرب للآلوسي) وقد أورثني التعصب للعرب والمبالغة في ذلك، ثم علمت أن قد كان فيه زيف كثير كما كان فيه صحاح كثير، وما زلت أحفظ جملة صالحة من أخباره صحيحها وباطلها، و(الأغاني) قرأته كله، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأنساب، وهو رأس مالي في الأدب، وقرأت (الكشكول) و(المخللة) و(مراقبي الفلاح) في الفقه الحنفي الأزمني والدي قراءته، أسبغ الله عليه رحمته، و(شرح رسالة ابن زيدون) المطبوع على هامش (الغيث المنسجم)، وكانت طريقتي في المطالعة أي إذا فرغت من دروس المدرسة، دخلت مكتبتنا فتخيرت كتاباً فأخذته فنظرت فيه، فإن أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أتمه وأخذت غيره، لا أستعين على ذلك بمُرشد، ولا أستهدي بهاد، إلا ما كان شيخنا الأستاذ اللغوي الشيخ (عبد القادر المبارك) يسميه لنا من الكتب ويرشدنا إليه) ٣١

وكان يقول: (أنا من ستين سنة أقرأ كل يوم خمسين صفحة ألزمت نفسي بها.)

ويالها من همة جسورة حين قرأ كل هذه الكتب وكل هذه الأمهات، وهو في مرحلة الثانوية التي يعد المرء فيها في طور الصبا لم يخرج منه بعد!! وإذا كان حديث الطنطاوي يثير فينا هذا العجب فأليك من الحديث ما يثير الألم والإحباط!.

---

31- من حديث النفس - علي الطنطاوي

ومثله كان أبي فهر محمود شاكر رحمه الله فقد قال في مقدمة المتنبى: (فأقدمت إقدام الشباب الجريء على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كُتُب أسلافنا من تفسير لكتاب الله إلى علوم القرآن على اختلافها إلى دواوين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وكذا شروحها..! إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل..! إلى كتب الفقهاء في الفقه ثم كتب أصول الفقه قاطبة! ثم كتب أصول الدين أي علم الكلام وكتب الملل والنحل..! ثم كتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النحو وكتب اللغة! ثم عرجت بعدها إلى كتب التاريخ! وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم وعمدت في رحلتي هذه الأقدم فالأقدم.. حتى قرأت كل إرث آبائي وأجدادي) ٣٢

ويروي لنا الأديب (ثروت أباطة) هوسه بالقراءة في مرحلة الشباب، والتي وصلت إلى حد عجيب غريب، فقد كان يتغيب من مدرسته ويُغضب معلميه، حتى أن أحدهم اشتكاه يوماً لوالده في رسالة أرسلها له فكان رد والده عليه أن يُنزل به ما يشاء من العقاب، وأنه سيحرص على أن لا يتغيب عن المدرسة، أما ثروت فإنه علل ذلك بقوله: (كان العلم محققاً في شكواه من تغيبي، فقد كنت قارئاً متهوساً، ولم أكن أترك المدرسة لأذهب إلى أي مكان، وإنما كنت أنزل من الطابق الأدنى وأقفل الباب وأروح أقرأ في كتب الأدب.!

---

32 - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود شاكر

وكان كبير الخدم عندنا اسمه (عم احمد) وكنا نناديه بلقب عم احمد توقيرا له، وفوجئت يومًا وأنا في خلوة قراءتي بباب الغرفة يكاد ينخلع من مكانه من شدة الخبط عليه، وفزعت إلى الباب وفتحته، فإذا بوالدي أمامي تتميز من الغيظ، ولولا أنني كنت قد تجاوزت الطفولة إلى مطالع الشباب لانهالت علي ضربا وأمرتني أن أذهب إلى المدرسة فوراً. ٣٣

ويقول مرة في واحدة من مقالاته التي نشرها في السبعينات: ( أذكر أننا حين كنا طلبة في المدارس الثانوية كانت مكتبات المدارس حافلة بالكتب، وأذكر أنني قرأت من مكتبة المدرسة جميع أعمال (تيمور) وبعض كتب (توفيق الحكيم) التي كانت نافذة من السوق وغير هذين، فقد كانت كتب جميع الأدباء الكبار في المكتبة، بل كان بها أيضا الكثير من كتب النشء الحديث في ذلك الحين، وكانت كتب التراث جميعاً في مكتبة المدرسة، وقرأت منها أيضا كتب المنفلوطي، وأنا لا أستطيع أبداً أن أتصور أن المدارس تخلو تماماً من المكتبات وأن الميزانية المدرجة لها لشراء كتب تستنفد في أشياء أخرى لا شك أنها أقل أهمية من إتاحة الثقافة للطلبة) ٣٤

أما الشيخ (محمد الغزالي) فقد عرف الكتاب والقراءة مبكراً واغتم شبابه ولم يهدره في اللهو والمرح فيقول: (أصبحت الشيخ محمد وأنا لم أبلغ الحلم! كنت أحب اللعب، ولكن كيف يلعب شيخ؟ وكنت

33 - لمحات من حياتي - ثروت أباطة

34 - الأعمال الكاملة - مقالات ثروت أباطة ج ١

كثير الضحك، وجزائي على ذلك طول الزجر والتوبيخ، وتطلعت إلى المكتبة التي نرتزق منها وكنت منهوّمًا بالقراءة، فتركني أبي أقرأ، وإن كان قد لاحظ في أسف أيّ أبي القراءة في الكتب الدينية، وأوثر مطالعة الروايات الأجنبية، وربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هو من كتب...

عرفت بعد ما كبرت أن هذه الكتب مليئة بالأحاديث الموضوعية والواهية والخرافات العلمية، ولكن الناس كانوا مقبلين عليها، مثل: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، والروض الفائق في الوعظ والرقائق، وتنبية الغافلين، وقصص الأنبياء، والخمرة الإلهية، والفتوحات المكية... إلخ.

لقد كانت الثقافة الإسلامية -وما زالت- حافلة بالسموم والمخدرات، والحاجة ماسة إلى غربلتها ونفي الأقداء عنها.

ولعل هذه القراءة في هذه السن المبكرة جعلت منه مثقفا كبيرا وشابا متسلحا بالعلم الغزير، الذي لا يضاويه فيه بعض الشيوخ، وفي هذا المعنى موقف رهيب تجلده فيه للشيوخ الذين امتحنوه للعمل في وزارة الأوقاف كإمام وخطيب بمساجدها وكان هؤلاء الشيوخ أناس لا يستهان بهم، وعلى قدر عظيم من الثقافة والعلم ومنهم الشيخ أمين الخولي العالم المعروف، فماذا حدث؟

يقول الشيخ الغزالي: (حصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئاً بعيد المنال، وهذا جزء من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله.. ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف الإمامة والخطابة والتدريس الخالية بمساجدها .

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من العلماء العاطلين، وكانت تحريرية وشفوية .

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة؛ بدأت بعمل مني كان طائشاً! كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيداً، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، وينتقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماض في التلاوة.. وردّني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقاً؟ فأنا أحفظ جيداً!

وشتمني رئيس اللجنة، وكان الأستاذ (أحمد حسين) أخا الدكتور (طه حسين)، وهو يومئذ مفتي الأوقاف، وجاء دور الأستاذ (أمين الخولي) الذي طلب مني تفسير آيات قرآنها، وأجبت فخطأني، وذكرت رأياً آخر في التفسير فخطأني .

فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددتُ لوأعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف!

قال: ذاك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ (سيد زهران) قائلاً للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه، فذله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا... فقلت بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدّى إذا كان هناك جواب آخر! وعاد الشيخ (أحمد حسين) إلى توبيخي، أما الأستاذ (أمين الخولي) فأدار ظهره معرضاً عني ومنهياً المناقشة..ولكن سؤالاً وجّه إليّ من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعددتها.

فقلت: اقترح أي موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت..وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات!

أما الأستاذ (بديع الزمان سعيد النورسي) فكان يُحب أن يرفع من همة الشباب من تلاميذه وهو في قمة الشيخوخة فيقول لهم: كم صفحة قرأتم اليوم؟ وكنا نجيبه: قرأنا ثلاث أو خمس صفحات فيقول لهم: أما أنا فقد قرأت مثني صفحة وبالرغم من عجزني عن الكتابة، فأكتب بشكل بطيء جداً فقراءتي تختلف عن قراءتكم، فأنتم تقرؤون قراءة سطحية كقراءة الجرائد، ولكنني أقرأ مع فهم المعاني والمقاصد وهاكم انظروا إلى تصحيحاتي..!

ويذكر أحد تلاميذه إحساسه بالكتب ورقته في التعامل معها فيقول:  
كان الأستاذ عندما يُريد أن يقلب صفحات الرسائل، كان يُقلبها ببطء  
واعتناء من غير أن يؤذي الورقة، ومن دون أن يُبلل أصبعه لقلب  
الصفحة، لقد كان الأستاذ كلما يقرأ يتجدد حيوية ونشاطاً وكأنه قد  
أصبح شاباً يناهز العشرين..!

ويحيي أحدهم موقفان لشابان عربيان نستطيع من خلالهما أن نقيّم  
حجم الغيبوبة الموحشة التي يغط فيها شبابنا العربي، وندرك منها  
كذلك مدى المسافة بينه وبين القراءة والكتاب فيقول: ( كنت جالساً  
قبل أيام في إحدى مكتبات جامعاتنا الكبرى! فجاءني طالبان وقالوا:  
نريد كتاباً عن موضوع معين! فقد طلب الدكتور منا ذلك، قلت  
لهما: هذه أجهزة البحث فابحثا من خلالها عن الموضوع أو بالعنوان  
ستظهر لكما جميع الكتب الموجودة في المكتبة عن الموضوع الذي  
تبحثان عنه! قالوا: ولكننا لا نعرف طريقة البحث، فذهبت إلى الجهاز  
وبحثت لهما، فوجدت مجموعة من الكتب وقلت: أي هذه الكتب  
يناسبكما؟! قالوا: أي كتاب نحن نريد تصوير الغلاف والفهرس فقط  
كما طلب الدكتور !

اخترت أحد هذه الكتب وأخذت تصنيفه، وقلت: اذهبوا إلى هذا  
الرقم وحسب الأحرف ستجدان الكتاب الذي اخترته لكم وحوله  
مجموعة من الكتب في نفس الموضوع وقرئياً منه ومن خلال  
العناوين والمقدمات والفهارس اختاروا ما يناسبكما! ذهبوا وهما

يشكران، وبعد فترة ليست بالطويلة عادةً وقالوا: لم نجد أي كتاب! فذهبت معهما ووجدت مجموعة كبيرة من الكتب، وتبين لي أنهما لا يعرفان طريقة البحث من خلال التصنيف، بل كان سؤال أحدهما: هل أستطيع أخذ الكتاب معي إلى البيت؟! (٣٥)

الطالبان يشعران أنهما دخلا عالماً غريباً عليهما وأنهما في بيت المتاهة اللذان لو كانا فيه لما كانا يعجزان كل هذا العجز الكبير، والشعور بأنهما غارقان في عالم مجهول..!

ويبقى السؤال.. من أهمل هؤلاء حتى صاروا بهذا التيه وهذه الغربة عن الكتاب والمكتبة وطرقها ونظامها، أم أنهما يا ترى أهملتا أنفسهما؟!!

وفي تقرير إحدى الجامعات في عالمنا العربي الذي أكد أن ٧٢٪ من خريجي الجامعات يتخرجون دون أن يقوموا باستعارة كتاب واحد من مكتبة الجامعة..!

وإذا كانت الشكوى قديمًا في الأوصاف الذين يهدرون الأوقات بالسمر والسهرات عن العلم والقراءة.. وإذا كان شوقي رحمه الله تبرم قديمًا من الأوصاف الذين يشغلونهم عن القراءة وابتعد عنهم في قوله:

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وفيًا إلا الكتابا  
صاحب إن عبته أولم تعب ليس بالواجد للمصاحب عابًا

فإن محنة الشباب اليوم أفدح وأشد.. لقد انعزل أحدهم عن الأهل والأصحاب لينفتح على العالم كله عبر الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي .

وحيثما نرى أناسا يُدمنون القراءة، ويمعنون شغفًا وهيأًا بالكتب، وحاولنا أن نتبع مصدر هذا الولع يتبين لنا جذوره البعيدة والممتدة من زمن الطفولة، فهي المرحلة التي قدم لهم فيها الكتاب وتعرفوا عليه ورأوا أن بإمكانهم أن يتخذوه صاحبًا وأنيبًا، وهو الوعي الذي أدركته الأسرة حين قدموا هذا الاهتمام عبر طرق مشوقة وأساليب جذابة، حتى تهواه نفوس أطفالهم ويشبعوا صداقتهم وملازمتهم له، ولم تستطع هموم الحياة ومشغولياتها أن تمحوه من اهتماماتهم مع مرور الوقت، فهم يختلسون الأوقات من حياتهم للقراءة مهما كانت الشواغل والاهتمامات من العمل أو الزواج أو تربية الأبناء، لأنهم في حقيقتهم عاشقون.. وقد يكون هذا الغرام سيرًا إذا صغنا قصته من زمن الطفولة، أما الشباب.. فما أجهد أن نخلق فيهم هذا الميل الذي إن جاهدناهم فيه، فإن معطيات العصر العولمي ومباهجه التكنولوجية تتخطفهم منا وتشدهم إلى عالمها!

## الأدب في ساحة المواجهة !

هل تعلم أن إسرائيل تقوم بمنهجية مدروسة في تخريج أجيال حاقدة ساخطة على العرب؟!

هل تعلم أن هذه المنهجية المدروسة تتخذ من الأدب أقوى أسلحتها لإرساء هذه الصورة وتشكيل عقول الناشئة حيث يصدرن سلسلة للصغار منذ عام ٢٠٥٩١م، وكلما رحل منها كاتب أتوا بغيره حتى يقوم بنفس الدور في غرس الحقد والكراهية وتنمية روح المغامرة العسكرية، وتعزيز العداوة للعرب والمسلمين، بل يفتحون بهذه السلسلة على العالم، فيترجمونها إلى خمس لغات أوروبية، ويوزعونها بالمجان على الطفل اليهودي الأوروبي.

إن إسرائيل تؤمن بالقلم والأدب ودوره الفريد في صياغة العقول وإلهامها ما تريده من غايات، وليس هذا ما تفعله مع الأطفال وحدهم، وإنما هونفس سياستها مع الكبار حيث تدرك سحر الأدب في تشكيل عقول الشعوب، ولم تجد مناصاً من ركوبه وامتنائه حتى تجمل باطلها وتوهم شعوب العالم بحققها المزيف، تأمل ما حدث للكاتب المبدع (عبد المنعم الصاوي) في تلك الحادثة التي يرويها لنا فيقول: (قبل نحو ثلاثين عاماً، أُتيحت لي إعادة اكتشاف دور الأدب في الصراع الدولي، وقدرة رواية على أن تفعل في الهند ما لا تستطيع اثنتان وعشرون سفارة عربية، ومكتبان أحدهما لجامعة

الدول العربية، كان يترأسه د. كلوفيس مقصود، والآخر لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كنتُ في زيارة لإحدى كبرى مزارع البن في جنوب الهند، حين كَلَّف صاحب المزرعة الثري، ابنته الشابة بمرافقتي، وزميل صحافي فلسطيني يحمل الجنسية الأردنية في جولة بالمزرعة، أثناء الجولة سألت الفتاة عن البلاد التي ننتمي إليها، فقال لها صديقي -الذي ينتمي إلى عائلة فلسطينية عريقة، قدمت أحد رؤساء الوزارات في الأردن- أنا من فلسطين، فأتسعت حدقتا الفتاة، وتساءلت بدهشة: أين تقع تلك الفلستين؟! حار صديقي في الشرح، ورحت أحاول مساعدته، فرسمتُ لها خارطة فوق الرمال، وأشرت إلى موقع فلسطين على الخارطة، وإذا بالفتاة تصرخ: لا.. لعلك تقصد إسرائيل؟! وعندما سألتها: من أين سمعت بإسرائيل؟ قالت: قرأتُ رواية لليون أوري (sudoxE)، أي (سفر الخروج)، إنها الأكثر مبيعًا في الهند، بيعت منها ملايين النسخ، ثم قرأتُ للكاتب ذاته رواية (melasureJ hO) (وا قدساه)، آنذاك لم تكن لإسرائيل سفارة بالهند، فيما تفسح نيودلهي صدرها لاحتضان مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية، يقضي رجاله معظم وقتهم حول مسبح فندق (أوبروي) بنيودلهي؛ ليكحلوا عيونهم -على حد تعبيرهم- بمشاهد نساء شرق أوروبا اللاتي يمضين يومهن بالمسبح، بانتظار عودة أزواجهن (الخبراء الأجانب) من أعمالهم.

(سفر الخروج) للأديب الأمريكي اليهودي (ليون أوري)، فعل لإسرائيل

ما لم تفعله كل سفارات العرب، وكل مكاتب الجامعة العربية، وكل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية.(٣٦)

بل بلغ من فرط اهتمامهم بالأدب أن صاروا يترجمون روايات الأدباء العرب الذين هم أعداؤهم!!

يحدثنا (نجيب محفوظ) كيف حرص اليهود على ترجمة أعماله فيقول: (سمعت أن بعض الإسرائيليين اهتموا بأعمالي قبل الصلح.. معظم أعمالي الروائية ترجمها الإسرائيليون في زمن الحرب عندما لم تكن هناك أية علاقة تربطنا بهم- ليست أعمالي أنا وحدي وإنما أعمال أدباء العرب - وما ترجم بعد الصلح لا يقاس بما ترجم قبله من حيث الكم وحين تم الصلح جاءتني الكتب المترجمة وبعثوا يحاسبونني)٣٧

تأتي هذه العناية في الوقت الذي أهملنا فيه الأدب وتراجع الاهتمام بالكتاب والثقافة والمعرفة، وبعد أن كان الأدب هو الرائد الذي يشكل حياتنا الثقافية، وكانت كتبه ومجلاته لها الصدارة في المبيعات وكان الأدباء هم المثل العليا لدى الشباب.. تجردنا عن هذه الغاية لتتشغل الأجيال بالإنترنت وثقافة التيك أوي..وقد كنت تسأل الشاب المصري قديماً عن هوايتك فيقول الأدب وإذا سألته عما يريد لمستقبله؟ فيقول أديباً، وإذا سألته من تحاكي وتقلد أو من هو مثلك

36 - جريدة المدينة السعودية عدد ١٧٧٦٠ بتاريخ ١٣/١/١٤٣٣هـ

37 - أنا نجيب محفوظ - إبراهيم عبد العزيز ط مكتبة الأسرة

الأعلى الذي يؤثر في حياتك؟ فيقول لك: العقاد أو الرافعي أو المازني أو الزيات.. بل كان الشباب وقتها يقلدون الأدباء في هياتهم ومشيتهم وطريقة ملابسهم، وكانت المجلات الأدبية لها الصدارة في التسويق والانتشار، وتبدد كل هذا الماضي بواقع مختلف وغريب وبعيداً كل البعد عن أي حفاوة بالثقافة والفنون.

إن جوانب القصور والضعف في التيار الإسلامي أتت عليه وهددت مستقبله خاصة إذا كانت هذه العوامل هي عوامل القوة والتي يمتلكها المناوئون بكل قوة وجدارة، حيث تجدهم متفوقون في الإعلام ويمتلكون القنوات والإعلاميين وبرامج التوك شوالموثرة في الجمهور، كما يملكون الشعراء في الفصحى والعامية، ويملكون الأدباء الذين يكتبون القصص والروايات، ويحتلون المنافذ الفكرية والثقافية، مما حدا بكثير من علماء الدعوة أن يوصوا شباب الصحو الإسلامية باقتحام هذه الميادين والتفوق فيها لأثرها الفعال على العقول والأذواق، بل تساءل أحد الدعاة مستنكراً بقوله: (لماذا لا يوجد بين الإسلاميين شاعر مثل عبد الرحمن الأنودي أو أحمد فؤاد نجم... بل بالغ في التعبير عن غضبه بقوله: لماذا لا يوجد بين الإسلاميين امرأة مثل (نوال السعداوي)؟).

لا زلت أذكر رواية (عمالقة الشمال) لأدينا الكبير الدكتور (نجيب الكيلاني) وكيف استمتعت بها؟ وكيف كان تأثيرها على نفسي ومشاعري عميقاً؟.. وجمعتني مناسبة بأحد المعنيين بالدعوة الإسلامية

في أفريقيا، والمسؤول بوحدة من كبرى المنظمات الإسلامية، وقلت له: لماذا لا تترجمون رواية عمالقة الشمال بالإنجليزية أو اللغة المحلية في نيجيريا حتى يقرأها النيجيريون.. أنا واثق أنهم لو قرؤوها، فسوف يكون تأثيرها البالغ في نفوسهم، وسيكون لها مردودها الهائل في كشف طبيعة الإسلام وإيضاح روحه السمحة، والتبصير بالأخطار التي تحيق بهذا البلد المسلم!؟

ولكن يبدو أن الوعي بقيمة الأدب وتأثير الرواية لم يأخذ مكانته في كثير من الأفهام والعقول بعد! وعندي أن رواية تتحدث عن سمات الإسلام، وتعرض أخلاقه في أسلوب قصصي ممتع، قد تؤتي ثمارها أكثر من كتاب بحثي يتحدث عن ذات الموضوع!

نشرت صحيفة عكاظ خبراً تحت عنوان: (نشرت روايتي فأسلم ٠٣ ألف قارئ)، حيث كشف رئيس قسم حوار الأديان في الجمعية الدعوية الكندية، وطبيب العيون الدكتور (عبد الله براون) عن قرب الانتهاء من ترجمة مؤلفاته إلى اللغة العربية، بعد أن سجلت مبيعات قياسية وحققت انتشاراً واسعاً في الأوساط الأمريكية والكندية.

وكانت رواية (الصحيفة الثامنة) والتي أهدى منها نسخة للرئيس الأمريكي (باراك أوباما) قد تصدرت مبيعات الكتب حسب الإحصائيات الرسمية في الثلاث سنوات الماضية، وتم تداولها في أغلب وأشهر المكتبات الالكترونية.

وأفاد الدكتور (براون) أن الرواية تضمنت قصصًا متسلسلة توضح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، ونقاط التفاهم والاختلاف بين الإسلام والأديان الأخرى، وأنه بمجرد انتهاء القارئ من قراءة الرواية يكون قد كون صورة حسنة عن الدين الإسلامي، وأوضح براون أن أكثر من ٠٣ ألف قارئ للرواية وحسب الإحصائيات الرسمية، قد أعلنوا إسلامهم بعد قراءتهم للرواية.

وأوضح الدكتور (براون) أن مؤلفاته نالت إعجاب عدد من العلماء والمشايخ في المملكة، وأن هذا هو ما دفعه إلى ترجمتها للغة العربية حتى تصبح متاحة أمام الجميع.

ولا شك أن العدد ضخم وكبير، وهونفس العدد الذي حققه فيلم الرسالة لمصطفى العقاد حينما عرض بدور السينما الأمريكية.. والحق أنه لا يعرف روائي أثر في العقلية الأوروبية في العصر الحديث كما أثر (براون) الذي أعلن إسلامه.. ولعل إسلامه هو السبب في عدم شهرته وحديث الإعلام عنه، فرجل يؤثر في هذا العدد الكبير شخص لا يستهان به.. لقد أضاف للإسلام وخدمه، وفعل ما لم يستطع فعله أساطين العلماء ونوابغ الدعاة.. لأنه اتخذ من الأدب الروائي طريقًا للتأثير فيمن يؤمنون برسالة الأدب في نهضة الشعوب.

الفرنسيون يعظمون الرواية ويحتفون بها، لأنها تصور مجتمعهم، خاصة إذا جسدت مشكلاته وصورت أنين طبقاته المعذبة..

جاء في صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠١٣/١١/٧م، خبرًا تحت عنوان:

(بمناسبة مرور ١٥٠ عامًا على صدور رائعة (فيكتور هوغو) ٢٠٠ فرنسي يتناوبون ليومين على تلاوة (البؤساء) احتفالًا بالذكرى ١٥٠ لصدور رواية البؤساء للكاتب والشاعر الفرنسي (فيكتور هوغو) (١٨٠٢ - ١٨٨٥)، سيقوم ٢٠٠ رجل وامرأة بتلاوة متصلة لنص الرواية كاملًا، بصوت عال، في واحد من أقدم المباني المهجورة بمدينة تولوز، جنوب البلاد.

تهدف الاحتفالية إلى التذكير براهنية الرواية التي تبدو كأنها تصلح للقراءة في كل زمن، لا سيما العصر الحالي الذي ينتشر فيه البؤس في الأوساط الفقيرة، وتتصاعد فيه معدلات الجريمة، وتكرر الأسئلة التي طرحها المؤلف حول شرعية الحكام والقوانين ومفهوم العدالة، وقد جرى اختيار مكان العرض في مبنى (لا شايل) المتداعي نظرًا لأنه ينسجم مع أجواء الرواية ويجمع تحت سقفه المشردين البؤساء الذين لا يجدون سقفاً يبيتون تحته.

تبدأ التلاوة في الثامنة مساء الجمعة دون توقف، وتنتهي مع منتصف ليل الأحد المقبل، حسبما جاء في بيان لجمعية «الورشة المثالية» التي تدير مبنى (لا شايل)، ودعا المنظمون الموسيقيون والرسامون والراقصون والممثلون والحواة وحتى الطباخين، سواء أكانوا محترفين أو هواة، لمرافقة التلاوة بما يتناسب وأحداث الرواية الخالدة.

وحفاوة فرنسا بالأدب والأدباء كبيرة وقديمة.. فحينما بلغ هوجوالثمانين من عمره، احتفلت فرنسا بعيد ميلاده احتفالاً قومياً

هائلاً، وأقيم قوس للنصر في الشارع الذي يقع فيه البيت، وراحت الوفود الشعبية تعبر القوس أمام الكاتب الكبير لتحيته وهويقف بشرفة مسكنه، تغرورق عيناه بالدمع وهويرى أكثر من نصف مليون فرنسي يعبرون أمام بيته تحية للشاعر العظيم، في حين انهالت على البيت الصغير باقات الزهور من كل أنحاء فرنسا وصدر قرار بإعفاء جميع تلاميذ المدارس والمعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم ابتهاجاً بهذه المناسبة العظيمة!.

وزار رئيس مجلس الشيوخ الأديب الكبير في بيته مهنتاً بعيده الثمانين، ثم دعاه لحضور جلسة خاصة ستعقد لتكريمه بعد أسبوع، وحين دخل الشاعر العظيم قاعة المجلس وقف جميع الأعضاء يصفقون بحرارة شديدة تحية للأديب الكبير الذي أسموه شاعر القرن التاسع عشر.. وضميره وقلبه!. وبعد بضعة شهور من هذه المناسبة، صدر قرار من بلدية باريس بتغيير اسم هذا الشارع من إيلو إلى شارع فيكتور هوجو!.

وقبل هذه المناسبة ببضع سنوات شهدت باريس مناسبة أخرى أكثر أهمية، وهي عودة الشاعر العظيم إلى بلاده عام ١٨٦٩م بعد ١٩ عاماً في المنفى، ممنوعاً من العودة إلى بلده، بسبب أفكاره الجمهورية، ومشاركته في الثورة الشعبية ضد الإمبراطور نابليون الثالث، ثم استسلم الإمبراطور أخيراً واضطر لإعلان الجمهورية.. فغادر هوجوبروكسل بالقطار يوم ٤ سبتمبر ١٨٦٩، وبلغ القطار محطة الشمال بباريس

مساء نفس اليوم، فما إن وصلها حتى أحاط به طوفان من البشر، اضطر هوجولأن يخطب فيهم أربع مرات، رادًا تحيتهم له، وتمتم والدموع تلمع في عينيه (لكم يحبني هذا الشعب وأحبه)، وقال لمن استقبلوه بهذا الطوفان من الحب والتكريم:

لقد رددتم لي في ساعة واحدة ثمن عشرين عامًا عشتها في المنفى!. وحملته الجماهير على الأعناق، تريد أن تذهب به إلى مقر بلدية باريس، فرفض قائلاً: كلا أيها الأصدقاء، فإني لم أحضر لزعزعة مركز الجمهورية المؤقتة.. وإنما لأويدها!!) ٣٨

رہما تتعجب من تأثر الشعوب الأوروبية بالأدب والأدباء الذين يتمكنون من تغيير الحياة السياسية والاجتماعية بأفكارهم ورواياتهم التي تعد وقودًا دافعا للثورات التي حدثت فيها، وكذلك إذا أردت أن تعرف لماذا لا تتأثر شعوبنا بما تتأثر به أوروبا وشعوبها؟، ولماذا لا يكون للأدب وأهله في حياتها مكانة أوفوذ بحيث يستطيع أن يوجه ويوقظ وينهض.. فعلينا أن نوقن أن هناك فرقًا إما في الشعوب أوفي الأدباء.. وبعضهم يري أن الفرق في الأدباء لا في الشعوب، لأن الأديب هناك يقضي عمره في نضال وجهاد وعراك مع الدنيا والناس ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، (وما شرق مشرق أوغرب مغرب في دعوة وطنية أواجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب، ولا استبسل جبان أواستقبل شجاع إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أوكاتب

---

38- ساعات من العمر لعبد الوهاب مطاوع

أوخطيب) «كما أن الكاتب الأوروبي لا ينشئ قصة إلا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث، وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظرة الباحث المتعمق، فيعرف ما يحيط به من المعضلات الدوقية والاجتماعية والاقتصادية، فيكون لقصته مغزى مأخوذاً من أزمت النفوس والقلوب»(٣٩)

## كُتِبَ مُؤَثَّرَةٌ

وجدت الصبية الأمريكية (هاريت بيتشر ستو) رغبة في أن تكتب خواطرها وهي في السادسة عشر من عمرها، ولما بلغت السابعة والعشرين تزوجها عالم اللاهوت (كالفن ستو) ومنذ ذلك الزواج تحملت أعباء البيت وشؤون الأسرة وأنجبت من زوجها ستة أطفال، شغلوا كل حياتها، وفي غمرة هذا الانشغال، لم يتركها الحنين للقلم، فكانت تغتتم أوقات الفراغ لتسطر بعض ما تجد في نفسها من خواطر وأشعار ومشاعر ومقالات، ثم جدت لها فكرة بأن ترسل ما تكتبه للصحف المحلية التي شجعتها ونشرت لها واستجابت لكثير من رسائلها، ولم تستطع المسؤولية التي أنيطت بها من أعباء الحياة الزوجية أن تقتل أوقمت في وجدانها هذا الحنين إلى الكتابة.. لقد أخذ مع الأيام يكبر ويتعمق شيئاً فشيئاً..

وفي تلك الفترة من حياة أمريكا كانت تجارة الرقيق مشهورة ومشروعة في حق الزوج الذين سيقوا إلى أمريكا كرهًا.. كما بلغ الرجل الأبيض ذروته في معاملتهم بقسوة مفرطة وإذلال لا مثيل له، وكانت هذه الشريحة المعذبة تنتظر من القدر أن يمن عليها بهذا المخلص الذي يُزيل الكرب من حياتهم، ويضع حدًا لهذه الكارثة الإنسانية، وكانت هاريت أوكان قلم هاريت، هو ذلك المخلص الموعود الذي تحلم به مأساة العبيد الزوج.

كان السادة يقهرونهم ويعاملون على أنهم شيء لا حق له في الحياة، بل كانوا يعاملون حيواناتهم أرقى مما يعاملون به عبيدهم وفي ظل هذا الألم كانت هاربيت تستمع لمآسيهم وتنصت لقصصهم الدامية التي يرويها الناس ويتناقلونها من أمر هذه البشائع..

ومع ما تجد من الحنين إلى القلم ومع ما يعتمل في نفسها من الحزن على هذه الطائفة من البشر وجدت قلمها يسطر بحرقته محنة هؤلاء البائسين ويسجل بعض ما يجدونه من مرارة الحياة في قصصهم المروعة المفزعة كانت تكتب كل يوم فصلا من الفصول ثم ترويها على أولادها فتجدهم يتأثرون ومنهم من كان يبكي بحرقه لما يسمعه من أمه، وأمام هذا التأثير العميق من أبنائها تمت أن يتأثر المجتمع الأمريكي بما تكتبه فيتحرك لمحو هذا الظلم والعار من حياته.. ولما أتمت جزءاً كبيراً من كتابتها، أطلقت على روايتها اسم (كوخ العم توم) ونشرتها في حلقات مسلسل في مجلة واشنطن الأسبوعية (العهد الوطني) وأقبل الناس على قراءتها بشغف وتذوقوا معانيها حتى زاد توزيع الصحيفة التي تنشرها، ويوم أن أعلنت هذه الصحيفة أن الكاتبة ستوقف عن كتابة الرواية، ثارت جماهير القراء الذين بلغ عددهم أكثر من ١٠,٠٠٠ متظاهر أمام مبنى الصحيفة واقتحموا مبناها وطالبوا بنشر حلقات أخرى للكاتبة!

ثم تمت الرواية وصدرت منها الطبعة الأولى في جزئين عام ١٨٥٢م ووزعت بأرقام مذهلة حيث نفذت الطبعة الأولى بعد ٣ أسابيع

من صدورها ويقدر عددها بـ ٥٠٠٠ نسخة، ثم صدرت طبعة ثانية من ٢٠,٠٠٠ نسخة فنفذت هي الأخرى، ثم طبعة ثالثة من ١٥,٠٠٠ نسخة فنفذت كما نفذ الآلاف الأخرى بعد شهر واحد من صدورها، وفي أقل من ٣ شهور تم توزيع ٤٠,٠٠٠ نسخة، وهو حدث فريد في عالم الكتاب لم تشهده أمريكا من قبل، وأصبحت هاريت ملء السمع والبصر، وذاع صيتها وترجمت روايتها إلى أوروبا، وإلى ٧٣ لغة في العالم، وجاءتها أرباح روايتها فانقلبت بها من الفقر إلى الغنى..!

أما الزوج فإنهم نظروا إليها على أنها قديسة، وأنها المخلص الذي ينتظرونه، وكانوا يقبلون يديها، ويتزاحمون عليها لمجرد لمس ثيابها والاستماع لكلماتها الإنسانية الرحيمة..!

وفي نفس الوقت كان تجار الرقيق يسخطون عليها وعلى روايتها ويهددون بها بالقتل، لأنها فتحت أعين العبيد على نبرة جديدة في المجتمع ومعاني الحرية والتمرد التي تفسد عليهم تجارتهم وأموالهم، وكان ذلك تحديداً في ولايات الجنوب الأمريكي التي أصدرت قانوناً بمنع الرواية وحظر نشرها، ومن يمتلكها فهو خارج على القانون ويلقى أشد العقاب، ولكن الرواية كانت تتسرب سرياً، وكان هناك من يقرأها في الخفاء، حتى قامت الحرب بين الشمال والجنوب وكان من أسبابها الرئيسية تلك الدعوة التي قادتها هاريت بروايتها لتحرير العبيد وخلق أمريكا جديدة تحترم الإنسان وحقوقه، وفي ظل هذه الحرب التي فني فيها أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ ألف رجل يعلن (أبراهام

لنكولن) نداءه بتحرير العبيد من كل أمريكا ويدعوها هارييت إلى زيارته في البيت الأبيض ولما صافحها قال لها: ( إذن هذه هي المرأة الصغيرة التي أشعلت الحرب الأهلية في البلاد! )

وصدق فيما قال.. فروايتها أيقظت الضمائر، وأفافت المجتمع من غيوبته الحيوانية وردته إلى إنسانيته..!

في دروب الظلام وساعات اليأس الحالكة تأتي الكلمات لتشد من أذرك وتدفحك بقوة لتحقيق ما كان مستحيلًا أو كاد أن يكون مستحيلًا.. فإذا بهذا الوقود السحري يدخل ساحة المعركة ليكون أقوى فتكًا من أسلحة النار وقاذفات الجحيم..ومن هنا كانت خطورة الكلمة وروعة القراءة وقدرة المفكرين في قيادة الأمم.

كما كانت أمريكا على موعدٍ مع كتابٍ آخر، أو مؤثرٍ آخر جلب لها النصر وولد فيها التحدي، وكانت قصته أروع مثال لقصة الكلمة ودورها المؤثر في حياة الإنسان.

أرادت أمريكا أن تتحرر من تبعية الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وتنعم باستقلالها الذي سيوجد لها وطنًا جديدًا يُعلي من قيم الحق والعدل والمساواة.. ولكن انجلترا بلية العالم.. دأبت على النهب والسلب والاستعمار، ولم تكن تؤمن بهذه القيم التي تتطلع لها أمريكا.. حتى جاء كتاب (الأزمة) أو (تومس بين) البطل الحقيقي لاستقلال أمريكا..!

ولد توماس بين في إنجلترا لأسرة فقيرة عام ١٧٣٧م، ولما بلغ عمره الثالثة عشر بدأ يعمل أعمالاً شاقة حتى يُوفر المال الذي يحيى به ويساعد به عائلته الفقيرة فعمل أعمالاً كثيرة، منها بقال ومعلم وبائع للتبغ إلى محصل في الجمر، لقد كان وحيداً فقيراً.. عانى صنوفاً شتى من الحرمان والشقاء، شأنه في ذلك شأن الطبقات الشعبية الكادحة في المجتمع البريطاني الذي بلغ ذروته في الظلم والجور والطبقة اللعينة، كان بن واحداً من هؤلاء المعذبين الذين لا يجدون قوت يومهم، ولا يعرفون كيف يتحصلون على لقمة عيشهم في ظل مجتمع لا يشعر بهم ولا يرى وجودهم؟، إنه لا يرى فقط غير السادة المتسلطين من الأغنياء الأثرياء، هؤلاء هم الذين فقط يستحقون العيش بهناء ونعيم، وبقية الشعب يسحق وجوده وحياته من أجل بقائهم يُعاني الحرمان والتقشف ويذوق القهر والجور من أجلهم.

أخذ (بين) في هذا الوقت يقرأ كثيراً ويفكر أكثر.. وبدأ يسخط على ما حوله من أوضاع مهينة لا تليق بالإنسان، ورفض واستنكر كل هذه الصور الشوهاء التي جعلت حياة الإنسان أشبه بالغابة الموحشة التي يفترس الكبير فيها الصغير ويطغى القوي فيها على الضعيف!! العالم كله يتصارع لحساب الفئة الثرية الحاكمة، بينما يموت الناس ويحرمون من الحياة بعدما حرموا من العيش الكريم وراحة البال، كل هذا العنت وُلدَ إليه الرغبة ليرتك هذه الأمة الظالم أهلها، وكانت في بغيها نموذجاً للدولة العتية التي ملأت الدنيا ظلماً وجوراً فسرقت قوت الشعوب وأحلام الأمم.. كان عليه الرحيل إلى

أرض أخرى ووطن جديد ينشد ما تتوق إليه نفسه من أفكار ومبادئ، وكانت أمريكا هي الأرض الجديدة التي تعكس حلمه الأثير فالتقى فيها بجورج واشنطن وجيفرسون وغيرهما من دعاة الاستقلال والتحرر من التبعية البريطانية.. وسرعان ما أدرك هؤلاء أن (بين) هورجل المرحلة، وأن أمريكا أحوج ما تكون في هذا الظرف الراهن لقلمه ومبادئه وحماسه من أجل الحرية، لقد لمسوا فيه القدرة القوية على جمع الناس حول كلماته الساحرة الجريئة، وتحولتهم إلى قوة محركة تمحو الصعاب وتحقق الهدف المأمول.

(وهنا أصدر (توماس بين) أول كتبه في أمريكا بعنوان (الوعي العام) ودعا فيه إلى استقلال أمريكا عن إنجلترا، وإقامة جمهورية جديدة حرة تقوم على المساواة بين الناس واحترام حقوق الإنسان، وصدر الكتاب عام ١٧٧٦م وتخطفته الأيدي واجتمعت حوله العقول والقلوب، وأصبحت دعوة الحرية والاستقلال على لسان الأغلبية الساحقة من أبناء أمريكا، ولم يمض على الكتاب عدة شهور حتى أعلنت أمريكا استقلالها واشتعلت الحرب بين أمريكا وإنجلترا وكادت أمريكا تنهزم وتفقد هذه الحلم الموعود في الاستقلال .

وفي لحظات اليأس والخوف من الهزيمة، كان لابد لتومس بين من دور يرفع به حجب هذا الإحباط المروع حتى يبعث الأمل في النفوس ويجدد الفداء في العزائم، فإذا به يصدر كتابه الرائع تحت اسم (الأزمة) ووزع الكتاب على الجيش الأمريكي الذي يناضل من

أجل التحرير، وصدرت تعليمات عُليا بقراءة الكتاب على الجنود المحاربين، وكان للكتاب فعل السحر في نفوس المقاتلين الأمريكيين الذين يواجهون الانجليز، وانتصرت أمريكا في حرب الاستقلال بأسلحة كان في مقدمتها كلمات (توماس بين) الذي كان منها: (إني لست عديم الإيمان بحيث أتصور أن الله قد تنازل عن حكم الكون وترك مسؤوليته للشياطين، وحيث إنني لا أعتقد بذلك فياني لا أستطيع أن أرى الحجج التي يتمتع بها ملك انجلترا من الصلاة للسماء طالبا منها أن تنصره ضدنا، فإذا كان له الحق في تلك الصلاة، فإن القاتل وقاطع الطريق والمعتدي على البيوت الآمنة يكون لهم الحق في صلاة مشابهة).. لقد سرى كتابه في نفوس المقاتلين كالسحر الذي ألهب حماسهم وولد شجاعتهم وزادهم إيمانًا باستقلالهم الذي تحقق بعد انتصار عظيم..) (٤٠)

إن غزارة التأليف لا تعني بالضرورة قوة التأثير، خاصة إذا تركزت قوة التأثير في الأسلوب والإجادة الأدبية، وحيوية الموضوع وأهميته، كما نجد مؤلفين فاقت كتبهم المائتي كتاب، وليس معنى هذا أن كل ما كتبوه كان مؤثرا، وفي عالمنا العربي حاز الكتاب المصريون قصب السبق في هذه الغزارة فأليس منصور تقدر كتبه بنحو ١٤٠ كتابا ومصطفى محمود بـ ٩٠ كتابا ويوسف ميخائيل أسعد ٤٩ كتابا.. وعن نفسي فليست كل هذه الكتب مؤثرة وإنما يوجد بعضها مما لا تستسيغه نفسي ولا تتفاعل معه

40- راجع القصة كاملة في كتاب عباقرة ومجانين - رجاء النقاش بتصرف

وقد عاين العالم جملة من الكتب الهامة التي أثرت في الفكر البشري وغيرت مسار البشرية، وأضافت الكثير لرحلة الإنسان في الحياة، ويأتي على رأسها كتب التراث الإسلامي التي نهلت منها أوروبا، وكانت المصباح الذي أضاء لها الطريق وكشف عنها الغيوم ككتاب المقال لابن رشد والقانون لابن سينا، ومقدمة ابن خلدون الذي يعد رمزاً للعقيدة الإسلامية وأسس لعلم الاجتماع..!

لقد استكمل الغرب مشوار الحضارة بعد تراجع المسلمين وورثوا عنهم تركتهم التي كانت المنطلق لما وصلوا إليه اليوم من تقدم عظيم.. فمن الكتب المؤثرة والشهيرة مما سطره الغرب يأتي كتاب (النسبية) لأينشتاين الذي كان اللبنة الأولى للفيزياء الحديثة، وكتاب (أصل الأنواع) لداروين الذي أحدث ضجة كبيرة لاصطدامه بالمووروثات الدينية، وقد فرح به اليهود لأنه يكرس مفهوم العرقية لديهم، وكتاب (المباديء) لإسحاق نيوتن، الذي كان النواة الأولى للصحوة العلمية الفيزيائية والرياضية، واعتمد عليه كثير من المخترعين والمكتشفين في تحليل الظواهر الكونية، وكتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين؟) لديل كارينجي والذي قيل عنه: إنه أشهر كتاب بعد الكتب السماوية، وقد وضع ليكون مرجعاً عملياً لطلابه وغامر بعرضه في السوق مؤملاً أن يبيع منه ٣٠,٠٠٠ نسخة، فإذا الكتاب يباع منه على مدار ٢١ عاماً ثلاثة ملايين نسخة، ويطبع ٥٦ طبعة، ويصفه النقاد بأنه أوسع الكتب الجديدة انتشاراً، وكتاب الأمير للفيلسوف ميكافيلي وهو من أكثر الكتب التي

أثرت في الوعي الإنساني خاصة لدى المهتمين بالشأن السياسي، وتبنى فيه نشر ثقافة الغاية تبرر الوسيلة وهو ما وسمه بالسمعة السيئة، لكن يبقى تأثيره كبيراً في نظم الإدارة والحكم، وكتاب تفسير الأحلام لفرويد الذي يضم نظريات نفسية ويعد مرجعاً للمشتغلين بالطب النفسي، وكانت له تفسيراته العلمية للأحلام وتفسيرها النفسي.

وكتاب دور الأفلاك السماوية لكوبر نيكوس الذي أسهم في إطلاق علم الفلك الحديث وقلب النظرية السائدة بأن الأرض هي مركز الكون، وأن الأجرام السماوية بما فيها الشمس تدور حول الأرض ليثبت أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية والكواكب تدور حولها، وكتاب الجمهورية لأفلاطون الذي وضع الأسس والمبادئ الأولى للديمقراطية والفرضيات السياسية والأخلاقية، وكتاب ثورة الأمم لآدم سميث الذي كان باكورة الفكر الاقتصادي الرأسمالي العالمي، وغيرها كثيراً من النظريات الاقتصادية التقليدية إلى مفاهيم الاقتصاد الحر، ويستحيل أن لا يطالعه أي دارس أو مهتم بعلم الاقتصاد، وكتاب رأس المال لماركس وهو ثورة اقتصادية وعلمية واجتماعية، وتسببت دعواته في اختلاف عقائدي وحروب باردة استمرت لعقود، حينما أصبحت أفكار مؤلفه مذهباً سياسياً وأعطى تصوراً لمعنى التطور الصناعي للبلدان، ورأى أن الذي يحكم مسيرة الحياة هو المال والمادة وليس للدين فيها أي دور، وكتاب المبادئ الخمسة لكونفوشيوس، والذي ما زالت مبادئه حية في أعراف وأخلاقيات الشعوب الآسيوية، وكتاب التأملات لديكارت الذي أسس المذهب العقلي وأبطل خرافات

المذاهب الإغريقية.. وكتب كثيرة غيرها كان لها تأثير في عقول البشر وتحولاتهم الفكرية وقناعاتهم العقلية والأخلاقية..

ولعلي هنا لا أذكر كتب الوحي.. فهي ميدان آخر، والتأثير الإلهي شيء والتأثير البشري شيء آخر.. فالتأثير الإلهي معجز خارق، أما التأثير البشري فمحوط بسياج العبقرية التي هي من شأن البشر، ولا تعرف الدنيا كتابًا زلزل الأفتدة كالقرآن الكريم، ولم لا؟ والله تعالى أنزله لهذا الغرض فصنع أساطين البلاغة والبيان العربي الذين لم يتحملوا عذوبة آياته ورشاقة كلماته وركعوا أمامه منهزمين خاضعين، حتى ظنه بعضهم سحرًا وقالوا من أين يأتي محمد بهذه الكلمات؟! وعده بعضهم من فعل الحوادة ومن مجالب الجن، وقال سيد قريش وقتها: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلولا يعلو عليه..!

وهذا عمر الجبار يسحق أخته بقسوة فلما أبصر القراء.. خر جبروته، وخمدت ناره، وانهزمت قسوته، وتوهج فيه الإحساس وغسلت وجهه الدموع..!

يقول السيوطي: (وإن كتابنا القرآن لهومفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء وأبان فيه كل هدي وغي فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج، حكم الحلال والحرام والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه

والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والإعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب) ٤١

ولا يفوتنا المقام أن نذكر كتابًا من أهم الكتب التي أثرت في حياة المسلمين الروحية وهو كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الكبير (أبي حامد الغزالي) فلم يكن الكتاب مجرد مؤلف سطره صاحبه ليزين به رفوف المكتبات، أوليكون إضافة لصاحبه تضع قدمه واسمه بين المصنفين والمؤلفين الكبار..!

وإنما يعد هذا الإحياء من الكتب الرائدة في تاريخ الأمة الإسلامية وحياة المسلمين، حيث ارتقت مادته بالنفوس وعززت جانب الأخلاق وسمت بالروح ودفعت إلى التقوى والالتزام، والتحلي والقيم والفضائل، ومقاومة الشهوات والمغريات، والدعوة للرياضة النفسية، والتحميس إلى درب الروحانية.

لقد كان لهذا الكتاب مكانته الكبيرة، ولم يعرف مثله من المصنفات في التأثير على قرائه وسعة انتشاره، مما دفع الأجيال تلو الأجيال لاقتنائه والاستزادة منه، وقد أدرك علماء الأمة قيمة هذا المصنف العظيم

41- الاتقان في علوم القرآن - الجلال السيوطي ج ٢

فكان لهم فيه إشارات وإطراءات.. حيث قال النووي: كاد الإحياء أن يكون قرآنًا.

وقال (العراقي) في تخريجه للإحياء: إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفاثس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه)

قال عبد الغافر الفارسي: إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها.

قال أبو محمد الكازروني: لومحيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء.

قال عبد الله العيدروس: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره، فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة، ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها.

ومن كلامه: أنا أشهد سرًا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتمدين.

ومن كلامه: من أراد طريق الله وطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر

والباطن، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصًا (إحياء علوم الدين)  
فهو البحر المحيط.

عليك بإحياء العلوم ولبّها وأسرارها كم قد حوى من دقائق  
وكم من لطيفات لذي اللبّ منهل وكم من مليحات سبّت لبّ حاذق  
فكم من بديع اللفظ يجلي عرائسًا وكم من شمس في حماه شوارق  
معانيه أضحت كالبدور سواطعًا على درّ لفظ للمعاني مطابق  
بساتين عرفان وروض لطائف وجنة أنواع العلوم الفوائق  
قال علي بن أبي بكر السقاف: لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم،  
ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس.

وهوالذي أنشد فيه: لقد ذهب الشيخ (محمد مصطفى المراغي)  
رحمه الله ليعود الأستاذ الإمام (محمد عبده) في مرضه قبل أن  
يسافر إلى السودان لاستلام وظيفته في القضاء الشرعي هناك، فسأله  
الإمام (محمد عبده) ماذا أخذت معك في سفرك؟ فقال له: الإحياء!  
فقال الأستاذ الإمام: نعم الزاد في السفر.

ويحي لنا شيخنا الدكتور (يوسف القرضاوي) كيف كان للإحياء دورًا  
كبيرًا في ثقافته وصفاء روحه وتهذيب نفسه، حينما ارتبط به في وقت  
مبكر فيقول: ( كنت في الخامسة عشر من عمري بعد أن أنهيت

السنة الأولى من القسم الابتدائي بمعهد طنطا، وكان عندي نهم القراءة في غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر، وكانت قراءاتي في طنطا - خارج الدراسة - في كتب الأدب وخصوصًا أدب المنفلوطي في نظراته وعبراته ورواياته التي كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطي في دار الكتب بطنطا، شبه بالية لكثرة تقليبها في الأيدي.. أما قراءتي في قريتي (صفت تراب) فلم يكن فيها دار كتب، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده في مثل تلك القرى، وفي ذلك العصر، لهذا حين أردت أن أقرأ وجدت كتب التصوف هي المتاحة لي.. وشاء القدر أن يهيئ لي كتاب (إحياء علوم الدين) فقد كان يقتنيه جار لنا من نبهاء أهل القرى الذين كان لهم حظ من الاطلاع، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء، وكان تلميذًا لأحد مشايخ الطريق، ثم استقل بطريقة قوامها: العبادة والذكر ثم قراءة الإحياء، وشعارها الذي يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان ولا بد من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين!

فهذا ما جعل جارنا الشيخ (بيومي) رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب الإحياء، الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف، وخصوصًا: ربع المهلكات وربع المنجيات منه، مع تحفظي شخصيا على بعض ما فيه من غلو، ولم يكن ملائمًا لطبيعتي، ولكنني كنت متأثر بما فيه من رقائق، وترتعش جوانحي، ويتفرق دمعتي، وهذا دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله .

ولما رأني الشيخ بيومي حريصًا على الكتاب، تركه لي هدية، وقد بقي عندي حتى أتي اصطحبته معي إلى المعتقل سنة ١٩٤١م) ٤٢

وهناك قصة طريفة ذكرها الصوفية في بيان فضل الإحياء والتحذير من الإنكار عليه ونبذه والإعراض عنه فقد ذكر الياضي أن الشيخ الإمام الكبير (أبا الحسن علي بن حرزهم) الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب (إحياء علوم الدين) وكان مطاعًا مسموع الكلمة، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة، فرأى ليلة تلك الجمعة، كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبوي ﷺ فيه ومعه أبوبكر وعمر والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ؛ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: هذا خصمي يا رسول الله فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله، وإن كان شيئًا حصل لي من بركتك واتباع سنتك فخذ لي حقي من خصمي.

ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء، فتصفحه النبي ورقة ورقة من أوله إلى آخره، ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله الصديق فنظر فيه فاستجاده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفترى، فجرد وضرب، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق وقال: يا رسول الله

لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متأماً من أثر السياط وهويتضرع إلى الله ويتشفع برسول الله، إلى أن رأى النبي ﷺ دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفي وشفي بإذن الله، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه ونال المعرفة بالله، وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر.

ولم يسلم كتاب الإحياء من الطعن والإنكار على ما فيه، وهو من أكثر الكتب في تاريخ الأمة التي تنازع فيها الفريقان بين مباح وقادح، هؤلاء يرفعون قدره ويغالون في مدحه، وأولئك يغتالونه ويحطون منه ويأمرون بحرقه ويحرّمون النظر فيه، وقد تضمن الكتاب بعض الأغاليط والشطحات الصوفية، وجملة من الأحاديث الموضوعية والضعيفة، وهو ما أثار الثائرون عليه.. لكننا في هذا المقام لا نغالي بالكتاب فنزعه عن مواطن الخطأ ولا نهوي به إلى الأرض فنبخسه حقه، وإنما نسير فيه مسيرة أسلافنا من أئمة أهل السنة المشهود لهم برجاحة العقل واعتدال الإنصاف كابن تيمية والذهبي وابن كثير، الذين أشادوا بالكتاب وأقروا له أثره وقدره ومقام صاحبه، لكنهم في ذات الوقت لفتوا إلى ما فيه من أخطاء وثورات ولكنها لا تمنع مع العلم بها أن يستفاد منه..

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: (والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة)

وقال (الذهبي) في سير أعلام النبلاء: (فرحم أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول)

أما الإمام (ابن كثير) فقال في البداية والنهاية: (هو كتاب عجيب يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات)

## الأمم الواعية

بعض رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ارتبطوا بعلاقة خاصة بالكتاب والمثقفين، وكان منهم المهتمين بالأدب والثقافة وكان منهم المؤلفون وتعد خطب (ابراهام لنكولن) نموذجًا رائعًا للفصاحة وفن مخاطبة الجماهير، وكان لا يفتأ يقرأ ليل نهار لإيمانه المطلق أن القراءة هي المحرك الأول والأعظم للإدارة والطريق لسلامة قراراته، والرئيس (تيودور روزفلت) كتب كتبًا في التاريخ والسياسة، وكان (فرانكلن روزفلت) يحيط نفسه بنخبة من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين ويحب أن يقرأ التاريخ والروايات والتراجم.

وكيندي كما تذكر كتب التاريخ كان يقرأ بمعدل ١٢٠٠ كلمة في الدقيقة، وأن الرئيس (تيودور روزفلت) كان يقرأ يوميًا كتابًا كاملًا قبل تناول طعام الإفطار!

وكان الرئيس (جيمي كارتر) على دربهم ففي الحديث الذي أجراه معه الصحفي (هارفي شابيرو) محرر باب الكتب في صحيفة (نيويورك تايمز) بمناسبة صدور مجموعة لخطبه في كتاب بعنوان (حكومة صالحة مثل شعبها) لقد أظهر كارتر ولعه بالقراءة وحبه للشعر والأدب فقد كان طوال حياته قارئًا نهمًا، وكان يحب الشاعر (ديلان توماس) ويقول: أحب أن أمضي وقتًا ممتعًا في قراءة أشعاره وهي مازالت مفضلة عندي، وحصلت مؤخرًا على مجموعة خطب (ادلای

ستيفنسون) و(جون كيندي) وقد قرأتها كلها بعناية كبيرة.. ولما سأله الصحفي: هل تحب قراءة كُتَاب الجنوب مثل فوكنر ورائسوم فلانيري اوكتور وألين تيت ووكر بيرسي..؟ رد قائلاً: إن (فوكنر) هو أكبر كاتب قرأت له ودرسته وأقتني كل كتبه، وفي بعض المناسبات كنت أقرأ منها لأولادي بصوت عال، أعتقد أنه فعلاً كما ذكرت أنه حلل صفات الإنسان وصور الصراع بين الخير والشر، النجاح والفشل، الزهو والانحطاط أكثر من أي كاتب آخر، أما زوجتي فإن كاتبها المفضل هو كارسون ماك كوليرز، وفي سؤال آخر قال الصحفي: قلت في ترجمتك الذاتية أنك كنت تقرأ ثلاثة أو أربعة كتب كل أسبوع.. هل مازال يصدق عليك ذلك حتى اليوم؟

رد كارتر: لا أستطيع أن أقرأ هذا العدد من الكتب اليوم، ولعني أستطيع أن أقرأ كتابين كل أسبوع، فلا بد أن أقرأ أشياء كثيرة تفرض علي، وصلني الآن ملف كامل لمحادثات نيكسون-كسينجر-ماو-شو، وبطبيعة الحال لا يمكن اعتبارها كتباً ولكنها موضوعات لا بد من قراءتها..!

وعن واجب الحكومة نحو الكتاب قال كارتر: إن (ليونارد راندولف) رئيس برنامج تنمية الآداب والفنون يريد أن يكرس مائلاً أكثر من أجل الشعراء، ومائلاً أكثر من أجل المكتبات التي تعاني مشكلات عويصة هذه الأيام، حتى تستطيع أن تقتني كتباً أكثر للشعراء، وعندما كنت حاكماً لجيورجيا، كنت أهتم كثيراً بالكتاب والمكتبات، وكنا نقيم حفلاً

ندعو إليه كل الكتاب لتأكيد مدى تقديرنا لهم وتفهمنا لأدبهم.

نشر هذا الحوار في صحفنا بالعربية عام ١٩٧٨م بواسطة الأديب الكبير ثروت أباطة الذي ألقى الضوء على اهتمام أكبر رأس في أكبر دولة في العالم بالقراءة ومكانتها في حياته..وهو الاهتمام الذي يشير إلى ضرورة القراءة كعنصر فعال للمجتمعات القوية المزدهرة.

لا أعرف لماذا تعيش مجتمعاتنا وشعوبنا في غفلة عن هذا العلاج الفعال لكثير من مشكلاتها!؟!

في إبان الحرب الباردة (كلفت الحكومة الأمريكية خبراءها لدراسة سر قوة الاتحاد السوفيتي آنذاك وتفوقه العسكري والاقتصادي، وانتهت الدراسة إلى حقيقة واحدة: معدل ما يقرأه الفرد الروسي يفوق أضعاف معدل ما يقرأه الفرد الأمريكي، وإن هذه النتيجة تعكس ما للقراءة من أهمية ودور في بناء شخصية متكاملة ناضجة للمجتمعات إذ إن القراءة ليست فعلا ترفيا وإنما سلاح يحفظ للمجتمعات كرامتها وقوتها ويحفظ مكانتها وكيانها الثقافي بين الأمم وعلى المستوى الشخصي تؤدي القراءة دورا فاعلا في تنمية الشخصية الإبداعية من خلال تحفيز القدرات الذهنية كالتركيز ومهارات الاستذكار والتحليل القراءة - إن شئنا الدقة - ليست هذه وتلك فحسب إنها أكثر من حياة!.) ٤٣

وفي فيينا عاصمة النمسا.. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قام بعض المتسولين بالاستيلاء على كتب المكتبات المهجورة وبيعها بالطرق بالشكل الذي ترونه.. وبأبخص الأسعار.. لعدم ادراكهم قيمة هذه الكتب.. وبعد عدة سنوات لاحظ المثقفون في المدينة ازدياد ثقافة المتسولين بشكل لا يصدق.. ودخلهم بمحاجات ثقافية في ما بينهم في الطرق وقد بدؤوا يحسنون من كلماتهم التي يستخدمونها في ما بينهم.. وعندما تتبعوا الامر وجدوا ان هؤلاء «المتسولين» كانوا يقرؤون هذه الكتب التي يبيعونها لمعرفة محتواها والنداء بالاسواق بمحتوياتها لجذب المشترين..وقد تأثروا ايما تأثير بها

لقد كبرنا في أوساطنا وأوطاننا ولم نجد من يشجعنا أو يدفعنا نحو القراءة ويلهمنا بأهميتها وضرورتها لعقولنا ومستقبلنا فلا البيت ولا المدرسة ولا الأصدقاء..لم يكن أحد ممن يحيط بنا يلفتنا إليها وهي غفلة كبيرة وبلادة منقطعة النظر لم يجن الفرد من تبعاتها إلا التردّي والتراجع، أما الأمة فهي من أكبر بلاياها وأشد محنها..

يحدث هذا في الوقت الذي توجد فيه شعوب تصر على القراءة بل تدمنه..! لأنها فهمت وعرفت أنها أفضل وأهم وأسرع الطرق لنهضة الإنسان والمجتمع.. فقد حرصوا عليها وأكدوا على أهميتها في كل مراحل الإنسان العمرية بداية من الطفولة التي هي المرحلة الخصبة التي تمكنهم من غرس هذه الفضيلة، وإيماء هذه العاطفة القوية، مروراً بالشباب وانتهاءً بالكهولة.

وواقعا المشاهد يئن من خصومة عنيفة بين الشباب وبين القراءة، وبعضهم يعده عدوا لدودا لا يتعامل معه إلا في حدود دراسة مقرر أو الاستعداد لاختبار، ثم الويل له بعد ذلك.

وقد أجريت بعض الدراسات بهدف التعرف على معدل قراءة الشعوب في العالم، فكانت النتيجة أن معدل قراءة الرجل العادي الذي يعمل في المحلات والأعمال الحرفية ما يلي: في اليابان أربعون كتاباً في السنة، الفرد الأوروبي عشرة كتب في السنة.. في الوقت الذي كان معدل قراءة الفرد في الوطن العربي عشر كتاب، بمعنى أنه يقرأ في العام عشرين صفحة من كتاب تبلغ عدد صفحاته مائتي صفحة!

وإذا أردنا التحول لمجتمع المعرفة، فلا بد من العمل على تكريس حب القراءة واعتبارها هواية مفضلة، وهذا يتطلب جهوداً تربوية ضرورية بدءاً من الأسرة التي تتحمل مسؤولية رعاية الميول وتنمية الاتجاهات نحو القراءة منذ الصغر، مروراً بالمدرسة التي تتولى مسؤولية تعليم القراءة وتعزيز حبها في نفوس الناشئة ثم المجتمع بجميع مؤسساته التي تتحمل مسؤولية تشجيع القراءة وتيسير الحصول على مصادرها.

ومهمة البيت أن يقدم القدوة القارئة داخل البيت فحينما يشاهد الأبناء آباءهم وأفراد أسرهم يقرؤون، ويطلبون الكتب، فإنهم سوف يحاكونهم، وستعرف أيديهم طريقها للكتاب وتبدأ معه العلاقة، ومن هذه المحاكاة يحسن القيام باقتناء المكتبة المنزلية وتخصيص

مكان مناسب لها، كما نهتم بصالة الطعام وغيرها من مرافق المنزل.

قال أحد الشعراء الإنجليز: (قد تكون عندك ثروة ضخمة لا تساويها ثروة أخرى، تملأ بها الكثير من الخزائن، ولكنك لن تكون أبدًا أغنى مني.. فقد كانت لي أم اعتادت أن تقرأ لي) ٤٤

وكم يغمرني سرور كبير حينما أسمع عن معلم قدم لتلاميذه جائزة إن هم قرؤوا كتابًا حدده لهم وامتحانهم فيه، أوناذ قدم للشباب مسابقة بحثية في إطار كتب مختارة علمية كانت أو أدبية، أو جمعية جعلت من ضمن أعمالها ومناشطها تشجيع المجتمع على القراءة التي تدشن لها المسابقات والندوات والحملات، أو مؤسسة من المؤسسات عقدت مكافأة لموظفيها إن هم قرؤوا كتابًا يخدم تخصص أفرادهم ويدعم مسيرتها ويزيد من خبرتهم بالعمل ومتطلباته، ويطور آداءهم وإبداعهم وإنتاجهم.

نعم.. فكم تكون السعادة بالغة حينما نبصر مجتمعًا يعي رسالة القراءة في حياة أفراده، ومدى قدرتها على توجيه مساره نحو مقومات البناء وعناصر الازدهار، بل يدرك عمق تأثيرها في صياغة العقول والنفوس نحو الإيجابية والتميز.!

---

44- من مقال للدكتور عادل غنيم بصحيفة اليوم السعودية - تاريخ ١٠/١١/١٤٣٥ هـ  
عدد ١٥٠٥٧

تأمل معي هذه المبادرة الايجابية التي قام بها بعض أفراد المجتمع الانجليزي لتشجيع جماهيره على بذل المزيد من حب الكتاب والعناية بالقراءة والمطالعة.. ورغم أن الغرب عالم قارئ إلا أن هذه الدعوة تؤكد مدى وعيهم بضرورتها في حياتهم، وتمثل دعوة تحذير من نسيانها أو التغافل عنها!..

فوجيء بريطاني قبل أسبوع بوجود كتاب جميل وجديد في مقعده في الباص، وعبثًا حاول الرجل العثور على صاحبه ولكن دون جدوى، وبعد ثوان انتبه إلى عبارة غريبة على غلاف الكتاب الأخير تقول له: لا تسلم هذا الكتاب إلى قسم الأمانات إذا وجدته فهولك.. والتقطت شابة بريطانية رواية عندما جلست في المطعم، وفي الحال نادى على الجرسون قبل أن تطلب قائمة الطعام وقالت له: لقد وجدت هذا الكتاب على مقعدي، فضحك الجرسون وطلب منها أن تقرأ العبارة المكتوبة على ظهر الكتاب، وهي نفس العبارة التي كانت مكتوبة على الكتاب الذي وجده البريطاني في الباص!..

وبعد أسابيع اكتشف الكثير من البريطانيين كثيرًا من الكتب الجميلة المخبأة لهم في أماكن لم يتوقعوها مطلقًا، ولم يمض وقت حتى عرفوا الحكاية.

فقد دعت إحدى الجمعيات الأدبية ضمن حملة قومية لمكافحة المخدرات بين الشباب وقتل أوقات فراغهم، دعت كل كاتب ومؤلف وأديب إلى التبرع بكتاب واحد على الأقل من كتبه، واستجاب لهذه

الدعوة الكثير من الكتاب وجمعت خلال أسبوع واحد فقط حوالي ٣٠٠٠ كتاب، ثم قام فريق من متطوعيها بتوزيعها على مقاعد المقاهي والمطاعم ومقاعد الحافلات ومترو الأنفاق، وتضع الجمعية الكتاب على المقعد وتكتب عليه العبارة الشهيرة، لقد نجحت الفكرة ولاقت ترحيباً كبيراً من الشباب ومن الكبار أيضاً كما شجع هذا النجاح جمعيات أخرى لتنفيذ أفكار مشابهة في مساعدة الناس على القراءة وملء الفراغ، وبعد فترة قليلة من هذا العمل الجميل اكتشف أصحاب الفكرة في الجمعية الأدبية، أن الشباب يريدون القراءة ولكنهم يحتاجون إلى تشجيع وأفكار جذابة ومثيرة مثل هذه، كما أن بعضهم يريد فعلاً ملء فراغه بالقراءة ولكن الكثير من الكتب أصبحت غالية الثمن ولا يستطيع دفع ثمنها في المكتبات!

أما نحن فما أحوجنا لمن يحول ملء فراغنا ويقول لنا: هذا الكتاب لك. (٤٥)

بعض الدراسات أشارت إلى أن الناس في المنطقة العربية يخصصون أقل من ٦ دقائق في السنة لمطالعة كتاب، وهو استنتاج خطير يستدعي وقفة ودراسة من الجميع، لأنه مؤثر للأمية والانحدار، إذ لا يمكن للخير أن ينبت في مجتمع يهجر الثقافة والاطلاع إلى هذا الحد الرهيب!

أما الأمريكي فقدروا معدل قراءته ١١ كتاب، والانجليزي إلى سبعة

45- بتصرف من مقال خالد البسام بصحيفة الشرق الأوسط

كتب سنويًا.. ورغم هذا فقد استشعر الناس في أمريكا بالخطر في بعض الفترات، حين لمسوا قصورًا في ميدان القراءة، فانطلق ١٠,٠٠٠ متطوع إلى مدنهم وقراهم مزودين بـ ٥٠٠,٠٠٠ كتاب في إطار أنشطة مصحوبة بفعاليات لتشجيع القراءة استهدفت غير القراء لتحويلهم إلى قراء، وبالطبع وصلت إلى الناس والمؤسسات واعتمدت على التبرعات والدعم الكبير من الشخصيات المختلفة لكي ينجح المشروع، هذا غير الكتب التي تم إرسالها إلى مواقع القراءة الالكترونية وإمكانية تنزيلها مجانًا.

وفي بريطانيا أقرروا مشروع القراءة العائلية وتقوم فيه المكتبات المدرسية والعامية بجمع الأطفال وأولياء أمورهم ويتم تدريب الآباء على اختيار الكتب المناسبة لأطفالهم بناء على خصائص نموهم العقلي والنفسي.

كما قامت بريطانيا بإيجاد ٣٥,٠٠٠ مدرسة بها ١٠,٠٠٠ متجر لبيع الكتب ذات الطبقات الشعبية الرخيصة حيث يقوم التلاميذ بشراء هذه الكتب من مصروف جيهم ويبلغ متوسط مبيعات هذه المتاجر سنويًا نحو ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

(وفي أمريكا وبريطانيا تقوم المكتبات المتنقلة بنقل الكتب إلى المناطق النائية والمعزولة، وقد اتجهت المكتبات العامة إلى إيجاد هذه الوسيلة لتتمكن من خلالها الاتصال بمثل هذه التجمعات السكانية والقرى النائية لنشر الوعي الثقافي وقد تكون وسائل النقل

المستخدمة السيارة أوالعربة وقد يطلق على هذه المكتبات تسميات أخرى كالمكتبة الرحالة ومكتبات المعارض أوالعرض، والمكتبات المتجولة وباصات الكتب وقوافل الكتب وغيرها كما توجد المكتبات المنزلية التي تضم مجموعة من كتب الأطفال وتم وضعها في أحد المنازل الموجودة بالحي ويقوم بإدارتها مجموعة من الناشئة فيما دون العشرين ويطلق عليهم أمناء المكتبة، يضاف إلى هذا نوادي الكتب الأمريكية التي توفر مساحة للأمريكيين لمناقشة عديد من القضايا ذات الاهتمام المشترك للمتريدين عليها وبعض تلك النوادي يعد فروعاً لجماعات تتبنى قضايا سياسية أواجتماعية معينة تدافع عنها وترتبط بعضها بمراكز بيع الكتب الضخمة منها مثل (بيرنز أند نوبل) أو بعض المؤسسات المستقلة بالمدين الصغيرة لزيادة مبيعات الكتب، وفي الوقت ذاته إتاحة مساحة للنقاش والاهتمام الأمريكي بالحوار الاجتماعي حول الكتب، يشار إلى أن الكثير من هذه النوادي أنشئت عن طريق منظمات تطوعية غير ربحية تهدف إلى تشجيع الأمريكيين على استثمار أوقات فراغهم في القراءة لا سيما الأدب الأمريكي)٤٦

ويذكر الكاتب والروائي البريطاني (نيل قيماان) في محاضرة له نشرتها صحيفة (الجاردين) أن أصحاب تجارة صناعة السجون الخاصة في أمريكا - وهي صناعة مزدهرة هناك كما يذكر - يستطيعون معرفة

---

46 - صحيفة الرياض - الخميس بتاريخ ٤ رجب ١٤٣٦ هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٥ م  
- العدد ١٧١٠٤

عدد السجون التي يلزم بناؤها من الآن إلى ١٥ سنة قادمة وفقًا  
لإحصائية تقوم على حساب نسبة عدد من لا يقرؤون اليوم من  
الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والحادية عشرة!

## نحن وهم!

قال (موشي دايان) ردًا على منتقديه بسبب كشفه أسراراً عسكرية لحرب سنة ١٩٦٧م، إذ خطط أن يهاجم العرب بنفس الخطة التي اتبعها في سنة ١٩٥٦م في عدوانهم على مصر، فثار عليه القادة العسكريون واتهموه بالجنون، فقال:

اطمننوا فإن العرب لا يقرأون...

وإذا قرؤوا لا يفقهون...

وإذا فهموا لا يطبقون...!

ويقول العقاد: (إن القراءة لم تنزل عندنا سخرة يساق إليها الأكترون طلبًا لوظيفة أو منفعة، ولم تنزل عند أمم الحضارة حركة نفسية كحركة العضو الذي لا يطبق الجمود).

إن الغرب الذي تمرد على الدين والضمير.. ساد الدنيا وتحكم في مصائر الشعوب يوم أن احترم العلم، وقدّس الثقافة واحتفى بالكتاب وصادق المطالعة.. وما زالوا يدركون هذه القيمة، وتشب عليها أجيالهم، لتستمر قيادتهم وسيادتهم.

أما نحن فمهرجون عابثون، لا نألف غير الرتوع في الشهوات، والتلذذ بالمغريات، لا نشغل بغاية أو قيمة أو سيادة أو عزة، حتى صرنا ألعوبة في يد مَنْ لا يرحم.

تطالعنا كثير من الدراسات والكتب والمواقع بإحصاءات مؤلمة ومخجلة تظهر واقعنا مع الكتاب وتكشف الفروق الهائلة بيننا وبين الغرب في العناية بالقراءة، وتعري واقعنا العربي الذي ألف الجهل وأدمن خصومة المعرفة .

وهي أرقام تملأ قلوبنا غصة وحسرة على ما آل إليه حالنا وصارت إليه أمتنا، من هذا التزدي المفجع الكتيب، ورغم ما تُسببه من آلام وشعور بالخزي إلا أنني أضطر لذكرها فعسى أن يولد هذا الشعور بعضا من الغيرة تستحث القراءة أن تغزوحياتنا وتملاً عقولنا وأوقاتنا!!

\* الوقت المخصص للقراءة عند الطفل العربي لا يزيد عن ست دقائق في العام،

\* معدل ما يخصصه المواطن العربي للقراءة هو عشر دقائق سنوياً، في حين أن الإنسان الغربي يُخصص لها سنوياً ست وثلاثين ساعة!

كتاب واحد يصدر لكل ٣٥٠ ألف مواطن عربي، في حين أن النسبة في أوروبا هي كتاب واحد لكل ١٥ ألف أوروبي.

\* كل ٢٠ مواطن عربي يقرأ كتاباً واحداً، بينما يقرأ كل مواطن بريطاني ٧ كتب، وكل يهودي إسرائيلي ٧ كتب وكل مواطن أمريكي ١١ كتاباً.

\* يوازي عدد الكتب المطبوعة في العالم العربي منذ عهد الخليفة المأمون (منذ اثني عشر قرناً) وحتى صدور هذه الإحصائيات.

\* أكثر من ٤٠% من الراشدين العرب (٧٠ مليون نسمة) هم أميون، في حين أن السويد احتفلت عام (٢٠٠٨م) بموت آخر أمي فيها!

\* نسبة سكان العالم العربي إلى سكان العالم هي ٥,٥% بينما إجمالي ما تنتجه الدول العربية لا يزيد عن نسبة ١,١% من الإنتاج العالمي للكتب.

\* لا يترجم العرب جميعاً خمس ما يترجم اليونانيون وحدهم من الكتب، مع غياب الترجمات العربية العلمية والفلسفية.

\* عدد النسخ من الكتب المطبوعة في الدول العربية يتراوح بين ١٠٠٠-٥٠٠٠ نسخة مقابل ٨٥ ألف نسخة في الدول الغربية.

\* ٤٠٠ كتاب هوحجم الكتب المخصصة سنويا للطفل العربي، مقابل ١٣٢٦٠ كتاب للطفل الأمريكي، و٥٨٣٨ كتاب للطفل البريطاني، و٢١١٨ كتاب للطفل الفرنسي، و١٤٨٥ كتاب للطفل الروسي.

\* مداوات سوق الكتاب العربي بيعا وشراء لا تتجاوز ٤ مليون دولارا أمريكيا سنويا، في حين يصل هذا الرقم في دول الاتحاد الأوروبي إلى ١٢ مليار دولار.

\* إحصائيات عام ١٩٩٦ أشارت إلى أن كل ما تطبعه الدول العربية وبالغ عدد سكانها ٢٦٠ مليون نسمة لا يصل إلى نصف ما تنشره دولة إسرائيل التي لا يتجاوز عدد سكانها ٦ ملايين نسمة.

\* تنفق الدول العربية أقل من ٣,٠٪ من إجمالي الناتج القومي على عمليات توظيف البحث العلمي من أجل التنمية بينما تنفق الدول المتقدمة ما بين ٢٪ و٤٪ في هذا المضمار.

\* معدل نشر الكتب في المنطقة العربية هو ١٪ فقط، أي ما يعادل ثلاثين كتاباً لكل مليون مواطن عربي، بينما يختلف هذا المعدل كلياً في أوروبا وأمريكا حيث تصل معدلات نشر الكتب في الأولى إلى ٥٨٤ وفي الثانية إلى ٢١٢ لكل مليون ساكن.

\* الفرد العربي يقرأ ربع صفحة فقط في السنة، كل مليون عربي يقرؤون ٣٠ كتاباً فقط في السنة،

ينشر العالم العربي أقل من ٢٠٠٠ كتاب في السنة، كتب الطبخ تحتل الصدارة بنسبة ٢٣٪ على الإنترنت،

\* تم تحميل ١٥٠ كتاباً في عام ٢٠٠٩، مقابل ٤٣ مليون فيلم وأغنية في نفس العام، \* المطرب المصري تامر حسني يتفوق بضعفين على المتنبي ونزار قباني ونجيب محفوظ ومحمود درويش مجتمعين،

يحتل البحث عن كتاب في جوجل المرتبة الـ ١٥٣ من بين اهتماماتنا العربية، وأهم ٣ مواضيع يبحث عنها العربي في جوجل هي على الترتيب: الجنس ثم الطبخ ثم الفضاء

\*عدد الكتب الأجنبية المترجمة خلال ثلاثة عقود (١٩٧٠-٢٠٠٠م)  
٦٨٨١ كتابًا فقط.

وسواء كانت هذه الأرقام دقيقة من عدمه، فإننا نشهد في واقعنا تردّيًا ثقافيًا يُحتم علينا أن نوجه الدعوة لتلوا الأخرى لنلفت العقول إلى علة تأخرنا وتراجعتنا عن ركب الحضارة.. الذي تقدم فيه الغرب وبلغ أقصى طموحاته.. وفي أمريكا إعلانات تحض الآباء أن يشجعوا أطفالهم على القراءة وأخذهم للمكتبات لأنهم يعرفون أن العقول الممتازة تصنعها القراءة في الكتب والموسوعات، وأن معلومات الإنترنت والتلفزيون معلومات سطحية لا تصل حتى إلى قشرة الدماغ فضلًا عن تلافيه.

إن ثقافة القراءة ونشرها في المجتمع وحث الناس عليها لا تحتاج جهد الأسرة، أو جهد المدرسة، أو تشجيع المصلحين، وإنما تحتاج منا إلى صحوّة مجتمعية أو بمعنى آخر ثورة لتغيير هذا الواقع المر الذي يعاني هزيمة عقلية وفكرية، إنها أزمة تستدعي سرعة التدخل من كل أطراف المجتمع على المستوى الرسمي والنخبوي والشعبي حتى تنطلق أمتنا نحو المستقبل المشرق والنهضة الواعدة.

قد نكون بارعين في التقليد والمحاكاة والتشكل بصور وألوان لا تناسبنا، لكننا غير بارعين في تغيير أعماقنا وقناعاتنا التي هي الأساس لأي رغبة في التطور والنهوض.

سعدت كثيرا وأسفت أكثر حينما كنت مسافرا من مطار دولة عربية، وفي صالة الركاب وقعت عيني على مكتبة بين مقاعد المسافرين مليئة رفوفها بالكتب الهامة والهادفة، ولكن كما هوشأن شعوبنا ومواطنينا دوما لا قيمة للكتاب في حياتهم ولا تعني القراءة لهم شيئا.. ومن ثم لم أر أي مسافر أعارها اهتمامه أووقف يحل عينيه بمشهدها الفريد.. أما أنا فإن الكتب غايتي ومطلبي، وكان لهفي عليها قبل اختيار مقعدي وضبط حمائي.

وإذا كنا نشكر إدارة المطار على هذه الفكرة الطيبة واللمسة الرائعة في تقديرهم للكتاب ومعرفتهم بدور وقيمة القراءة، فإننا نتساءل ماذا فعل المجتمع العربي بكل مؤسساته كي يغرس هذا المعنى في نفوس المواطنين؟.. وأين دور الأسرة في تنشئة الأبناء على حب هذا العمل الذي يشكل العقول وينمي التفكير؟.. أعتقد أن فكرة المطار غريبة في مجتمع لا يعرف قيمتها أويلتفت لمعناها.. ولكن لا بأس فلتكن بداية لأفكار تشابهها في مدارسنا ومؤسساتنا وبيوتنا.. يقول ألبرت مانغويل: (إن القراءة هي مفتاح العالم)

وقال أحد الأطباء: ( كلما قرأت أكثر عرفت أشياء أكثر، وكلما تعلمت أكثر حققت إنجازا أكبر)

وقال أحد المؤلفين: ( نقوم بتعليم أطفالنا القراءة في المدارس، ولكننا ننسى أن نعلمهم حب القراءة )

وقال غيرهم: ( إذا أردت أن ترى منزلة أمة من الأمم من الحضارة وتقيس حظها من الثقافة فانظر إلى منزلة القراءة فيها وموضوعها من سلم اهتماماتها)

وشبيه به قول سقراط: ( إذا أردت أن أحكم على أي إنسان فيني أسأله كم كتابا قرأت؟)

وقال المفكر الروسي سولزر: ( القراءة فن الحياة الرائع)

وقال مونتين: ( أن تقرأ يعني أن تجد الصديق الذي لا يخونك)

وقال الرئيس الأمريكي جيفرسون: ( إن الذين يقرؤون هم الأحرار لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهما من ألد أعداء الحرية)، وهذا ما أدركه الغرب في معنى وحقيقة القراءة فكانت زادهم وهدفهم ومعنى حياتهم..

وبمناسبة السفر تحديداً فإنه أكثر الأعمال التي نشاهد فيها هذه الخيبة العربية، خاصة حينما يتصادف سفرك مع بعض المسافرين الأجانب الذين يشعرونها وينبهوننا برسائل غير مباشرة إلى قيمة القراءة، ولكننا غافلون عنها ولا نهتم بها، بل من الممكن أن نستنكرها وتتعجب من فعل أصحابها، فكم من مرة سافرت فيها ورصدت بعيني هذا المشهد..نحن غارقون في التفاهات بينما هم يقرؤون!

كنت مسافراً في رحلة أخرى وبينما أقضي وقت الانتظار، لمحت مشهداً يستحق التأمل..شاب وشابة من دولة عربية منهمكان في

القراءة والتأمل العميق لما بين السطور.. أعجبنى المشهد وهممت أن أصوره، لكنني استحييت أوتخرجت، وعزائي.. أن المشهد لا ينمحي من ذاكرتي ولا أدري لماذا؟ ربما ليكون تذكارةً أرثي به شباب أمتنا الذي يعيش في غيبوبة.. وبينه وبين القراءة شقاق بعيد.

يممت بصري يمينًا ويسارًا لأجد مثل هذه الصورة بين الجالسين من شبابنا العربي الذين ينتظرون الرحيل كما ينتظر هؤلاء.. لكنني للأسف لم أجد، فشبابنا يختلفون عن هؤلاء، وينشغلون باللهو والمرح والتنكيك والهرج، أو سماع الأغاني والأفلام في الحاسب والمحمول.

من هذه اللوحة البسيطة، أدركت كيف ساد الغريبيون واعتلوا عرش الدنيا، وتقدموا وتطوروا، في الوقت الذي تأخرنا فيه وتقهقرنا للوراء.

هذا السفر الذي هو قطعة من العذاب ونستعين فيه بكل ما يرفه عنا ويخفف من وعثائه، يستعينون هم بالقراءة لأن فيها راحتهم وترفيهم!

يقول الكاتب (عبدالله الجميلي): (لوقادتك الصدفه يومًا إلى رحلة دولية طويلة بالطائرة، فسوف تسجل ذاكرتك صورة ذلك المسافر الغربي أو الأوروبي الذي يقضي وقت الرحلة في مطالعة كتاب ورقي أو كمبيوترى، بينما المسافر العربي غالبا يفنى وقته في مطاردة المضيفة بنظراته أو يزعج جاره بشخيره وتنهدياته أو يعبث بلحيته أو بشنباته، أما القراءة فهي آخر اهتماماته على الطائرة أوحتى في كل تفاصيل

حياته !

يؤكد ذلك تقرير سابق صدر عن مؤسسة الفكر العربي حول التنمية الثقافية في الوطن العربي وفيه أن هناك كتاب يصدر لكل ١٢ ألف مواطن عربي، بينما هناك كتاب يطبع لكل ٥٠٠ انجليزي وكتاب لكل ٩٠٠ ألماني وفيه أيضا أن معدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز ٤% من معدل القراءة في إنجلترا!!!

كذلك ذكرت بعض الإحصائيات أن المواطن العربي يقضي في القراءة فقط ٦ دقائق في العام مقابل ٢٠٠ ساعة للمواطن في أوروبا وأمريكا).٤٧

ويخبرنا أحد الدارسين أن سيدة فرنسية كانت تدرس معه، فما أن بدأت فترة الاستراحة بين المحاضرات فإذا هي تخرج كتابا وتقرأه وهي تنتظر المحاضرة..!

أما أنا فقد قمت برحلة إلى تنزانيا وفي طريق عودتي إلى مصر، تحملت عناء ٨ ساعات طيران لأقطع نصف القارة الأفريقية جواً وفي جوف الطائرة آملت أن تلفحني سنة من النوم، فلا أستيقظ إلا في نهاية الرحلة.. ولكن لا ضير فحتى لولم يأت النوم، فلتكن القراءة بديلاً عنه.. وحينما صعدت إلى الطائرة وجدت كثيراً من المصريين

---

47- من مقال بين الشخير والقراءة - عبدالله الجميلي - صحيفة المدينة ٥  
٢٠١٥/١٢/

والسودانيين، وجاء مقعدي بجوار فتاة أوروبية شقراء كانت تقرأ كتاباً تقبض عليه بيديها وكأنها تقبض على كنز ثمين.. أعجبتني مشهدها وهي تقرأ وكنت أرقب تفاعلها مع الكتاب فهي مستغرقة في القراءة وتتفاعل ملامحها وتقاطيع وجهها مع السطور، فإذا ما قرأت طرفة ضحكت، وإذا ما قرأت غريبة دهشت، لا تحيد عينيها مئة أويسرة.. ما هذه الصلابة الفولاذية، في القراءة وعشق الكتاب؟

لقد مرت خمس ساعات وهي لا تعباً بمن حولها وما حولها ولا ترى غير الكتاب بل سطور الكتاب.. وأمام هذه الفترة الطويلة لا أذكر أنني في يوم من الأيام واصلت القراءة بمثل هذا الوقت كما فعلت هذه الفتاة.. التي فجرت في نفسي ينابيع الغيرة، فلا أراني إلا وأخرجت كتابي من حقيبتى لأسابقها في هذا التحدي.. نعم لابد أنني أسابقها لأعرفها معنى القراءة الحقيقية.. بل تزايد عندي هذا الشعور ليتحول إلى صراع بين الشرق والغرب ولن أترك الغرب إلا سريعاً مجندلاً.. وواصلت أقرأ وأقلب الصفحات، صفحة تلو أخرى ثم أسترق بعض النظرات إليها، عساي ألمح على وجهها بوادى السأم والهزيمة.. فأشعر بتحقيق النصر، ولكني كلما نظرت إليها أراها على حالها هائمة مستغرقة في القراءة حتى خيل إلي أنها فارقت الحياة وأن مشهدها أمام الكتاب لا يعدو مشهد سليمان عليه السلام وهو متكيء على عصاته، ولم تعرف الجن وفاته إلا حينما أكلتها الأرضة فانكب بوجهه على الأرض.

ظننت ذلك، ولكن هاهي تفعل بعض الحركات وتصدر بعض الإنفعالات التي تشير إلى استمرار الحياة فيها.. فكيف لي إذن أن أصارع هذه التي لا تمل؟، إن عزمها جسور لا أستطيع غلبته، كيف لي أن أقف الساعات الطوال متجمداً أمام الكتاب مهما كان حبي وعشقي له؟.. إنني وبكل أسف أعلن هزيمتي وأرفع الراية البيضاء أمام هذا الصمود الرهيب.. ولكن هزيمتي لم تكن بالهزيمة اليائسة المحبطة، لأنني تعلمت منها كيف أثابر مع الكتب، وكيف يكون الكتاب صديقاً وأنيباً وجليساً بمعنى الكلمة، بل ومعشوقاً لا أبصر معه غيره من هذا العالم.. كما أنني عرفت لماذا تأخرنا وتقدم الغرب!.

وقديماً تحدث (سلامة موسى) عن عناية الإنجليز بالكتاب وتفوقهم في ذلك عن أمريكا فيذكر (أن الشعب الإنجليزي يفخر بأنه لا يزيد على خمسين مليوناً - في ذلك الوقت- ومع ذلك يزيد عدد الكتب التي تطبع في بلاده على ما يطبع منها في الولايات المتحدة، وله كل الحق في هذا الفخر؛ فإن شئون الذهن من الاهتمامات الأصلية عند الإنجليز المتعلم، ورف المكتبة في البيوت الفقيرة له حرمة المكتبة في البيوت الكبيرة، والسيدة الإنجليزية تقنتي الكتاب كما لو كان تحفة تحتفظ به كنزاً بعد أن تقرأه ثم تتركه ترائناً سامياً لأبنائها.

إن وجودنا يكبر في الدنيا بالكتب، تلك الكتب التي تصل بيننا وبين الأمم القديمة قبل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ، وتلك التي تكشف لنا عن النجوم أكبر الأجرام وعن الذرة أصغر الأجرام في

هذا الكون، وتلك التي تقص علينا قصة الإنسان، بل قصة الأحياء، كيف تألفت جزيئاتها مثل الفيروس ثم ارتفعت حتى صارت خلية مثل الأميبة؟، وتلك الكتب الأخرى التي تُغني لنا بالأشعار عن أسمى الأفكار، وأخيراً تلك الكتب التي تلهمنا وتولد في أذهاننا بصيرتنا التي نكاد نشرف بها على الكون، نرى ما خفي منه ونفهم ما التغز.

أجل، يجب ألا يشغلنا التفكير العادي في شئوننا اليومية عن التفكير الذهني في شئون المجتمع والطبيعة والكون، والسبيل إلى كل ذلك.. هو الكتاب الذي يؤلفه لنا المخلصون من الكتّاب الذين ينشدون ارتقاءنا وتطورنا.. ليكون للكتاب مكانه المحترم في كل بيت متمدن كي تدخل الإنسانية المثقفة في رؤوس سكانه.. وبيت بلا كتب هوبيت واعر في الجهل يجب أن نخشى سكانه ونتجنبهم، أو بالأحرى يجب أن نتقرب إليهم ونربيههم.)

ومن بعده تعجب شيخنا الغزالي من حال أمتنا التي هجرت الكتاب والقراءة حين قال: (والغريب أن الكتاب ليس له موضع عتيد في البيت الإسلامي، مع أننا الذين علمنا الغرب كيف يقرأ ويتثقف؟! ينبغي أن تكثر الكتب العلمية والأدبية والتاريخية والدينية في بيوتنا، وأن يكون الكتاب سفيراً متجولاً في عواصم العالم يعرف بنا ويحدث عنا).. ٤٨ ولله در القائل: ( يقال إذا أردت ألا يسرق منك شيء ضعه في كتاب فهذه الأمة لا تفتح كتاباً!)

وأمام هذا الانحدار.. وأمام إدراك هذه القيمة العظيمة، مازلنا مقيدين لا نتحرك ولا نشور لخلق هذا الاهتمام العملي بالقراءة، ولا نجد من يتبنى دعوات صادقة لدفع المجتمع كله إلى حب القراءة واقتناء الكتاب كما تفعل الأمم الأخرى؟!!

في عام ٢٠٠٣م أشارت إحدى الدراسات الحديثة إلى أن ٥٠% من الفرنسيين عزفوا عن شراء الكتب واتجهوا للإنترنت للحصول على المعلومة والمتعة.. فماذا حدث إزاء هذه النتيجة الخطيرة؟ لقد تنبه المسؤولون وقامت الدنيا ولم تقعد، وكان التحرك السريع لعلاج المشكلة، حيث سارع وزير الثقافة الفرنسي وأعلن حالة الطوارئ، وفي مبادرة تبناها ومعه كبار الكتاب والمؤلفون بحكم مسؤوليتهم المجتمعية ومسؤوليتهم نحو المعرفة، نزلوا إلى الشوارع وذهبوا للحدائق العامة والمراكز الثقافية والمكتبات العامة يقرؤون ويتحدثون مع الناس عن القراءة والكتب في مهرجان أسموه (مهرجان جنون المطالعة)

# الإرث المهذور !

كثيرون يلهثون وراء إرث آبائهم.. إذا كان من المال أوالعقار أوالذهب والفضة.. لكن الإرث الحقيقي والذي لا يقدر بثمن هوالكتاب والمكتبة، فهل فكر الآباء في إرث أبنائهم؟! وتأمين حياتهم العقلية والروحية كما أمنوا حياتهم المادية، ولله در القائل: المال يفنى والكتب تبقى..

يقول الدكتور (راغب السرجاني): ( المكتبة التي تكونها تعد صدقة جارية من الصدقات العظيمة الجارية، لأنها تنفعك وتنفع أولادك.. وربما أحفادك وأحفادهم بعد ذلك )

ذكرت الثرثرة التشيلية الفنانة (إيزابيل الليندي) في كتابها الأليم (باولا) أنها عاشت في بيت مليء بالمشكلات مما أدى إلى انفصال والديها في وقت مبكر، فعاشت في بيت جدها لأمها، والذي كان مجرد النطق فيه باسم والدها من المحرمات !

وذكرت أن قبوييت جدها كان مرمى لكل الخردوات والأساس المكسور، وجمع الأشياء التي لا حاجة لبقائها في المنزل، وكان مكانا موحشا حتى أن الخادمت كن يخشين النزول إليه خوفا من الأشباح!

وحتى تحطم هذا الرعب الذي تولد في نفسها نزلت إلى هذا القبويوما بحثا عن هذه الأشباح المزعومة، لكنها لم تجد أشباحا، وإنما وجدت من ضمن الأشياء التي هناك صندوقا منقوشا عليه

الحروف الأولى من اسم والدها، ففتحته فكان به مجموعة من الكتب القيمة، قالت عن ذلك الصندوق فيما بعد: إنه ميراث خرافي أضاء سنوات طفولتي..!

ولكن أتى للآباء اليوم أن يدركوا قيمة الكتب في حياة أبنائهم وأنى لأبناء اليوم أن يقدروا مثل هذا الإرث الثمين لو تركه لهم آباؤهم؟!!

ما أتعس أن يرحد هذا الراعي صاحب اليد الحانية الذي يصبّح كتبه ومكتبته كل يوم، يسأل عن أفرادها ويعود مجموعاتها، ينفذ عنها الغبار، ويجلي الصفحات، ويصفها بأناقة، وينظم أحجامها، ويفرق بين أنواعها ويزود نقائصها، ثم فجأة يموت ويرحد عنها ليرتكها بين من لا يعرفون قدرها ولا يثمنون قيمتها.. ربما يثمنون قيمتها عند الوراقين وبائعي الخردة والكتب القديمة، حينما يجعلونها شيئاً لا قيمة له في بيتهم بعد أن كانت سيدة البيت وأهم ما فيه في مزاج سيده، ولكن هذا السيد العطوف رحل عنها ليرتكها هملاً ليد المعتدين..!

وهذه المأساة ليست نادرة ولا غريبة يكفيك أن تذهب لأسواق الخردة أو شركات إعادة تدوير الورق لترى بعينك هذا التراث المهذور والإرث الضائع، كتب ثمينة قيمة وبتوقيع أصحابها لم يقدرها ورثتها تباع بثمان بخس ولا يدرك الكثيرون قيمتها.. وربما نتحدث ونشجب غفلة هؤلاء الآباء الذين لا يعلمون أبناءهم حب القراءة، لكننا أمام هذه الكارثة نحتاج إلى تعليمهم شيئاً آخر وهو احترام هذا الإرث الثمين الذي لا يقدر بمال، وتعليمهم أن الكتب في البيت لا تقل

أهمية عن أثار الحياة إن لم تكن أهم منه وأكبر وأعظم قيمة!.

يقول الكاتب أحمد سماحة:(تذكرت ما حدث في العراق أثناء الغزوالأمريكي وما بعده عندما أضحت الساحات في شارع المتنبى وغيرها مليئة بالكتب الملقاة على الأرصفة ولا تمد إليها يد في حين سرقت السيارات والبيوت ونهبت المتاجر!!

وأيضاً وأنا أتجول مؤخراً في جناح سور الأزبكية بمعرض كتاب الإسكندرية، اقتنيت بعض الكتب التي أهداها مؤلفوها من المشاهير والكتاب أمثال طه حسين والعقاد ومحفوظ إلى أصدقائهم لهم، وباعها الورثة بعد وفاتهم أو هجرتهم إلى تجار الخردة والروبابكيا.. وباعها هؤلاء بدورهم إلى تجار الكتب وبأبخس الأسعار، وتلمست ذلك من الثمن الذي اشتريت به تلك الكتب.. ولعل تغريدة: بيت بلا مكتبة هومقبرة أضحكنتي كثيراً، فبعض أصدقائي ومعارفي يطلقون على بيتي مقبرة لأنه مليء بالكتب.. وأقول لكاتبها: كم كتاباً تملك؟! ٤٩ والشاعر الكبير (عبد الرحمن صدقي) صاحب ديوان (حواء والشاعر) وأحد أصدقاء العقاد وتلاميذه، لم يكن له ولد ولم ينجب أو تكون له ذرية.. وكان يعلن أنه سعيد بذلك حتى أنه قال يوماً للأستاذة عايذة الشريف: هل تعرفي ما هو أروع عمل قمت به في حياتي..؟! إنه عدم الإنجاب.. إنني حتى الآن حر طليق أستيقظ في الوقت الذي يحلولي.. أدور حول فيلتي الصغيرة صباحاً ومساءً.. 49- من مقال بصحيفة اليوم السعودية تحت عنوان ( اليوم العالمي للكتاب.. وقفة)

أستنشق الهواء الذي لم يشمه أحد قبلي أرنو إلى البراعم وهي تتفتح،  
أداعب كلاي، أقرأ وأتشاءب دون انشغال على ولد نجح أورشب سافر  
أم بقي.. تزوج أم طلق.. إنها الجنة على الأرض حقًا..

ولعل هذه الفلسفة مقبولة بعض الشيء وإن كانت تخالف الفطرة  
والحنين إلى الولد، ولكن هناك أناس يعشقون الحرية إلى أقصى  
حدودها ولا يفضلون عليها شيئًا من متع الحياة، ويقدر هذا العشق  
فإنهم يبغضون القيود وكل ما يجبر إليها حتى ولو كان متعة أو شهوة..  
!

ورغم هذه السعادة الكبيرة التي ترجمها الشاعر الكبير في فلسفته إلا  
أن الكتب كانت هي الشيء الوحيد الذي حزن من أجله على عدم  
الإنجاب وكانت مكتبته الثرية الثمينة هي التي ردت به إلى طبيعته  
وكفر بسببها بفلسفته وراحته في عدم الإنجاب حيث قال يومًا: )  
هذه المكتبة لو كان لي ولد يرثها عني لصانها من الضياع وقام عليها  
وانتفع بها ونفع )

ثم تأمل حينما كان يلح عليه خاطر الموت.. إنه لم يكن يفزع  
أويخيفه وإنما كان يخيفه شيء آخر لا يغيب عن الكتب فيقول: لم  
يكن خاطر الموت يفزعني، وإنما كان يحز في نفسي أن أموت قبل  
أن أشفي غليلي من القراءة.. إن خزائن كتبي زاخرة بعشرات المئات  
من المؤلفات المختارة في أكثر من لغة ولم تترك لي الوظيفة فسحة  
من الوقت لدراسة الجزء الأكبر منها.. لقد اقتنيت معظمها بالشراء

من مخلفات من سبقوني إلى دار الفناء وسرح بي خيالي فتخيلت كتبتي بعد موتي مبعثرة في أسواق الوراقين تتناقلها أيدي الباعة من أنصاف المتعلمين وتطرح في كل مكان مطارح الهوان..أما كان أولى لوأوصيت بها لدار الكتب حين كان في العمر متسع..

أخبرني يوما مسؤولي في العمل أن في المخزن أكثر من ٢٥ كرتونة مليئة بالكتب، اعترتني ساعتها أمواج من الذهول والشرود والتوهان وهي الحالة التي تصيبني حينما تذكر أمامي لفظة الكتب فأصير إلى غيبوبة وكأن هناك من يحدثني عن ذهب أوكنوز نزلت من السماء.. تسمرت في مكاني ثم قلت له أعد علي ما قلت:ما القصة تحديداً؟ قال لي: إن خالي كان من علماء الأزهر ومن معلمي اللغة العربية القدامى، وهو الآن مريض مرض الموت وممتد على فراشه لا يستطيع حراكاً ولا كلاماً، وضاق أبناؤه بكتبه وأرادوا أن يتخلصوا منها بحرقها أوالذهاب بها إلى أحد المساجد، فطلبت منهم أن يأتوني بها لعلي أجد من ينتفع بها..وقبل أن يكمل كلامه ويشرح قصته تركته مهرولاً إلى المخزن حتى أرى هذا الكنز الثمين والذي لا يقدر بثمن وحينما وقفت بين هذه الحاويات الضخمة وشاهدتها بعيني كنت أنظر لها وأشعر أنني كمن غمس في النعيم، بل أنا تمامًا كعلي بابا الذي دخل مغارة الأربعين حرامي فوجد فيها الكنوز المبهرة وهو يردد بأعلى صوته:(ذهب - ياقوت - مرجان) وبعد هذه المنحة ظللت أسبوعاً كاملاً، حينما أنهيت من عملي أنزل إلى المخزن المليء بكنوز الفكر والأدب واللغة أنتقي منها ما لذ وطاب حتى جمعت كتباً

عظيمة أفادتني فائدة كبيرة، وكان منها كتباً لم تعد تطبع ونادرة كما يقولون ندررة الكبريت الأحمر، ومع كل كتاب قيم كنت أستخرجه كنت أشعر بسعادة غامرة لأنه أصبح لي ومن مقتنياتي وفي الوقت نفسه كنت أتحسر على هؤلاء الورثة الجهلاء المغافيل الذين لم يبروا أباهم في أعز ما كان يملكه، والذي لو قدر له أن يعود لعالم الوعي مرة أخرى ليرى ما فعلوا بمكتبته، لأعلن براءته منهم وطردهم من حياته كما طردوا أحبته، كما كان لدي إحساس بأن روح الرجل معذبة لهذا التفريط الكبير وكنت آمل لتوصل إليه رسالة مني لأقول له: جزاك الله خيراً على هذا الكنز الثمين الذي ذهب لأهله ولم يضع هباء فلا تحزن أو تضجر، ولتسكن روحك هادئة مطمئنة، لقد فرط الأبناء في إرث أبيهم، والحق الذي أراه أنه شفاه الله كان أول المفرطين، واللوم عليه ابتداء قبل أن نلوم أبناءه، لأنه لم ينشئهم على حب الكتاب وعشق المكتبة، والحفاوة بالثقافة والمعرفة، ومن هنا رأوها حشوا زائداً في بيتهم لا قيمة له ولا مكانة، فسارعوا بعد مرضه للتخلص منها والقضاء عليها وإفنائها، ولولا أن قريتهم طلبها منهم لكان مصيرها إلى مقالب القمامة.. وأمام هذه الأسرة التي استهترت بالمكتبة والكتب وطردتها من بيتهم واعتبرتها حشوا زائداً لا قيمة له، أمثل هذه الأسرة التي حكى التاريخ عنها حينما فرت من الموت المحقق وهي تحمل كتبها قبل أرواحها لأنها أعز ما تملك في الحياة وأتمن ما لديها في الدنيا..!

ماذا بك لوبليت في موطنك الذي نشأت فيه، وترعرع على ترابه

صباك وشبابك، لا شك أنه بلاء أليم فللوطن في النفوس حب عظيم ومكانة سامية لا تعدلها مكانة..ولكن لا مفر من هجرها والفرار منها حينما تكون مرتعا لغارات المعتدين والمحتلين الغاصبين يحتلونها وينهبون أهلها ولا يبقون فيها حياة ولا أحياء! وأمام هذا التهديد الوشيك والهلاك الأكيد لا يجد الإنسان أمامه أي اختيار، فإما أن يبقى في وطنه الحبيب ليفقد حياته ويعرض نفسه لسيف المغتصبين وإما أن يهرب بها لحياة جديدة، وهو ما فعلته أسرة الإمام ابن تيمية رحمه الله، التي كانت تسكن وتقيم في بلدة (حران) حين تعرضت لهذا البلاء على يد قوم ما عرف التاريخ أبشع ولا أقسى ولا أفجر منهم في هدر الأرواح والتنكيل بالنفوس. كان العالم الإسلامي كله في تلك الفترة يرتجف من التتار الوحوش، وحينما كان الإمام ابن تيمية في سن السابعة أغار التتار على بلدته فرأت أسرته أن تفر إلى الشام خوفاً من هذا الهلاك المحقق والوشيك، وفي ظل هذا الفرع وهذا الوضع الصعب لا يملك الإنسان إلا أن يفكر في نفسه فقط، كيف ينجوبها ويسلمها من هذا الخطر؟ فلا قيمة للبيوت والأطيان والأموال أمام نجاة الروح وسلامة النفس.. لكن أسرة ابن تيمية وأفرادها المباركين، كان لهم رأي آخر حينما رأوا أن لديهم شيئاً لا تستغني عنه أرواحهم ولا تستمر بدونه دنياهم، ألا وهو كتبهم!! فهي تراثهم الذي يعتزون به ويعدونه أثمن ما يملكون من متاع الدنيا، فلم يرضوا بفراقها والتخلي عنها في ظل هذا الظرف العصيب والمخيف، فقااست من حملها والسير بها، وعانت في سبيل

ذلك صعوبة كبيرة، خرجوا بها ليلاً يدفعونها بأيديهم لعدم توفر الدواب، وأمام هذا الزحف البطيء، أدركهم التتار ولكن الله تعالى كتب لهم النجاة منهم حينما تضرعوا إليه متوسلين مستنجدين..! ما أروع هذا المثال لأسرة عشقت الكتب، هذا العشق الذي امتحنوا فيه بمحنة شديدة حتى تبين صدقه وتمكنه من نفوسهم، لقد قبلت الأسرة أن تهجر موطنها الذي أحبته لكنها أبدا ما قبلت أن تهجر مكتبتها التي تمثل لها المعنى الحقيقي للحياة، ولو أن أي إنسان وضع في محنة هذه الأسرة فلن يعبأ بالكتب ولا بأضعاف مثلها مهما كانت أثيرة عنده أمام هذه الهلع الكئيب ورائحة الموت التي تفوح في كل مكان، فلا شيء يعادل النجاة بالنفس وليس للإنسان أعلى من حياته، لكن أسرة ابن تيمية، وضعت معادلة أخرى، وكانت حالتها عجيبة في عشق الكتب التي ساوتها بأرواحها..! وحق لهذه الأسرة التي تقدر الكتب بهذا القدر العظيم، أن يخرج منها هذا الإمام الكبير الذي دوى سمعه في الآفاق، وانتشر علمه في بقاع الدنيا شرقاً وغرباً، فهو الذي قال عنه (الزملكاني) من أئمة عصره: (قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله.. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه، ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع فيه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها إلا فاق فيه

أهله والمنسويين إليه، وكانت له اليد الطولي في حسن التصنيف).  
وهكذا عشقوا كتبهم فكادت أن تهلكهم، ولم يستطع هذا الخوف  
الكبير أن يقتل هذا العشق الذي تلبس بالنفس ففروا بها قبل أن  
يفروا بأرواحهم!

## الأقلام المنقعة

فيما دون العشرين قرأت للشيخ الغزالي رحمه الله، وكلما انتهيت من كتاب شرعت في غيره حتى أوشكت أن آتي على كل كتبه..لقد كان أسلوبه رائعًا رائقًا، ملك علي جوانحي، وسيطر على مشاعري، ولامس أحاسيس نفسي..

إن روعة الشيخ الغزالي وعبقريته هي التي جعلت فتى في هذا السن، يمسك بكتبه ويفهمها ويستوعب أفكارها ومراميها..والذين لا يهوون الأدب، يستطيعون تذوقه حينما يطالعون أسلوب الشيخ الغزالي.

وحينما مثلت بين يدي كتب العملاق العقاد، جافتها نفسي، وفرت منها عواطفني، بخلاف كتب الشيخ الغزالي!! فقد كنت مغرما بها غراما عظيمًا.. وإذا ما عقدنا مقارنة بين الرجلين، فإن العملاق على قدره الرفيع، وهامته الضخمة، لا ينال الحظوة في نفسي كما ينالها الشيخ الغزالي، فالعقاد قد اهتم في كتاباته بالنظر الفكري والصيال العقلي..وهونفس ما كان يفعله الشيخ الغزالي إلا أنه زاد على العقاد باهتمامه بالعاطفة والوجدان..اللذان كان يسيطر بهما على مشاعر القراء، فيعيشون معه قضيته التي يتناولها..وليس من شك في أن انتماء الشيخ الغزالي للأزهر الشريف، يعد مفخرة له ولرجاله..حتى

أن بعضهم دهشوا حينما علموا أن صاحب هذا القلم الفتى، والبيان القوي، والأدب الشجي، شيخ معمم وواعظ أزهري..

وكان شيخنا (يوسف القرضاوي) واحدًا من هؤلاء الأزهرين الذين دهشوا حينما عرفوا هذه الحقيقة فهو يحدثنا عن الشيخ وأسلوبه فيقول: (كان الغزالي يكتب في مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية في باب ثابت تحت عنوان: (خواطر حرة) وكان يشدني إليه فكره الثائر، وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر.

فقد كنت أرى فيه إلى جوار كونه داعية.. أديبًا من الطراز الأول، وكان الأدب والشعر في تلك المرحلة هوشغي الشاغل، ومحور قراءاتي واهتمامي، وكان أول ما قرأته أدب المنفلوطي والرافعي، وأحيانا العقاد، وكان الغزالي يحمل روح الرافعي وتألقه وسهولة المنفلوطي وتدققه، وتأمل العقاد وتعمقه، وانعقدت بيني وبين الغزالي الكاتب على بعد صلة عقلية وروحية عميقة، من جانب واحد طبعًا، هوجانبي بحيث كنت أترقب المجلة لأقرأ أول ما أقرأ فيها مقالتين: مقالة محمد الغزالي، ومقالة عبد العزيز كامل.

ولم يكن يخطر ببالي أن صاحب هذا القلم البليغ شيخ أزهري؛ فعهدي بالمشايخ الذين قرأت لهم في بعض المجلات الدينية مثل مجلة الإسلام أن يكتبوا في غير الموضوعات التي يكتب فيها الغزالي، وبروح غير روحه، وطريقة غير طريقته .

ولكنني فوجئت يوماً بأنه وقع على إحدى مقالاته (الواعظ) فسألت بعض الناس عن هذا الوصف الجديد الواعظ.. أهولقب أم وظيفة؟ فأكد لي العارفون أنها وظيفة، وأن الغزالي واعظ أزهري، وشيخ معمم، وخريج كلية أصول الدين التي أحبها وأطلع للانتساب إليها) ٥٠

ولا يحسبن القاريء أننا نسرد هنا قصة الشيخ الغزالي، وإنما سقت عنه هذا الحديث كنموذج للكاتب الكبير صاحب الأسلوب الجميل الذي يشع سهولة وليونة، ويخاطب الإحساس والوجدان ويملك العقل والعاطفة دونما أي تقعر أو تعقيد.. غير أن الزمام أفلت والجمل كر بعضها على بعض.. لأنه محمد الغزالي!

نعم فالغزالي كان أبعد ما يكون عن تعقيد العبارة، وغموض الكلمة، وتقعر الألفاظ.. وهو للأسف آفة كثير من الأدباء والمفكرين الذين يؤمن أحدهم أن العبقرية لا تكون في ذروتها إلا حينما يصاحبها تقعر الكلمات وغموض الألفاظ.. وهناك طائفة تخلط بين التعقيد والتعمق، والسطحية والتبسيط، ومنهم من يستطيع عرض فكرته بالأسلوب الواضح المفهوم، لكنه لفهمه السابق يُعرض عنه ليلجأ لهذا الأسى الذي يجهد العقول، ويؤيد التركيز، ويضيع جمال الأفكار.

وحال هؤلاء كحال الطبيب مع (أي علقمة النحوي) وقصتهما الشهيرة حيث يحكى عن أبي علقمة النحوي وهو من المتقعرين في اللغة

50- الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن - د. يوسف القرضاوي

واستعمال غريب الكلام واللفظ، أنه دخل إلى طبيب فقال: إني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة إلى أديّة العنق، فلم يزل يربووينمي حتى خالط الخلب فألمت له الشراسف فهل عندك دواء؟ فقال له الطبيب: خذ خربقًا وشلفقًا وشبرقًا، فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روثٍ وأشربه بماء الماء. فقال أبوعلقمة: أعد علي ويحك، فإني لم أفهم شيئًا. فقال له الطبيب: لعن الله أفلنا إفهامًا لصاحبه، وهل فهمت منك شيئًا مما قلت!

إن الكاتب الذي يملك سهولة العبارة ووضوح الأسلوب أتخيله أمامي يحاورني ويفهمني ويخاطبني بما أستوعبه وأتبينه.. أما كتب الجامدين المتقعرين، فإنها أمامي كجثة هامدة، أقلبها بين يدي عساي أجد فيها بقية من روح.. ولكن لا مجيب..!

إنها الروح إذن.. التي تسقي بها سطورك لتتطرق عنك، وتنقل ما تريده إلى عقول القراء والمثقفين.. ولقد كنت أظن أن هذه الأحاسيس خاصة بي وحدي، ربما لضيق ثقافتي وقلّة معرفتي، التي لا ترقى بي إلى إدراك ما يكتبه المتقرون.. ولكنني وجدتها نفس أحاسيس بعض الكتاب والمفكرين الكبار الذين أعلنوا نفرتهم من التقعر وأصحابه.. فأديبنا الكبير (توفيق الحكيم) كان واحدًا من هؤلاء فهو يقول: (البساطة أمر مهم جدًا للوصول إلى القراء، أوسع قاعدة من القراءة، والتكوين الثقافي الجيد، يجب ألا يؤدي إلى تعقيد الأسلوب، وإنما إلى بساطته، إن كل المحصلة الثقافية يتضمنها الأسلوب، مثل شراب

الليمون أو البرتقال الذي يحتوي على أكبر قدر من الفيتامينات دون أن يبدو ذلك في طعمه أو شكله.. من التراث العربي عرفت ابن المقفع، أسلوبه سهل ولا يشبه اللغة العربية المقعرة، المعقدة، التي لم تكن تظهر إلا في عهود الانحطاط، هناك الجاحظ إنه فنان عظيم وكان أسلوبه من السهولة إلى درجة أن اتهموه بأنه يكتب باللغة العامية، نفس الشيء بالنسبة لموليير اتهموه في البداية بأنه يستخدم اللغة العامية إلى أن كتب مسرحياته الشعرية.. وفي أدبنا العربي لم يستطع الكثيرون أن يفهموا القوة التصويرية عند الجاحظ، وقدرته على البساطة المعجزة، وقد قلده المنفلوطي في العصر الحديث.

من كُتاب الغرب الذين امتازوا بسهولة الأسلوب الأديب والمفكر اللامع (أناتول فرانس)، كان مفكراً أيضاً الفونس دودية رقيق وجميل لكن (أناتول فرانس) أسلوبه صاف وجميل وسهل جداً، ويحتوي الفكرة العميقة في نفس الوقت كان يتحدث دائماً عن تعبته في البحث عن أبسط الكلمات، وإذا وجد أي كلمة صعبة لا يستخدمها أبداً كان أسلوبه في منتهى السهولة، كل هؤلاء الكتاب أثروا فيّ بدون أن أدري، إذا جاز التشبيه، فإن قراءتي لهؤلاء سواء كانوا من الشرق أو الغرب تشبه عملية الطعام الذي يهضمه الجسد ويتسرب إلى الدماء والعروق فينمو الإنسان ويعيش..

هناك البعض يعتمد أن يأكل بشراهة وأن يفرط، ثم يصاب بعسر هضم.. كنت أتشرب ما قرأته، أتلقى وأهضم، أخذت من الأدب

العربي ومن الأدب الأوروبي قرأت الكثيرين، ولكنني لن أنس أبدًا فضل ابن المقفع والجاحظ من أدبنا العربي، وأنا تول فرانس والفونس دوديه من الأدب الغربي، كل منهم علمني الوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد.

العقاد رحمه الله كان له قيمة فكرية وأدبية كبيرة، لكنه كان يعتمد الصعوبة، الكلمة السهلة يرمي بها جانبًا، ويستخدم كلمة صعبة بدلًا منها، وأظن أن هذا يرجع إلى رغبته في إثبات ثقافته، وأنه يفهم أكثر من المتعلمين.. كانت كتابته رحمه الله فيها تعال تمامًا مثل كاتب يكتب حتى لا يفهمه أحد، وإذا قيل له إن ما كتبه فهم بسهولة فإنه يحزن.

لقد كان هديني أن أكون بسيطًا وتم ذلك بتلقائية دون أن أتعده.. وقليل من فطن إلى أن الأسلوب هوروج وشخصية.. وكان أحد أصدقائي الفرنسيين يدعونني إلى ترك الكتابة بالفرنسية لا لأني لا أحسنها، بالعكس لأنه رأيت أتكلفها وأمقها وأستخدم تراكيب موضوعة وبلاغة محفوظة مما حبس روحي وسجن شخصيتي في أغلال من الكذب والتصنع، لقد أصاب الحقيقة، لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه يُنشئ أسلوبًا، البلاغة الحقيقية هي الفكرة النبيلة في الثوب البسيط، هي التواضع في الزي والتسامي في الفكرة، وهكذا كان أسلوب الأنبياء) ٥١

---

51- توفيق الحكيم يتذكر - جمال الغيطاني

لم يكن الحكيم متجنبًا في وصفه لأسلوب العقاد.. ولم يكن وحده من يستخشن طريقته في الكتابة، وإنما كان هناك غيره من كبار الأدباء يرون مثل رأيه ويقولون بقوله ويجدون حالتهم حاله.. يقول الأستاذ ثروت أباطة: (لم يشق علي أن أقرأ الأيام وأنا في البواكير الأولى من العمر، وإذا كنت قد قرأت الأيام فما أيسر أن أقرأ ما كان قد ظهر حتى ذلك الحين من كتب توفيق الحكيم والمازني وتيمور، ولعل الكاتب الوحيد الذي شق علي هو العقاد رحمه الله، فلم أستطع أن أقرأ له إلا بجهد جهيد وعنت شديد، وقد ظل هذا شأني مع كتبه حتى الآن، ولكنني مع ذلك أقرأها معجبًا مكبرًا مهما تكلفني من المشقة لأنه العقاد، ولا بد أن يقرأ للعقاد) وكان الحكيم أكثر صراحة في نقد أسلوب العقاد من ثروت أباطة ولعل ما دفعه لذلك قرب السن أو معاصرة الإنتاج ومضاهاته.. ولكن هذه الصراحة لم تمنعه أبدًا من تقدير العقاد وإنزاله منزلته اللائقة به.. كما كانت ليونة الألفاظ وسهولة التراكيب والعبارات مما يمتدحه عميد الأدب العربي فيمن حوله من الكتاب والأدباء.. نعم فطه حسين تمامًا مثل توفيق الحكيم في حب البساطة وانسياب العبارة، وسلاسة الأسلوب، لقد وصف أسلوب المازني بقوله: (المازني أديب مرح يعشق الفكاهة والسخرية وكان له أسلوب خاص في الكتابة يجنح فيه إلى اليسر، وقد ظن بعض قرائه أنه يستعمل ألفاظًا عامية، ولكن هذا الظن

في غير موضعه، لأن ما يظنه عاميًا هو فصح كل الفصاحة، غير أن جريانه على الألسن وشيوعه بين الناس قد يوحي بأنه عامي، وكان المازني يمقت الإغراب وينأى عن التعقيد، فهو يطلق نفسه على سجيته لا يتكلف أبدًا) ٥٢

أما طه حسين نفسه فكان على ذلك الطريق ويدرك تمامًا أهمية أن يكون الأسلوب واضحًا حتى يعرف طريقه إلى عقل القارئ وقلبه.. ويحدثنا الجوادى عن هذه السمة في أسلوب طه حسين ومعه أحمد أمين فيقول: (تميز أحمد أمين وطه حسين في كتابتهما بوضوح الفكرة، وهي من أبرز سماتهما التي حببت إنتاجهما إلى القراء، كما ساعدت بقدر كبير على استحواذ أعمالهما للاحترام والذيع والخلود.

وغني عن البيان ما تميز به أسلوب أحمد أمين من وضوح وبعد عن المحسنات وعن التقعر معًا، حتى كاد بعض زملائه من الأدباء الكبار يخرجونه من زمرتهم بسبب البعد عن التقليدية.. وليس من شك أنه كان بإمكان أحمد أمين أن يقدم لقارئه أسلوبًا مسجوعًا أو ممتعًا، ولكنه آثر أن يعطي الاهتمام الأول للفكرة والمعنى.. وكان أميل للتعبير البسيط المعبر.. أما نضاعة أفكار طه حسين وجلؤها فهو الأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد من الحديث عنه) ٥٣

---

52 - المصدر السابق

53 - أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي - د. محمد الجوادى

يقول رجاء النقاش في كتابه عقلاء ومجانين: (منذ سنوات طويلة وأنا ألاحظ أن كثيرين من أبناء الأجيال العربية الجديدة حتى بين المتعلمين وخريجي الجامعات ينظرون إلى الأدب والفكر والثقافة نظرة سلبية فهم يتصورون أن الثقافة بصورة عامة هي شيء ثقيل الظل مرهق للعقل والنفوس، ولذلك فإن الثقافة الخفيفة وحدها هي التي تثير اهتمام الأجيال الجديدة وهذه الثقافة الخفيفة هي الأفلام الترفيهية والغناء والموسيقى السهلة والعروض المسرحية الضاحكة أما وسائل الثقافة العميقة الجادة وعلى رأسها الكتاب فقد أصبحت من الأمور التي يحسن بالإنسان أن يبتعد عنها حفاظاً على صحته ومعنوياته من الضعف والاعتلال ولا شك عندي أن شباب هذه الأيام ليسوا هم وحدهم المسئولين عن هذه الظاهر السلبية في حياتنا الثقافية فكثيرون من الأدباء والكتاب قد ساهموا في خلق هذه الظاهرة وذلك عندما اتجه هؤلاء الأدباء والكتاب إلى التعقيد في التعبير والتفكير حتى أصبحت الثقافة العامة وكأنها نوع من الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على إنسان برئ لا ذنب له ولا جريمة.

المهمة الأساسية للكاتب هي أن يكون أداة توصيل جيدة وممتعة بين القارئ والأفكار المختلفة أما إذا حاول الكاتب أن يكون مصدرًا لتعذيب القارئ بالاصطلاحات الصعبة والتعبيرات المعقدة فإنه يصبح مثل المعلم الذي يحمل الكبراج لتلاميذه ويحاول أن يفرض عليهم ألوان المعرفة بالعنف والقوة والعقوبة البدنية الصارمة وقد أثبتت التجارب الإنسانية المختلفة أن هذا الأسلوب لم ينجح في خدمة العلم

والثقافة بل كان على الدوام أسلوباً يؤدي إلى نتائج عكسية غير  
مطلوبة.

ولا أعرف كيف يخفى على الكتاب المتقربين أنهم يفسدون نشوة  
القراءة لدى المثقفين، ويتسببون في بوار بضاعتهم وهروب القراء من  
مؤلفاتهم!!.. تماماً كما هرب (خالد محمد خالد) من كتاب رأس المال  
لماركس!

إنه يحكي عنه فيقول: (اشتريت نسخة من كتاب رأس المال لماركس  
وفرحت باقتنائه وشرعت أهوى نفسي لقراءته ودراسته.. بيد أنني لم  
أكد أجاوز فيه بضع صفحات حتى أرهقني وكلفني من أمري عسراً..  
فالكتاب ليس فيه مسحة من الأدب أو الإنشاء، وكله مصطلحات  
وكلمات فنية دقيقة وبعيدة كل البعد عن طلاوة الأسلوب وحلاوة  
التعبير.. وعلى الرغم من أن ماركس كان في شبابه شاعراً إلا أن العالم  
فيه قهر الأديب، وأخلاه تماماً عن فكره ووجدانه.. عندما عكف على  
دراسة التاريخ والاقتصاد وصياغة فلسفته ونظريته.. وهكذا تميز  
مؤلفه الضخم رأس المال، بجفاف أدبي لم أستطع عليه صبراً فتركته  
وودعته، واكتفيت بأن أقرأ لغيره عنه وعن فلسفته)

أما الأديب اللامع الدكاترة زكي مبارك فقد كان أسلوبه سهلاً ميسوراً،  
وكانت تغلب عليه النزعة الوجدانية والطلاقة ووضوح العبارة مع  
أصالة المفردات، وعرف مبارك بالبساطة في التعبير والبلاغة في الأداء  
والفكاهة الحلوة.. وكان أحمد لطفي السيد ممن عاب زكي مبارك

أسلوبهم فقال عنه: (بطيء الحركة إلى حد الجمود، وهو خال من البشاشة البيانية، وأنه كاتب متعمل، متكلف وهو يجر كلامه بتثاقل وإبطاء، وأنه كاتب هيوّب، والحذر المأثور عنه هو الذي قضى بأن تمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج.)

أما تعرضه للرافعي فكتب يقول له: (ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين في معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال في علم الإنشاء والتأليف؟ وما رأيك إذا جازاك أحد الصحفيين ظلمًا بظلم، وقال: إنك تعيش في غير زمانك، وأن أسلوبك ليس إلا صورة من العوج والإلتواء؟)

وبين هذا وذاك نتمنى ألا نصل إلى ما وصل إليه (النحوي) من فرط تقعر ولده في الحديث، ففي رواية تقول: إنّه كان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده وقالوا له ندعوك فلانًا أخانا، قال: لا، إن جاءني قتلني. فقالوا: نحن نوصيه ألا يتكلم، فدعوه فلما دخل عليه قال له: يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتفز من النار. يا أبت والله ما شغلني عنك إلا فلان، فإنّه دعاني بالأمس فأهرس وأعدس واستبذج وسكبح وطهبج وأفرج ودجج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوزج.. فصاح أبوه: غمّصوني فقد سبق هذا الشقي ملك الموت إلى قبض روحي.

وأحب هنا ألا يفوت المقام دون ذكر أخطب وأبلغ من عرف القرن العشرين من الأئمة المصلحين وهو الإمام حسن البنا الذي وصفه أحدهم بقوله: بأنه كان إذا خطب فإنه لم يكن يخطب وإنما كان يسحر.

ولقد وصفه تلميذه (عمر التلمساني)، وسجل وصفًا رائعًا لأسلوبه الذي تميز به فقال: كان بسيطاً في أسلوبه لا تعقيد ولا تقعر في الألفاظ، ولا التواء في الحديث، يفهمه الجاهل والمتعلم على السواء. ولم يكن هذا في الخطابة وحدها، وإنما أيضاً أوجده فيما كتب، فحينما تطالع كتابه (مذكرات الدعوة والداعية)، تجد سهولة لا تقعر فيها ولا تعقيد، وهو ما لمسناه والذي رحمه، الذي رغب في قراءته حينما رأه بيدي فلما قرأه قال لي: توقعت أن يكون الكتاب عنيفاً في لغته لما نعرف من بلاغة صاحبه لكنه كتبه بأسلوب بسيط ممزوج بالتشويق..

## الأقلام النافهة

كدت أموت من الضحك وأنا أقرأ هذا النبأ: كارثة أدبية وأخلاقية في معرض الكتاب الدولي بالجزائر.. والمتمثلة في عرض كتاب يحمل عنوان (كيف تعلم ابنك الحمار بدون تكرار)، وغيرها من المؤلفات التافهة على غرار (كيف تحلب ملة)، و(هل أنت حمار شغل؟)، فكيف سمحت إدارة المعرض بدخول مثل هذه العناوين بلا رقابة، مسوقين بذلك فكرا أخرسا بليدا لا يضيف للمواطن الجزائري شيئا من العلم والمعرفة، بل ويجعله يتراجع بدرجات كثيرة عن سبيل الثقافة والإدراك.

سبق أن تحدثت عن الأقلام المتقعرة، التي تشتت عقلي وتذهب تركيزي فلا أستطيع الاستفادة مما تكتبه أو أفهم ما تخطه من أفكار، فاللفظ المتقعر أو الجملة المتكلفة، ما هي إلا صدمات ذهنية تصيبني كلما قرأت.

إنني أنوه هنا إلى نوع آخر من الأقلام، لا تقل إزعاجًا عن التقعر وأهله، إن لم تكن أمل وأقبح، فكم تصيبني الصدمة حينما أشتري كتابًا فأتوهم أهميته وثقله وروعته فإذا به تافه سخيف يصيب بالإعياء والسامة.. وأكون تمامًا كهذا الذي تلقى طعنة في ظهره من قريب أورفيق يأمن جانبه، أو أرى نفسي كمن سلك طريقًا يتوسم فيه الخير، فإذا هي طريق الحسرة والندامة، وقد يخطر ببال

أحدهم فيقول: لعل عقلك لم يبلغ مستوى الكتاب بعد، فأرأيتَه تافهًا وعمي عليك مقصوده! تمامًا كما قيل في الأسلوب المتقعر...! ولهذا وغيره أقول: إن الكتاب الجيد والأسلوب الشيق يفرض نفسه على النفوس فيمتع أرواحها، ويأسر عقولها، ويشعرها بجمال صفحاته. لقد كان العقاد رحمه الله صاحب جلد وتحمل، ولعل هذا من تمام عبقريته وعزيمته، لقد كان يقرأ كل شيء ويصبر على قراءة كل شيء، حتى الكتب التافهة، ولما سئل عن مغزى ذلك قال:

(ليس هناك كتابا أقرأه ولا أستفيد منه شيئاً جديداً، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أتي تعلمت شيئاً جديداً هو ما هي التفاهة؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وفيهم يفكرون؟)

ويقول الأستاذ عبد الوهاب مطاوع: (ليس هناك كتاب مهما بلغت تفاهته لا يستفيد منه القارئ الذي، ولكن بشرط واحد؛ وهو أن تكون قارئاً ذكياً، فالقارئ الغبي قد يقرأ الكتاب القيم فلا يستفيد منه شيئاً، أما القارئ الذي، فهو وحده يستطيع أن يجد في أكثر الكتب تفاهة، شيئاً أومعنى يستحق من أجله عناء قراءته!)

ولكن القراءة مهجة حياتي ولحظة السعادة التي أتوق لها في هذه الحياة الصاخبة بالآلام، ولا أقبل أبداً أن يكون هناك من يكدرها بتفاهته وهزاله وتهريجه، أويقتحمها ليفسد علي ذوقي ومزاجي الذي شكلته القراءة الهادفة المفيدة.. لا أطيق أبداً أن أتحمل تحمل

العلاقات العقاد في معابته للكتاب التافه.. وأتضامن مع الرائد (سلامة موسى) في رغبته لا عقيدته، حينما قال للشباب: (يجب أن نتجنب الكتاب التافه الذي نمضي الساعات والأيام في قراءته فلا نستدل منه على شيء ولا ننتفع به، وعلى الأديب أن يسخط وأن يجن وأن يكتب في غلواء وألا يكون فاترًا يقيئه القراء)

وهونفس ما عبرت عنه فلة القراءة (ميساء الخطيب) بقولها: (أصاب أحيانًا بخذلان بعد قراءة كتاب لم يعجبني! لكنني أتجاوز ذلك دائمًا بإيماني بأن الطريق إلى الكتب الممتعة، يمر أحيانًا بما هو غير ممتع)

في أحيان كثيرة أصاب بالدهشة والحيرة حينما أرى بعض المبدعين، وقد تبدل أمرهم من حال إلى حال، فمنهم أصحاب الأقلام الرائعة، والبيان الرصين، والفكرة الهادفة، فألثهم كتبهم واحدًا تلو الآخر، وسرعان ما أكتشف العجب العجاب، فبعض كتب هؤلاء فيها غموض وتكلف، وربما فصول كثيرة من التفاهة، أشعر في سطورها بالفطور وقلّة الإفادة.. ورغم غضبي وفاجعتي.. إلا أن ما سبق من إبداع هذا الكاتب، يغفر له هذه النزوة العارضة، وإن عشرته الطيبة، تفرض التغاضي عما عبث به قلمه في لحظة شاطحة.

هناك بعض الكتب أقبل عليها لسمعة مؤلفيها، وسرعان ما أكتشف فراغ محتواها من أول وهلة، ولكن بريق أصحابها يدفعني للاستمرار والمعاناة، لعلي أجد ما يأسرني في سطورها.

وفي أحيان أخرى أخجل أن أعبر عن رأيي أو أن أفصح عن مكثوني تجاه كتاب لم يعجبني، والسبب في ذلك شيثان..أولاهما: أن الكتاب لكاتب مرموق ذائع الصيت، والثاني: أن كل من حولي يصعد بالكتاب وصاحبه إلى السماء، وهونفس ما وقع لصديقة عربية تُقيم في باريس، حينما حدثتني أنها قامت بشراء (مائة يوم من العزلة) لماركيز، وما أدارك ما ماركيز.. وأخذت في القراءة وتنتقل من صفحة لأخرى، وسرعان ما خاب أملها، وانطفأ إعجابها، واستبدلت بالانبهار إدبار!

وهي ليست قارئة عابرة، أوامرأة تسلي وقتها، وإنما هي متذوقة شاعرة، صبورة على الكتاب، فقد تسابقت معها مرة في قراءة كتاب (تحت راية القرآن) للأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعي) فكانت تسير في قراءته كالريح الهادئة، أما أنا فأصابني ملل من الأسلوب ولم أستطع مواصلة المسير، فتركت لها الميدان لتفز وحدها بالسباق، وفي الوقت نفسه لا أملك أن أقول شيئاً عن الكتاب وصاحبه، فهوالرافعي أديب الأدباء ومفخرة البلغاء.. بل أسارع أمام قامته الشامخة، فأتهم نفسي بكل رضاء، أنني لم أرق لمستواه بعد، وأناقض ما قلته في ردي على من يتهمني بالقصور، بأن الكتاب القيم يفرض نفسه على النفوس ويمتعتها ويشعر العقول بجمال صفحاته.

وأتمثل هنا ما قاله أبوتمام حينما سألوه: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب: ولماذا لا تفهمون ما أقول!؟

ولكن مالي أناقض نفسي، وكيف غاب عني أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اختلافًا في الأذواق والرغبات والميول، فهناك من يهوى الكتب الأدبية، وهناك من يهوى الكتب العلمية، وأناس يروقهم الأسلوب الفلسفي، وغيرهم يحبون العاطفي، بل هناك من يستهويه الكتابة المتقعرة! لكن الذي أصر عليه، وأؤمن به، أن الكتابة التافهة هي تافهة.. ولا يستحسنها إلا من فقدوا التذوق.

وبعضهم يرى أن القلم الرسالي مقدم على كل قلم، ولا بد أن نبحت عنه ونأنس له، ونغفر زلاته وأخطائه مقابل ما يعطينا من قيمة وإفادة وتوجيه إنساني في الحياة.. وهو ما عبر عنه أحد الرواد بقوله: هناك الكاتب الرخيص الذي يشغل ذهنك بالاهتمامات التافهة، والكاتب الطاهي الذي يُعنى بحلاوة اللفظ ورنين العبارات، والكاتب المنافق الذي يقول ما لا يؤمن به، حتى هناك الكاتب الفنان الذي يحسن الفن ولكن مع ذلك ليست له رسالة.

إن كثيرين من الكُتَّابِ القدامى يحسون الفن، تجد عندهم الرنين والحلاوة، والجزالة في تأليف الكلمات وهندسة العبارات، ولكنك لا تجد لأحدهم رسالة، والرسالة للأديب هي كل شيء.

ولو أن كاتبًا كتب باللغة العامية، أو كان أسلوبه يتقلقل من الركافة، ولكن كانت له مع ذلك رسالة، يحس قيمتها ويلهج بها ويلهث إلى غايتها، لكان أديبًا على الرغم من كل نقائصه هذه، ولكن لو كان هذا الكاتب مبدعًا في ابتكار المعاني وترصيع الكلمات، ثم يكتب

وليس له هدف عظيم أي رسالة؛ لما كان شيئاً، وقصارى ما كنا نجد عنده عندئذ أننا نتطعم الحلاوة من كلماته ولكننا لا نغتذي بها، ونخرج من مؤلفاته ونفوسنا في جوع إلى الغذاء.

إن الأديب في أيامنا يقوم مقام الكاهن في العصور الماضية، هو كاهن مدني نسترشد به حين يعطينا ويعين لنا قيم الحياة.. فإذا قرأت لأحد الكتاب وأردت أن تقيس أدبه فاسأل ما هي القيم التي تأخذها منه؟ هل هي قيم رخيصة أم غالية؟ هل هو يعطيك الفن، اللذة فقط، أم يعطيك الحكمة أي الرسالة والهدف الإنساني أيضاً؟ فليس المهم أن تكتب بقدر ما تتساءل: ماذا تكتب؟

الكتاب التافه تماماً كالرجل التافه، يذهب معه وقتك بلا فائدة.. ولا تستفيد منه بحكمة أونصيحة أوشيء ذي بال.. وربما يكون الكتاب التافه أكثر إزعاجاً من الرجل التافه، لأنك صرفت فيه مالك وتعرضت به لخديعة كبيرة، وإذا كانت مشاهد الكتب المصفوفة على أرفف المكتبات من أروع المشاهد التي تعتز بها عيني، فإني لا أشعر بهذا مع الكتب التافهة إذا وقفت صفاً كأنها ببيان مرصوص، ولولا حرمة الورق في نفسي لمزقتها أو حرقتها حتى لا تصيب غيري بتفاهتها، أوتأكل من وقته الثمين شيئاً.

ربما لا يوافق الكتاب هواك في القراءة، ومن هنا لا تحكم عليه بأنه تافه فمن الممكن أن لا يقدم لك الكتاب أي فائدة لأنه في مجال غير مجالك وهذا لا يعني أن تصدر حكمك على كل ما تجهله..

بعض الكتاب ينتج كتبًا رائعة وهادفة، ثم لا تمنعه هذه الإجابة أن يقدم بعض الرديء الذي لا ثمار فيه، وهو تمامًا كالأرض التي تخرج شجرة مثمرة، وفي نفس الوقت بجوارها شجرة يابسة.. إنها على نفس الأرض ومن ذات المنبع، أتعجب كثيرًا من كتاب لا قيمة له ولا إفادة فيه، ثم أرى الدولة تنفق عليه وتقدمه وزارة الثقافة للقراء.. أحاول أن أبحث فيه عن شيء مفيد فلا أجد، ثم أظن أنهم أرادوا أن يعرفوا الناس معنى الكتاب التافه فقدموا لهم هذا النموذج..!

ربما يكتب أحدهم مقالًا في شيء من العلم.. لكنني لا أتورع أن أدرجه في زمرة الكتاب التافهين حينما أجده يحاول أن يجتر عقولنا بما يكتب لئنشغل بفرعيات العلم وثانويات المعرفة.. في الوقت الذي تعاني فيه الأمة جهلاً ساحقًا في عظام الأمور، وتشهد عقولنا جفافًا في العقل والوعي، وخرابًا في النفس والروح! أولى بك أن تُنذر قلمك لتعيد به الحرية المسلوقة، وتطرد به الجهل الذي تربح، وتمحوبه الضلال الذي عشش في الأدمغة والمفاهيم.. بهذا يكون قلمك جادًا هادفًا.. ويكون مدادك وقودًا يدفع شعوبنا لتنفض عن كاهلها غبار هزائمها وتراجعها فتؤهل نفسها لصحوة مرتقبة..!

أعرف أحدهم وفي ظل البلايا التي تكبل حياتنا، والجهل الذي يبدد أعلامنا، يخوض معركة علمية وكل همه أن يثبت الجواز الشرعي للاحتفال بالمولد النبوي.. تعجبت من هذا الفهم المختل وقلت له: يا هذا لقد ضللت الطريق إلى ميدان الجهاد، فالمعركة الحقيقية

هناك في هذه الساحة الكبيرة، حيث ينتظر أعداء أمتك ليقضوا على وجودك وبقائك.. وإنك إن ظللت على ما أنت فيه فهولا يعني إلا هروبًا جبانًا من قضايا المصير..!

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا لغضب من فعلك ورفض ما أنت فيه، وعده فرارًا من الزحف.. وكاملتوقع كانت التهمة جاهزة ومعدة.. أنت وأمثالك تُبغضون الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ولا تقدرونه قدره فقلت له: دعنا من هذا الاتهام الخطير ولتعلم أن الرسول الكريم، كان أشد الناس كراهية لمن يشغل الأمة عن معالي الأمور ويغرقها في التفاهات والترهات، لتكون لقمة سائغة تمزقها أنياب الحاقدين..!

## حياتكم ملك لنا!

إن حبك للشخص يسوقك لتقليده ومحاكاته، والتطلع بنهم إلى أدق تفاصيل حياته الشخصية، ومعرفتها يُعد شيئاً ممتعاً لمن يبحثون عنها.. والأجدر بالمبدعين والعابرة، أن لا ييخلون بالحديث عن حياتهم الخاصة.. وإبداء آرائهم وانطباعاتهم في الأذواق والألوان والرغبات والأشخاص، وكل دروب الحياة..

إن التواصل بين القاريء والكاتب الذي يُحبه، لا يجب أن يقف عند بوصلة الفكر وحدها، والكاتب الذي يبخل على مريديه بحديثه الذاتي، ويُعده نوعاً من الفضول والاستطالة على حياته الشخصية، فإنه يحرمهم من متعة كبيرة من حيث لا يدري، كما أن التجارب الذاتية في ميدان الحياة الخاصة، هي أدب ذاتي من أمتع ما تقرأ من صنوف الأدب، وكم عشقنا الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) الذي كان يقص علينا تجاربه الحياتية، فنقرأها بمتعة واشتياق، حتى أنه لما مات، حزنت لأن قطار التجارب قد وقف في محطته الأخيرة، ولن يعود ليحدثنا عن رحلاته مرة أخرى.

ولا أعرف كُتُباً أفادتني واستقيت منها وساهمت في بنائي الثقافي والمعرفي، كما استقيت من كتب التراجم والسير الذاتية، التي تضم الخبرات والتجارب والأحداث والسلوك، وتعكس صورة لعظماء الرجال

وعباقره الدنيا، وكيف ساهمت الأقدار في تكوين هذه الأشخاص  
ومكانتهم في الحياة.

إن أي إنسان، لابد له أن يكتب مذكراته، أوالمواقف الهامة والمؤثرة  
في عمره.. مهما كان شأنه في الحياة، فإنه لابد أن تكون له تجارب  
ونوادير وآمال وآلام، تستحق القراءة والاستفادة منها، وإني لأتخيل الآن  
لوكان جدي رحمه الله والذي لم أره ولا أعرف صورته، قد كتب  
مذكراته أوأملاها على أحد أبنائه.. كيف سيكون الأمر ساعتها ؟ لا  
شك أنها ستكون ذكريات أثرية لدى أحفاد يتعرفون منها على كثير  
من حياة هذا الشخص المجهول، وتُعطي لأحفاده والأجيال المنحدرة  
من نسله، صورة ملامح حياته.

ولا آسف في الدنيا على رجل حُرمننا من قراءة مذكراته كالشيخ  
(محمد الغزالي) رحمه الله، وكنت أتمنى وأرجوأن أتعرف على الشيخ  
الغزالي وبيئته وتكوينه ونشأته، وخصوصًا كيف طلب العلم؟ وكيف  
كان تكوينه الثقافي؟ وكيف كان يقرأ وكيف كان يكتب؟.. فالشيخ  
أديب رائع، وداعية فذ، ومفكر عظيم، يستحق من الأجيال أن تتابع  
أثره وتفاصيل نفسه السامية.

كنت كثيرًا ما أتساءل كيف للشيخ أن يتناسى أمر مذكراته ويغفل  
عن كتابتها؟، بل كيف لتلامذته أن يضل عنهم هذا الأمر، فلا  
يطالبونه بتدوينها؟ إنها خسارة كبيرة بكل المقاييس، ولقد سعدت  
حينما وجدت أستاذنا الأديب (عبد الوهاب مطاوع) قد تحدث عما

جال بخاطري، وأسف كما أسفت لرحيل الشيخ (الغزالي) دون أن يكتب مذكراته.

حيث يقول: (مذ فترة اتصلت بالداعية الكبير فضيلة الشيخ (محمد الغزالي) ودعوته لأن يكتب مذكراته ويثري بها معارفنا وخبرتنا بالحياة، فقال لي: إنه قد فكر في هذا الأمر طويلاً ورأي في النهاية أن نشر مذكراته في الظروف الحالية، قد يُسيء إلى بعض الأشخاص الذين يتناولهم فيها، وهولا يريد أن يُسيء إلى أحد حتى ولو كان اختلف معه في بعض مراحل حياته .

وجادلته في ذلك بعض الوقت، واقترحت عليه أن يكتب حتى ولو قصة نشأته الأسرية والمؤثرات العائلية والاجتماعية التي كونت شخصيته في مرحلتي الصبا وبواكير الشباب كما فعل عميد الأدب العربي (طه حسين) في أجزاء الأيام الثلاثة، لكنه لم يتحمس لذلك للأسف، وقال لي إنه يفضل أن يدع ذلك للمستقبل!.

ولم تمض شهور على حديثنا هذا، حتى كان الأجل المحتوم قد وافاه وهويشارك في ندوة علمية بالمملكة العربية السعودية ودفن بأرضها رحمة الله عليه.. وضاعت علي وعلى الآخرين فرصة الاستفادة بقراءة مذكراته..)

وأنا واحد من هؤلاء الذين ضاعت عليهم تلك الفرصة.. وللأسف حتى الآن.. لم نر أحداً كتب عن الحياة الخاصة للشيخ الغزالي واهتم

بها من أبنائه وذويه، وفيهم أهل علم ودعوة، ويبدوأنهم يكررون خطأ أبيهم العظيم..ويريدون كما أراد أن يسدلوا ستار النسيان على كفاحه الطويل عبر سنوات عمره المديدة..

ولقد كتب الشيخ (القرضاوي) ملحاحات من حياة الشيخ في كتابه الرائع (الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن) ولكنها ملحاحات عابرة، وركز أكثر على حياته الفكرية، ورؤاه الإسلامية، وكذلك فعل عمارة، والمرحوم الدكتور (عبد الحليم عويس)، حينما كتبوا عن الشيخ رحمه الله.

ثم كانت المفاجأة أن الشيخ فعلا قد بدأ المحاولة في كتابة سيرته الذاتية ففي البحث في عالم الانترنت فوجئت بحوالي ٦٠ صفحة يقص فيها الشيخ الغزالي قصة حياته ومختصراً لأهم المواقف فيها وكم كانت سعادتي بها كبيرة لحد لا يوصف لكنها صغيرة مما يجعلك تقول حينما تنتهي لآخر سطر فيها.. يا خسارة!

إن أبرز من تعد أعمالهم إضافة للمكتبة العربية، هم أولئك الباحثين الذين يترجمون لحياة المفكرين والأدباء، ولكن أروعهم هم أولئك الذين يكتبون سيرتهم الذاتية، وتجاربهم الحياتية، وآخر ما قرأت من هذه الكتب كتاب (أنا نجيب محفوظ) لإبراهيم عبد العزيز، حيث بذل الكاتب جهداً كبيراً في عرض حياة نجيب محفوظ واستخلص بعضاً من حواراته ولقاءاته التلفزيونية والصحفية، لأن نجيب محفوظ لم يكن من هواة الكتابة عن نفسه، ولا يحب من

أحد أن يتعرف على حياته الخاصة، وكانت له محاولات في الكتابة الذاتية، ولكنه مزقها وقال: أحب أن يرى القاريء مني ما أريد أن أقوله أنا له.

أما الدكتور (عبد الوهاب المسيري) فكانت له رؤية وسطية، حيث قدم ومنع في ذات الوقت، في كتابه الرائع (رحلتي الفكرية)، الذي لم يذكر فيه من حياته الشخصية وتجاربه الذاتية، سوى ما كان له علاقة بتطوره الفكري.. حيث قال: (ولعل ما دعاني إلى استبعاد بعض تفاصيل حياتي الخاصة (المغرقة في الخصوصية) وهي تفاصيل قد تكون مهمة من منظور شخصي، وقد تهتم أعضاء أسرتي وأصدقائي، ولكنها لا تهتم قاريء هذه الصفحات، ولعل هذه الواقعة توضح تمامًا ما أود قوله، فقد حضرت احتفالاً رسمياً بمناسبة افتتاح كوبري في مديرية البحيرة وانهالت الخطب الواحدة تلو الأخرى.. ثم قام أحد خبراء النفاق، وأخذ يُعدد مناقب سعادة الوزير الذي جاء لافتتاح الكوبري، فسعاده طيب جداً وعلى خلق متين للغاية ويقم الصلاة في مواقيتها (وميفوتشي فرض)... إلخ، فقام أحد المستمعين محتجاً، قائلاً: (إن هذه صفات إيجابية إن كان الحديث عن زوج ابنتي، لكن إن كان الحديث عن وزير (أي شخصية عامة) فالأمر جد مختلف، وهذا هو ما فعلته في هذه الرحلة، أي أنني استبعدت كل الوقائع والتفاصيل التي ليس لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتطوري الفكري، ما لوني المفضل؟ ما نوعية قماش بدلتني؟ ومن خالتي؟... إلخ، فهي وقائع لاتهم من يريد أن يتعرف على تطوري الفكري،

وحيثما كنت أذكر إحدى الوقائع في حياتي، كنت كثيرًا ما أستبعد الأسماء الحقيقية لأبطالها، حتى لا أسبب حرجًا لأحد منهم، وحتى يُركز القارئ على مغزى الواقعة، لا على تفاصيلها، وقد يقول قائل إن كل الأمور مترابطة، وإنني قد أستبعد بعض التفاصيل المهمة دون أن أدري وهو محق، لكن لا مناص من الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد)

وله الحرية في ذلك فكثيرون يعتبرون أن حياتهم الخاصة ملك لهم وحدهم، ولديهم حساسية مفرطة في أن يعرف أحد من الناس شيئًا منها.. ولا أعرف ربهما يكون هذا الباعث من مكونات تركيبتهن النفسية والتربوية.. لكنني وعن نفسي.. أرى أن حياة المبدعين ليست ملكًا لهم وحدهم وإنما هي ملك لملايين المحبين والمعجبين.

لقد كان العقاد من هواة التراجم، وفي يوم من الأيام كان يقرأ كتابًا فسأله الشاعر (صالح جودت) ماذا تقرأ فقال: أقرأ كتابًا عن حياة الممثلة الفرنسية (بريجيت باردو) واندعش جودت وقال: العقاد يقرأ عن بريجيت باردو؟! فرد بهدوء: ولم لا؟ فليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئًا مهما كانت ضالته، وفي حياة كل إنسان، ما يستحق أن يتأمل المرء ويستفيد منه.

أما عن المسلسلات التلفزيونية التي تجسد سيرة هؤلاء العباقرة فأنا مولع بها، وتستهويني بصورة أخاذة كمسلسل الأيام وجمال الدين الأفغاني، ومسلسل العملاق الذي يجسد شخصية العقاد.

أما الدهشة الحقيقية، فهي التي تراها على من يدخل علي فيجديني أشاهد فيلم ( ٦٢ يوماً من حياة دوستوفسكي).. الفيلم بالروسية، ومع ذلك أهيمن في مُشاهدته، وقد بحثت كثيراً عن أي شيء يجسد لي حياة (دوستوفسكي) فوجدت هذا الفيلم فيما وجدت، فأدب (دوستوفسكي) كان يهز روسيا كلها، وكانت كتاباته تغير ملامح المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك المجتمع الذي كان مليئاً بالشقاء والبؤس والعناء.. أما الغريب في الأمر فهو أنني وأنا أشاهد الفيلم لا أعرف كلمة واحدة في اللغة الروسية، كما أن الفيلم غير مترجم، ومع ذلك أتابعه من البداية للنهاية، فمجرد صورة (دوستوفسكي) في حد ذاتها شيء مبهر، والشعور بأنك تراه شيء جذاب، ناهيك عن تلك المشاهد التي تصوره وهو يكتب أعماله ورواياته، ويستجمع أفكارها من الخيال، فيلبل ريشته ليسطر إبداعه ويجهد ذهنه في استلهام أفكاره.

ولأسف تعرفت على (دوستوفسكي) مؤخراً، وقمت بشراء مجموعته كاملة، وبدأت أقرأ في أول شيء منها وهي روايته الرائعة (ذكريات من عالم الأموات) ولم أزل أتابع أعماله حتى أستدرك ذلك الوقت الرهيب الذي مر علي وأنا غائب عن حقيقته ومعرفته.

ولعل من أبرز كتابنا وأدبائنا العظام الذين لم يبخلوا على القراء بكثير من تفاصيل حياتهم هو المفكر والأديب الكبير (زكي مبارك) وقد عدها الباحثون من علامات الخلاف بينه وبين أدباء عصره، وأنه كان كتاباً مفتوحاً وصريحاً، سجل كل شيء ولم يخف أي شيء من حياته العامة والخاصة.

في حين كان غيره يظهر من جوانب القوة، ويخفون جوانب الضعف،  
وحيث تقرأ ما كتب من حياته تراه عظيمًا فصراحتة ونقاؤه واضحان  
في كل حركة، حتى في مجونه واستقامته، حيث يجعلك تنظر إليه في  
ثقة، حين تراه يحدثك عن كل شيء في جرأة دون خوف:

(إن الذي يخذلك هو الرجل الذي يخفي عنك أشياء، ويظهر أخرى،  
إنه الرجل الذي يداري أنيابه، ويبدولك في صورة الوقار والسماحة  
وهو مطوي الأضالع على الغل والحدق).

لقد جنح إلى الخمر في أخريات أيامه، وأسرف فيها أيما إسراف وابتعد  
عن المجتمع، وأمضى أعوامًا مظلمة حزينة، لا يقرأ كتابًا ولا يُنشئ  
بحثًا وإذا بالمساجلات يريدها فلا يستطيع الدخول فيها، والكتاب  
ينقدون كتابيه الغاليين فلا يقدر على الرد والدفاع، ثم يعود إلى  
البلاغ فيكتب فصولًا ضعيفة الأسلوب، ليس فيها بيان زكي مبارك  
الرائع ولا فكاهته المعهودة ولا قوته وعرامته، فيكتب بأسلوب ساذج  
وعبارات مفككة، وما زالت الخمر تقصيه عن ميدان البحث والفكر  
إلى النهاية.

وفي هذه الفترة أخذ يهمل ملابسه وكتبه وإنتاجه، ويظهر في مكتبة  
أصابها الفوضى.. واستطاعت بعض الصحف أن ترسم له بعض الصور  
الفتوغرافية في برجه العاجي فقال أحد المحررين: (برج الدكتور  
العاجي مؤلف من خمس غرف وصالة كبيرة، ويضم أكثر من  
عشرين ألف كتب، وضع بعضها في نحو ثلاثين دولابًا، ووزع البعض

الآخر في أركان الغرف، وبقرب النوافذ والمقاعد، وعلى الأرض.

وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنومنه، ولهذا فإن التراب وبقايا السجائر مازالت في مكانها تزيد وتتكاثر منذ عشرات السنين، وكثيراً ما يهبط الوحي على الدكتور بفكرة رائعة أوبيت من الشعر، ثم لا يجد في هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء، فيسارع بتسجيل الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ، أو جدران الحائط، وكثيراً ما غرق التليفون بين المجلدات والأوراق فلا يعثر عليه الدكتور إلا بعد جهد جهيد.

وبرغم الحياة الشاردة التي غط فيها عقل الأديب، وبرغم هذه العزلة المؤلمة والغيوبة التي ألمت به، فإن الصحيفة وتصويرها لحاله بين كتبه وأسفاره، جعلتنا كأننا نعايش محنته، ونشعر بمعاناته.

## عبودية الحرف !

القراءة في حد ذاتها لا تثمر إذا لم تكن مصحوبة بتفكير وتأمل ووعي وعقل حاضر يستعرض النصوص على موازينه وإدراكاته، فلا يتعامل القاريء مع أي كتاب يقرأه كأنه وحي لمجرد أنه مطبوع بين دفتي كتاب، وإنما عليه أن يحكم عقله إن كان ما في هذا الكتاب جيداً أم سيئاً صالحاً أم فاسداً حسناً أم رديئاً مقبولاً أم مرفوضاً سلبياً أم إيجابياً، وهذا الوعي من القاريء يكون وقاية وحماية من الانجراف لكثير من الأفكار المنحرفة التي تحملها بعض الكتب ومن هنا أشرنا بضرورة التوجيه في عملية القراءة لدى الناشئة نظراً لضعف الوعي والتمييز لديهم، مما يسهل وقوعهم كفريسة للأفكار المنحرفة التي قد تتنافى مع مبادئهم ودينهم وعاداتهم .

وإذا كان البعض يُعطي الوقت الكثير للقراءة، فلا بد له أن يعطي وقتاً أكثر للتأمل والتفكير، والذين ينتفعون بما يقرؤون هم أولئك الذين يقرؤون بعقولهم مع ألسنتهم، ويستحضرون الموازين التي يزنون بها أحاديث السطور.. إن الغاية الكبرى من القراءة ليست في التسلية أوقضاء أوقاتٍ ممتعة أو التعرف على الجديد، وإنما تخلو القراءة من ثمرتها الحقيقية إذا لم يصاحبها التأمل المنشود والتفكير المطلوب.. نريد أن نتبرأ من عبودية الحرف !.

والذين يجافون التأمل من القراء لا يعرفون قيمة التفكير ومن ثم

لا يتقدمون ولوقروؤا آلاف الكتب، عليك أن تكوّن رأيك الخاص الذي تستريح إليه نفسك، وتؤمن به قناعتك ولا تستصغر عقلك أو تستضعف فهمك في تقييم ما يكتبه الآخرون، ولا تتحرج في إبداء رأيك، ولكن كن حذرا أن يسوقك هذا المنهج في نفس الوقت إلى الجدال الدائم والتخطيء المستمر لكل ما تقرأ في محاولة منك لإثبات الذات على حساب الكتاب والكاتب، فنتحول من مفكرين إلى مشاكسين!

أذكر مرة في مطلع شبابي أنني حضّرت مادة علمية لألقي خطبة الجمعة في أحد مساجد قريتنا (سنجرج) من ريف المنوفية، وكان موضوع الخطبة عن (حب الرسول ومكانته وتعظيم المسلمين لشخصه الكريم)، واجتمع لدي عدد من الكتب استخرجت منها مادة الخطبة وعناصرها وكان من بينها كتاب (الطبقات الكبرى) للإمام الشعراني رحمه الله وهو كتاب معروف في التصوف يسرد فيه المؤلف تراجم كثيرة للأولياء الصالحين، وكان من بعض هؤلاء الأولياء والعارفين من هم على درجة كبيرة في حب النبي صلى الله عليه وسلم ولهم قصص ماثورة بلغت مبلغها الرائع في إجلاله وتوقيره، وكان مما قرأت منها: أن أحدهم كان يتناول طعام الغداء مع ولده.. وكانا يأكلان دجاجة فقال الوالد لولده: يا بني خذ مؤخرة الدجاجة فإن رسول الله ﷺ كان يحب مؤخرة الدجاجة! فما أن سمع الغلام هذا الكلام حتى قال لواده: يُحب مؤخرة الدجاجة.. إنها قذارة!

ولم يشعر الوالد حينما سمع هذه اللفظة المنكرة من فم ولده إلا وقد امتشق سيفه من غمده وهوى به على رأسه فأرداه قتيلاً!!  
تعظيماً لجانب الرسول الكريم وثأراً لمقامه الشريف صلى الله عليه وسلم!!

والحق أن جمهور المستمعين حينما انتهت من سرد القصة أخذ يمصص الشفاه، ويهمهم بالتسليم والاتعاظ.. وظننت أنا.. أنني نَفَدْتُ إلى قلوبهم، وبلغت مقصدي من وعظهم.. وما أن انتهت الخطبة ورجعت إلى بيتي، حتى فوجت بوالدي رحمه الله يقول لي: الأستاذ (فلان) يطلبك على الهاتف فأجبه.. فهرولت لأعرف ماذا يريد الأستاذ القدير، وهو معلم نابه ومرب فاضل من المثقفين المتدينين في قريتنا: فقلت له: مرحباً استأذنا أسعدني سماع صوتك، فرد علي: أهلاً ومرحباً أنا أتصل بك لأشكرك على هذه الخطبة القيمة.. ولكن لي بعض الملاحظات التي أحب أن أتأولها معك، خاصة هذه القصة التي ذكرتها.. فقلت له: لقد أتيت بها من كتاب الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي، وظننت بذكري للكتاب أني ألزمه الحجة.. فهو عندما يسمع كلمة الشعرائي لابد له أن يقف عن التشكك ولا يتكلم، ولكنه قال لي: ولنفرض أنها للشعرائي، أين عقولنا في فهم النصوص والحكم عليها بالصواب والخطأ؟، هناك كتب كثيرة محشوة بالخيال والشطحات ولا يعني أنها في كتب الأولين أنها صدق ويقين ومقدسة لا تقبل النقد والأخذ والرد!!

وهنا تفتحت مداركي على معنى جديد.. وتذكرت قول الإمام الشافعي: (كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر)، وعرفت أن كل ما نقرأه يجب أن يخضع لميزان التفكير والتمييز والعقل والتأمل، وأن الحكم الحقيقي هي النصوص والثوابت المقررة في ديننا من الكتاب والسنة وهي التي لا تقبل الزيف والتجوز.. ثم واصل الأستاذ تبصيري بخطأي حينما قال: هل يمكن أن نقبل هذه القصة في مقاييس ديننا والأسلوب النبوي في التعامل مع المسيء.. هب أن الغلام نطق بمثل هذا الكلام، فهل يستدعي ذلك أن يبطش به والده ويقضي على حياته بهذه الوحشية وهذا العنف؟ لم لا يعظه أو ينهاه، أو يبصره بخطئه ووزر ما اقترف لسانه.. إن كتب التفسير تخص بالكثير من الإسرائيليات والقصص الغير مقبولة، فهل يعني ذلك أن نسلم لها؟ أم نأخذ منها ما يتناسب مع ديننا ونرفض ما يخالفه؟ فقلت له صدقت.. إن لنا عقولا لا يجب أن تغيب أبدا أمام ما نقرأ..!

إن بعض كتب التفسير القديمة تكتظ بالإسرائيليات المهولة والفادحة التي تحمل قصصًا تخالف الدين والاعتدال، فهل معنى ذلك أن نرويها ونصدقها لأنها جاءت في كتب التفسير وسطرتها أيادي الأئمة الكبار؟

هناك كثير من المرويات تسربت منذ عهد الصحابة والتابعين على يد (كعب الأخبار) ووهب بن منبه وغيرهم ممن دخل في الإسلام، ثم توسعت بعد ذلك وكثرت وكانت عفوية في مبدئها لكنها صارت طريقًا للكيد والدس في حقائق الدين، وجعلها بعضهم بمثابة

ليبليت للنشر والتوزيع -٢٣٧-

غزوفكري وثقافي للإسلام لجأ إليه أعداؤه حينما فشلوا في قهره عسكرياً.. ولم تمض برهة حتى غصت بها كتب المسلمين..!

إنَّ منها ما يوافق ما جاء في ديننا وهذا لا بأس من روايته والاستشهاد به، ومنها ما يخلفه وهذا تحرم روايته لأنه خلاف الحق والصدق، ومنها ما لا يخالف ولا يوافق وقد قال العلماء: إن هذا النوع تجوز روايته على سبيل التسلية.

وهناك كتب عظيمة وكثيرة كتبها أئمة أجلاء بها أحاديث واهية وضعيفة وموضوعة، فهل نأخذ بها ونتلوها لأنها جاءت في صحائف الأئمة العظام؟ وهؤلاء الأئمة وارد ذلك في حقهم، لأنهم بشر غير معصومين والمجتهد يخطيء ويصيب حتى الإمام ابن عباس رضي الله عنهما بجلالة قدره وهو حبر الأمة وترجمان القرآن له آراء تفسيرية رفضها جمهور العلماء واعتبروها ضعيفة وشاذة وهي ثابتة عنه وقد خالفها عامة الصحابة كأقواله في الموازيث.. فكيف لا نعذر بمن هودون ابن عباس؟!!

والذي أنصح به أن يلجأ القاريء إلى الكتب المحققة حتى يتقي هذا التخبط والانحراف فالكتب المحققة تبصر القاريء بما خفي عليه وهي أشبه بمصباح يضيء له طريقاً ملبداً بالغيوم.. فالمحققون لا يقيمون وزناً لروايات الإخباريين ولا يعتمدون عليها ويعيون من ينقل عنها في كتب العلم المعتمدة .

ما معنى أن يقرأ الإنسان؟ ليس معناه أن يحصل ولكن أحسن مفهوم للقراءة هو أنها فن التعامل مع النص.. فهتلر في ألمانيا صنع دعاية كاذبة عنصرية، والشعب الألماني صدق أنه شعب الله المختار وليس في الدنيا مثله وحارب العالم كله على هذا الأساس، وكانت الهزيمة، ولو كان الألمان يفكرون جيداً ما كانوا وقعوا في هذا الشرك، ولقد ظهر في عالم القراءة ما يسمى بالقراءة الناقدة، أي أن يكون لك وجهة نظر خاصة وقراءة جديد في النصوص، ولا تأخذ المفاهيم بالتبعية والتقليد.. الشعراوي مثلاً في تفسيره لآية (الرجال قوامون على النساء) كانت له رؤيته الخاصة، ولم يقلد حيث أصلها لغويًا وقال: قام بالأمر، وقام على الأمر أي اهتم به، وكان توفيق الحكيم يقول: أنا أقرأ كتابًا ولا أقرأ عشرة كتب.

فنحن إذن.. لا نريد القاريء الذي يعبد الحرف ويتعامل مع الكتب على أنها مسلمات ويقينيات لا تقبل النقاش والمجادلة، لا نريد منه أن يعاملها على أنها وحي من السماء وإنما عليه أن يدرك أن من كتبها بشر يخطئون ويصيبون، فقد يكون الكاتب منتمياً لحزب معين ويروج لأفكاره التي ربما تخالف رأي الأغلبية، أو أن يروج الكاتب لأفكار وسلوكيات لا تناسب المجتمع الذي يعيش فيه وتنافي قيمه ومبادئه.. أو أن يكون من دعاة الغلو والتفريط، أو يكون مخطئاً في نظرية من النظريات أو تحليلاً لبعض الأبعاد.. وكل هذا يقتضي من القاريء نوعاً من اليقظة والوعي والحضور والإدراك حتى يعرف الصواب من الخطأ والحسن والأحسن.

وتتكون هنا مشكلة كبرى.. لوأن هذا الناقد فهم النقد على أنه صورة تسلطية وتتبع لسقطات وهفوات الكتاب حتى يشنع عليهم فهولا يقرأ للفائدة والمعرفة بقدر ما ينقب بين السطور عن ذلة يتجنى بها على الكاتب ويؤول عليه تهما شنيعة.. وقد يتحول هذا الأسلوب إلى مرض عند الكثيرين، يشعروهم بنشوة غامرة بأنهم انتصروا على من كتب هذه السطور.

لقد خرجت إلى الدنيا وكان في بيتنا بقيًا أسفار من مكتبة أبي التي نهبها الناهبون وسرقها السارقون وسطى عليها القناصون من أقاربنا.

كان من هذه الكتب روايات وكتب للعقاد وطه حسين، كان لدينا بعض العبقريات والمعذبون في الأرض ودعاء الكروان والفتنة الكبرى ومراة الاسلام، وتناولت (الوعد الحق) لأقرأه فوجدت عالمًا غريبًا لحياة الصحابة وشخصياتهم وأسلوبهم في التعامل على غير ما ألفنا وتعلمنا من أنهم أهل الفضيلة وأرباب الأخلاق والقيم، وأنهم حققوا في حياتهم أسمى ما وصل إليه الإنسان من كمال النفس ورقى السلوك.

إن (طه حسين) شوه حياة الصحابة، ولطخ مسيرتهم وطعنهم في أخلاقهم، ولم يترك منهم أحدًا إلا وتناول عليه، حتى تموت القدوة في حياة المسلمين ليجدوها في حضارات أخرى والرجل كان مولعًا بالحضارة الغربية وتاريخها القديم ودعا إلى أن نحذوا حذوها حتى نصل إلى ما وصلوا إليه..

لقد تحدث عن ظلم عثمان رضي الله عنه وجبروته وأنه ضرب ابن مسعود رضي الله عنه حتى كسر ضلعه وأشبع عمار بن ياسر رضي الله عنه ضرباً حتى أصابه الفتق وغشي عليه وفاتته صلاة الظهر والعصر والمغرب ونهر السيدة عائشة وقال لها اصمتي وان ابن مسعود كان في العراق يعرضُ به حينما يقول في نهاية الخطبة (إن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) إشارة إلى ما أحدثه من الآذنين والجملة من أساسها واردة من أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن (طه حسين) في كتابه كان بديئاً خارجاً قميئاً كاذباً، شعرت بحالة من الغثيان مما أقرأ كما أملت بي حالة من الحزن على هؤلاء الأماجد الأطهار الذين يشوه تاريخهم ويُحى فضلهم بهذا الإسراف..؟! والمصيبة أن الدنيا كلها تهلل للرجل وتصفه بأنه عميد الأدب العربي وأنه وأنه.. حتى أنك إذا ناقشت أحدهم عن أخطائه الفادحة تطاول عليك بجهل واتهمك أنك أحق أغبى من أن تدرك قيمة طه حسين، وذلك كله من تأثير الإعلام وسحره في تشكيل العقول التي تربت على مدح هؤلاء وأنهم قادة الفكر ورواد المعرفة في بلادنا.

ومهما قيض الله تعالى لهؤلاء من يفضحهم ويكشف ضلالهم، فإنه يعتمد عليه أويتهم في عقله وفكره!. ولكن أين العقل الحصيف الذي يكتشف هذه الوقاحة في تراث الرجل وهي بينة واضحة جلية، لقد كان هدفه واضحاً من انتقاص الصحابة الكرام، هوهدم هذا الصرح الإسلامي الذي تقوم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم وقد أطلق

لسانه فيهم جميعا يغمز بهم ويجرحهم في أمور ويكشف عنهم تلك الكرامة التي أمدهم الله بها الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم.. قال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه).

وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وقال أيضا: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم أو نصيفه) (٥٤)

وهذا نموذج يسير من كتاباته.. فلوطالعنا البقية وسردنا ما بها من طعن وتجريح لوجدنا بلايا لا يستطيع المسلم البصير أن يسكت عنها.. ولكن من أين تأتي البصيرة والناس لا يقرؤون وإذا قرؤوا فإنهم كما قيل عنهم لا يفهمون!

أما روايات (جورجي زيدان) فكانت حربًا على التاريخ الإسلامي، ومحاولة قذرة لطمس معاملته المضيئة (استطاع أن يبيث سمومه في مجال القصص التي ألف منها عددا تحت اسم روايات الإسلام دس فيها الدسائس والمؤامرات والأهواء وحاول إفساد مفهوم الشخصية والبطولة الإسلامية وأساء إساءة بالغة إلى الأعلام كصلاح الدين والرشيد والسلطان عبد الحميد وعبد الرحمن الناصر وابن طولون والغافقي وغيرهم كثيرون ممن تناولهم في قصصه حتى يخدع

54 - المد هو الرغيف الذي يتصدق به الصحابي.

الشباب ويملي عليهم تصوراته التي تمثلت في:

١- تصور الخلفاء والصحابة بصورة الوصوليين الذي يهدرون كل شيء في سبيل الملك ولو كان دينهم وأخلاقهم .

٢- تزييف النقول والنصوص التي نقلها المؤرخون لتخدم أغراضه الحقيرة.

٣- تعمد إدخال العلاقات الغرامية داخل روايات الإسلام حتى يثير غريزة الشباب ويحرك شهوة المراهقين مستغلاً ضعف ثقافتهم.

٤- قال ببشرية القرآن ومدح بني العباس لأنهم أنزلوا العرب منزلة الكلب ( على حد تعبيره) ونسب إحراق مكتبة الإسكندرية إلى (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.

وقد طبع اللبنانيون ودار الهلال في مصر روايات (جورجي زيدان) مزدانة بالصور الملونة والألوان الصارخة حتى تستهوي الشباب وتحثهم على قراءتها، والحقيقة أنها لا تعطيهم إلا صوراً مشوهة لتاريخ أمتهم. (٥٥)

لقد كان أغلب هؤلاء الذين طعنوا في تاريخ الصحابة والتقموا كل هذه المفتريات من الروايات الضالة المنحرفة، إنما استقوها من بعض المراجع وعلى رأسها تاريخ الطبري، ولكنهم تجنوا على الرجل

حينما أخذوا عنه قبل أن يفهموا منهجه في تأليف كتابه، أو أن ذلك أعجبهم فأخفوا غايته لغرض خبيث في أنفسهم.. لقد قدم الرجل كثيراً من الروايات التي وردت في كل حادثة سواء صحيحة أم كاذبة، (كان يجمع كل ما قيل من وجهات النظر المتعددة، ولم يكن كتابه متحيزاً للصحيح وحده، كما كان محايداً لا يحقق ولا يدل على صحة شيء، وكانت فترة الفتنة من أكثر الفترات حساسية في تاريخ الإسلام، وهي التي كثرت فيها روايات أملتها عاطفة الرواة من أصحاب الاتجاهات السياسية والمتغايرين في الفهم والتقييم فلم يكن يتقيد بقيود أهل الحديث في عدالة الرواة، فأدخل في الكتاب روايات الكذابين والوضاعين الذين تروى أحاديثهم ولا يحتج بها، وهو المنهج المرسوم عند علماء الجرح والتعديل، وكل هذا المنهج نوه به الرجل في بداية تاريخه وأشار إليه.. فهل بعد ذلك نعتد عليه ونقتبس من رواياته ونقدمها لجمهور القراء على أنها الصحيح والأكيد، فنسيء للرجل ونسيء لرموزنا والرجل لم يذكرها على أنها هي الصحيحة أويؤكد على سلامتها وإنما كان له منهجه الذي شرحه ونوهنا به وغفل عنه الناقلون) ٥٦

خلاصة الأمر وكما بين العلامة (محب الدين الخطيب): أن الإمام الطبري في إيراد الأقوال الضعيفة في تاريخه مثله كمثل رجال القضاء إذا أرادوا البحث في قضية من القضايا، فإنهم يجمعون كل ما تصل أيديهم إليه من الأدلة والشواهد المتصلة بها مع علمهم بتفاهة

56- من مقال د. محمد محزون - منهج الإمام الطبري في تاريخه - بتصرف

بعضها أضعفه اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره.. (لقد أخذ المعاصرون من هذه الكتب غثها وثمينها، واحتجوا بها لأن مصدرهم الواقى والطبري وابن الأثير، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوا كيف كتب التاريخ الإسلامي في تلك العصور.. أما تاريخ الطبري فالذي دفعه إلى التقاط هذه المرويات هو حُب الاستقصاء والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ولومن بعض النواحي..وغفر الله للطبري فإن تساهله شوه فجر الإسلام، وأساء إلى حملة رسالة الأولين، وفتح باب الاعتذار نفسه لمن بعده، فالجميع يعول عليه)٥٧

ولعلنا هنا ندرك أن القراءة الواعية الناقدة هي التي تحفظ لنا تاريخنا وتراثنا من التشويه والإفساد، هذه القراءة التي تتطلب منا ثقافة وخبرة ومعرفة ودربة حتى نستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، ونسير في درب القراءة على نور دون أن يخدعنا خادع أو يفسد معارفنا فاسد!

وهذا النوع من التغفل يقع فيه بعض الأفراد وخصوصاً من لا ثقافة لهم والمستجدون في عالم القراءة.. لكنني أتعجب حين تقع فيه أمة أو مجتمع كبير مثقف ومتقدم وللقراءة فيه شأن عظيم! لقد كانت حادثة غريبة ألغى المجتمع الأمريكي فيها عقله وصار يقرأ ويقرأ.. إلى أن كانت الصدمة التي أفاقته..!

فقد نشرت صحيفة مكة في عددها ٦٨١ أن (كيفن مالاري) وابنه أليكس الذي يبلغ من العمر ست سنوات تعرضا لحادث سيارة مروع عام ٢٠٠٤م تسبب في شلل أليكس، ومن الناحية الطبية كان احتمال بقائه على قيد الحياة شبه معدوم، وبعد شهرين استفاق من الغيبوبة ليروي قصة عجيبة لا تصدق، تضمنت أحداثًا جرت في مكان الحادث، والمستشفى أثناء فقدانه للوعي، فتحدث عن ملائكة أخذوه ودخلوا به أبواب السماء، وألف عن هذه الأحداث كتابه (الفتى الذي عاد من السماء) حكى فيه هذه التجربة.

واستطاع هذا الكتاب أن يحقق مبيعات ضخمة، وكان في أعلى قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا وبريطانيا وأماكن أخرى في ٢٠١٠م

وبعد خمس سنوات تقريبًا من نشر الكتاب، ظهر أليكس مرة أخرى ليتراجع عن إفادته التي سبق وأدلى بها في الكتاب، والمتعلقة برحلته إلى العالم الآخر. ووجه في رسالة مفتوحة إلى الدار، ونشرها على موقع **pulpit and pen** الإلكتروني، كتب فيها: أنا لم أمت، لم أذهب إلى السماء، مشيرًا إلى إصابته التي لا يزال يعاني من آثارها، ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه بسببها، لقد قلت: إنني ذهبت إلى السماء لأنني أرغب في تسلط الأضواء عليّ، ولكنني حققت أرباحًا بالكذب، مشيرًا إلى صغر سنه حينها، مما جعله يستسهل الكذب في الأمر.

بعد نشر الرسالة بعدة أيام اتصل مدير العلاقات العامة في الدار

تود ستارويتز، بصحيفة واشنطن بوست وأبلغها أن الدار قررت أن تتوقف عن طباعة الكتاب والمنتجات الملحقة به، وفي اليوم التالي، أصدرت بيانًا كتبت فيه: (يؤسفنا أن نعلن أن (أليكس مالاري)، الكاتب المشارك في (الفتى الذي عاد من السماء)، يقول الآن: إنه اختلق قصة الموت والذهاب إلى السماء، ولذلك قررنا سحب الكتاب من النشر)، وكان هذا في يناير عام ٢٠١٥م

وصرحت المسؤولة عن قسم الإعلان (ماجى روي) بعد اعتراف أليكس: أنهم كانوا على علم منذ سنوات أن والدة أليكس (بيث مارلاري)، ليست راضية عن الكتاب لاحتوائه على معلومات غير صحيحة، وأضافت: (طلبنا أكثر من مرة الاجتماع مع أليكس ووالديه، ووكيل أعمالهم لمناقشة وتصحيح المعلومات الخاطئة، لكن بيث لم تكن توافق على مثل هذا الاجتماع).

وفي أبريل، ٢٠١٢، نشرت بيث تصريحًا على مدونتها اعترضت فيه على المذكرات وقالت: من المؤلم رؤية كتاب (الفتى الذي عاد من السماء) لا يستمر فقط في تحقيق المبيعات، ولكنه أيضًا لا يواجه أي تشكيك، فابني لم يحصل على أي مبالغ مالية من الكتاب، ومعظم احتياجاته لم يتم تمويلها من ريع الكتاب، وذلك بسبب توقيع الدار العقد مع والده كيفن.

وتؤكد في نهاية التدوينة التي كتبتها: أن اسم ابنها وهويته يتم استخدامها ضد رغبته، وتساءلت: كيف استمر الوضع لهذا الحد؟!

## القراءة والتفكير

القراءة لا تقوم على حشو الدماغ تمامًا كما يحشو الإنسان معدته، ولكن المهم فيها هو عملية التأمل والتفكير فيما تقرأ، عليك أن تطوي الكتاب جانبًا وتتأمل فيما قرأت ماذا تستفيد، وماذا يهديك عقلك فيما عرفت، وما الفكرة الجديدة التي تولدت لديك من قراءتك؟

القراءة المتعجلة لا يمكن أبدًا أن تمنح صاحبها بصيرة نافذة يدرك بها حقائق الأمور وماهية الأشياء، لا بد أن تدخل المعاني إلى قلبك وحسك وتربع في وجدانك حتى تتكون هذه البصيرة التي تتكشف بها كثيرًا مما خفي عليك وتتوصل بها إلى العديد مما كان بعيدًا عن إدراكك.. وكما قيل: إن حرفًا في قلبك خير من ألف حرف في كتابك.. وهو المعنى الذي نؤكد عليه هنا، حيث نريد أن يلتحم الكتاب بك وتلتحم أنت بحروفه وكلماته وأفكاره، فيحدث نوعًا من الاندماج والتأثير تتشكل به نفسك التي تتحول إلى آلة منتجة للجديد من الأفكار والآراء والإبداع.. وهو نفس التفكير والتأمل الذي وجده المأمون يومًا في ولده حينما سأله ماذا تقرأ؟ فقال: أقرأ ما يشحذ الفطنة ويؤنس الوحشة..!

فقال المأمون: الحمد لله الذي جعل في بني من يري بعين بصيرته أكثر مما يرى بعيني رأسه..!

وكان أفلاطون ينتقي النابهين من تلاميذه ويعطيهم دروسًا خاصة، وكان ينطق في أول الدرس بكلمة ثم يسكت مثل كلمة الزهد أو كلمة العفة أو كلمة الشجاعة، ثم يسكت، ويكون الدرس سطرًا واحدًا لا أكثر من ذلك.. كان يسكت ليدرب التلاميذ على التفكير المستقل المجرّد عن الأستاذ!!

وقد يتحول غياب التفكير إلى مأساة وكارثة نجدها أكثر ما نجدها في أولئك الحرفيين أو النصوصيين الذين امتلأت بهم ساحة الدعوة الإسلامية، يقتبسون نصوص الدين دون فهم لروح الإسلام ومقاصد الشريعة فيضلون أكثر مما يهدون، إنهم يحفظون المتون ويتقنون الحواشي ولا يوجد في أعماقهم ذلك التلاحم والوعي الذي يدركون به حكمة الدين في أوامره ونواهيه وأحكامه وتعاليمه .

هم تمامًا كذلك الذي يؤدي صلاته بقيامها وقعودها وحركاتها.. بينما الخشوع والتفكير غائب منعدم في أعماقه، لتكون صلاة بلا روح تجهد الجسد ولا تصقل النفس أو تصهر الوجدان!!

وقديمًا رأى حكيم غلامًا حسن الوجه، فلما استنطقه، لم يجد عنده علمًا، فقال نعم البيت لو كان فيه ساكن!

وكان هناك راهبان يسيران في يوم مطير ورأيا في الطريق فتاة حسناء تحاول عبور الشارع، فلا تستطيع من كثرة الوحل وشدة المطر، فحملها الراهب الشيخ وأنزلها على الجانب الآخر..

وبعد وصول الراهبين إلى مقصدهما قال الراهب الفتى للراهب الشيخ: كيف تحملها، ولمس المرأة حرام؟

فقال الراهب الشيخ: أنا حملتها من جانب ثم انتهيت منها بوضعها في الجانب الآخر، وأنت مازلت تحملها حتى الآن؟!

وهولا شك جواب يحمل سخرية من الذي يقف عند النصوص ولا يقيم وزناً للمأسة التي يمكن أن تواجهها فتاة تقف وحيدة في هذا الجوالمزعج.

إن فعلاً وإن كان محرماً في نظر الراهب الصغير، إلا أنه توافق مع مقصد الدين من حفظ العرض لفتاة تعثرت في طريقها الذي أوشك أن يكون خطراً عليها وإيذاءً لمصيرها لو استغل عجزها مريض هنا أو هناك!.

يقولون: إن الفيلسوف اليوناني (مقرطس) خلع عينيه لئلا يشغله النظر عن التفكير والقراءة عن التأمل!.

وكان (فيثاغورث) أقل منه فظاعة حيث كان يقضي ليله في التفكير العميق في أحداث يومه.. وإذا كنا اليوم نطالب بالقراءة الواعية فإننا لا نريد للقاريء أن يكون كهذا أوذاك، وإنما نطالب بتفكير يعادل القراءة وتأملاً يوازن النظر!

ومن لطائف المعاني التي قيلت في القراءة: القراءة دمع أزهار  
والتفكير: تأليف طاقة.

القراءة جمع خرزات والتفكير نظمها في عقد..

القراءة: جمع أزهار وحشائش، وضم حجر كريم إلى حجر كريم..

بينما التفكير: اختيار الصالح واختيار المناسب واستبعاد الفاسد  
واستبعاد غير المناسب

القراءة: ضم عقيم إلى عقيم والتفكير قدرة على الاستيلاء.. حتى من  
العقيم..

القراءة كتاب وحفظه: زيادة نسخة مطبوعة منه والتفكير: نفخ  
الحياة في الصورة، ورد الحياة للميت

كثرة القارئ في الأمة، زيادة مكتبة جامعة فيها.. وعقل مفكر واحد:  
باعث الروح، ونور الظلام، وحافزٌ للهمم، وهاديٌّ للطريق .

إذن فالقراءة المأمور بها: فهم عميق مستوعب..)

القراءة بلا تأمل كالأكل بغير هضم.

ربما تعجز عن التفكير مرة ومرتين.. لكن حاول أن تجهد نفسك في  
استحضار بصيرتك مع بصرك، وربما تعجز عن الفهم مرة أو مرتين  
لكن حاول أن لا تقرأ شيئاً دون فهم، ويروى عن بعض حكماء  
المسلمين أنه قرأ كتاباً أكثر من ثلاث مرات فلم يفهمه، فيئس

منه وتركه، فرأى خنفسة تتسلق جدارًا وتقع، فعد عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تياس، حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه، والانتهاء إلى حيث أرادت فقال: لن أرضى أن تكون هذه الخنفسة أثبت منى وأقوى عزيمة، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه!.

وإذا كان (ماركوس سيزيرو) يقول: (بيت بلا كتب كجسد بلا روح) فأنا أقول قراءة بلا تفكير.. هي جسد بلا روح..

قال السباعي رحمه الله: (لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة)

وتأتي أروع ميزات وخصائص التفكير أنه ينقل الفرد من التبعية والتقليد إلى الاستقلالية في التفكير، وقد قيل: (أنا أفكر، إذن أنا موجود) التفكير ملكة يجب العناية بها وتنميتها في عقل الإنسان لأنها الميزة التي يميزه الله بها على سائر الكائنات والمخلوقات.. فهو نعمة عظيمة، إن مارسها الفرد واهتم بها وأعطاهم حقها عاش سعيدًا وقد ألف العقاد رحمه الله كتابه الشهير (التفكير فريضة إسلامية) والله تعالى أعطى التفكير حظًا عظيمًا في القرآن الكريم فقال تعالى: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وهم أصحاب العقول النيرة المفكرة، بل أمر الله عز وجل بضرورة الاهتمام بالتفكير بقوله تعالى في أكثر من آية: (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ).

بل جعل منه عبادة يستطيع المؤمن بها أن يكون قريبًا من خالقه سبحانه فهو عبادة من العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه قال

تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(وبعضهم طالب حديثاً بتدريس مادة التفكير في المدارس والجامعات وتحصيل كل ما يعين على تنميتها وهو ما أدرك الغرب قيمته فبدلوا فيه جهدهم، حيث نجد بلداً مثل فنزويلا تفرض حكومتها ساعتين على الطلاب في مادة أطلقوا عليها مهارات التفكير ودرّبوا على تدريسها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ معلم، ووضعوا لها مقرر وصاغه أحد أكبر وأشهر المتخصصين في هذا الميدان، وهونفس المقرر الذي استعانت به كل من بريطانيا وأستراليا وكندا وأيرلندا ونيوزلاندا..

(ونجد بعض المفكرين من كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة على التفكير، ومن المتفق عليه أنه لا بد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير.. ويمكن أن تغلب القراءة في البداية حتى نهيء لعقولنا مادة التفكير، فالطاحون لا تصنع شيئاً دون وجود شيء تطحنه)

ومما ينسب لعلي عزت بيجوفيتش رحمه الله قوله:(القراءة المبالغ فيها لا تجعلنا أذكىء، بعض الناس يتلعون الكتب وهم يفعلون ذلك بدون فاصل للتفكير، وهو ضروري لكي يُهضم المقروء ويُنبي ويُتبني ويفهم، عندما يتحدث إليك الناس يخرجون من أفواههم قطعاً من هيجل وهايديجر أوماركس في حالة أوليه غير مصاغة

جيداً عند القراءة فإن المساهمة الشخصية ضرورية مثلما هو ضروري  
للنحلة العمل الداخلي والزمن، لكي تحول رحيق الأزهار المتجمعة  
إلى عسل)

يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك: (إن القراءة لا تمد العقل إلا  
بمواد المعرفة البحتة لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرأه ملكاً لنا)

ومما قاله خالد رحمه الله في وصاياه العشر (اقرأ في غير خضوع!  
إن للكلمة المطبوعة سلطاناً عظيماً، وما لم تحتفظ بثبات رشدي؛  
واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنتها بعض الكلمات  
الآسرة، وتلقى بك إلى متاهات، يصعب العثور عليك فيها.. !

فاقرأ قراءة الأحرار، لا قراءة العبيد..

اقرأ؛ لتكتشف نفسك لا لتفتقد نفسك..

اقرأ لتبين الطريق، لا لتصير ذرة تائهة فوق الطريق

اقرأ وناقش ما تقرأ، واحفظ باستقلالك الفكري، ولا تجعل إعجابك  
بالكاتب بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله، وأن من الممكن أن يكون  
تحت سطح دماغك كنوز تفوق كنوزه..

لا تستسلم لكل ما تقرأ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة فثمت  
كلمات تقرر من غير أن تدري مصيرك كله، فإذا كانت من  
الكلمات الجامحة، أصابك منها ضر كثير.. والكتاب الذين  
يكتبون أفكارهم بأسلوب ساخر آسر، سر معهم في أناة..

فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا، وننمي معارفنا فحسب، بل نقرأ لأن القراءة تلهمنا وتطل بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الانساني..

وكأي من مخترع أوحى به لمخترعه، مثل هذه العبارات النابضة..وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها، حين استجاشت حماستهم العقلية عبارة مضيئة قرؤوها أوحركت رصيدهم الفني، لفتة من لفتات الفكر الخلاق..!

كأن هذه العبارة أو هذه اللفتة عصا المايسترولا تكاد تتحرك، حتى ينطلق العازفون في عزف لحنهم المحفوظ..!!

إن في عقلك الباطن، كثيراً من الرؤى والتجارب، تنتظر عارضاً يسيراً يدفع بها إلى وعيك.. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها أو مشهداً تراه، أو عبارة تستوقفك في كتاب.. فلا تقرأ وأنت غافل ساه.. بل طالع في يقظة، وتفتح ومتابعة.وهيء بصيرتك لتتلقى ما تفيئه الكلمة المسطورة من حكمة وإلهام..

وإذا قرأت، ففكر.. لقد ضرب الله للحقيقة مثلاً - أولئك الذين حرّموا  
نعمة الفقه والتفكير فقال تعالى:(جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً  
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ)

فعش مفكراً، فكر إذن، وفكر دائماً وحول عقلك في كل اتجاه؛ فإنك لا تدري أي عملاق رابض تحت ضلوعك.. فكر لا لتكون سقراطاً أوتوم

بين أوالافغاني وإن كان من الممكن أن تكونه!

فكر لأنك إنسان ومن ضرورات انسانيته، أن تكون مفكرًا، وأن تكون لك وجهة نظرك، تجاه عالمك، وتجاه كل قضايا الحياة.. ٥٨ ولكي نسهل عملية التفكير ونحاول من خلاله إيجاد طريقة للقراءة الحقيقية، فإننا لا نلقي باللوم على القاريء وحده، وإنما يشاركه الكاتب والمؤلف في بعض هذا حينما يُعقّد السهل ويُصعب اليسير فيحتاج العقل هنا إلى عملية إجهاد تنفره لا من التفكير وحده، وإنما من القراءة كلها... وهو الذي حرصت عليه إحدى القارئات حفاظًا منها على ملكة التفكير والتفاعل فتقول:

(إنني أبحث في الكتاب عن لغة سلسة ناعمة بإمكانها أن تتسلل إلى وجداني وعقلي وتفكيري فتجبرني على التفاعل معها، تلك اللغة التي تولد الشغف لإتمام القراءة، فأنا ضد إبراز العضلات اللغوية التي يتبعها بعض الكتاب في استخدام المصطلحات المعقدة)

وهي صائبة في اختيارها لأنها تريد أن تفهم وتفكر وتتأمل، ولا تريد لأي كتاب أو كلمة أو قلم أن يصرّفها عن هذه الغاية المنشودة التي تقودها للتفكير والاستفادة والمتعة الحقيقية.

ولعل الروائي الأمريكي (ويليام ستايرون) قد عبر عن ذلك حينما قال: (إن الكتاب الجيد هو ذلك الذي يعطيك العديد من التجارب،

ولا يجهدك كثيراً في استيعابه.. إنه الكتاب الذي يجعلك تعيش أكثر  
من حياة وأنت تقرأه)

obeikandi.com

## الرقابة الحكيمة

عايش الأديب الكبير (توفيق الحكيم) مع والده محنة الرقابة التي لم يكن والد الحكيم فيها حكيماً!.. فقد كان يمنعه من قراءة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها، ولا يقبل منه مناقشة في فائدة الاطلاع والقراءة على هذه النوعية من القراءة، ورغم أن الحكيم لم يكن يقرأ شيئاً منحرفاً أو مفسدًا للأخلاق والأفكار، إلا أن عقلية الوالد كانت تعد أي قراءة غير التي يراها ويألفها.. خارجة وتافهة، وكان كلما أبصر في يده مجلة يمزقها، وكان الحكيم يتحير من ذلك، فهو مشغوف بالقراءة فماذا يصنع ليُرضي هوايته ويرضي والده في وقت واحد؟!

كان الحكيم وهو صغير يهرب كل أيام الجمع، لأنها الأيام التي يفرغ منها والده له ليناقشه فيما يقرأ مما يفرضه عليه ويتخير له من أنواع الكتب التي يجب في عرفه أن يقرأها ولده، وكان أخفها على الحكيم في هذا السن كتابًا يحوي المعلقات السبع وشرحها، وقد ضُرب بسببه أوجع الضرب لأن والده لا يكتفي منه بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد منه أن يشرح له أبيات هذا الشعر الجاهلي في تلك السن الصغيرة، وإذا عجز عن ذلك وهو أمر طبيعي، غضب عليه أبوه وصفعه على وجهه فلا يتركه حتى يسيل الدم من أنفه، وهو يصيح به: يا جاهل! يا غبي!

ثم يخاطب الحكيم هؤلاء الآباء المتسلطين بهذه الرقابة القاسية فيقول لأحدهم: ( دع ولدك يقرأ، ودعه يصادق، ودعه يعيش ربيعته!..

لا تخش لون القراءة التي شُغف بها ابنك في هذه السن المبكرة.. إن الطبيعة أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تغرس الميول في النفوس، وتلوننها على حسب الأعمال والأعمار كما تلون أوراق الأشجار!.

يحسن بالوالد وبالمدرسة تمكين الصبي أو الشاب من قراءة ما يناسب سنه من ألوان القراءات!

لا تقلق أيها الوالد، ولا تظن ابنك وهو اليوم غارق في هذه المطالعات التافهة اليسيرة - سيظل سائراً منساقاً في تيارها إلى آخر العمر!

إن تيار الحياة هو الذي يُغير لون المطالعات، وأنت نفسك أيها الوالد الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد، أو تتغنّى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة - كنت في صباك مشغوقاً بقصص (روكامبول) أو (أبي زيد الهلالي)! ولكنك لا تذكر ذلك العهد؛ كأغلب الآباء!.. ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط، لأن حياتك اليوم تدفعك في مجرى بعيد عن حياة الخيال، وبدا لك عقلك، وكأنه لم يعد يطبق هضم القصص!

أيها الوالد.. اترك ولدك لسِنه! وافهم طبيعة جيله!

ولعل هذا الألم الذي ذاقه الحكيم في صباه، وتلك الدماء التي كانت تسيل منه بغضب والده وضربه إياه، قد أنسته جانبا مهما من ضرورة الرقابة على الإنسان في مراحلها الأولى لأنه قد يفقد التمييز ويخطيء في الاختيار في كثير من الأشياء، وربما تقع يده على شيء غير مرغوب فيه فتكون له تبعاته.. ليقراً الفتيان في عالمهم ما يشاؤون.. لكن لابد من المتابعة والترقب خاصة مع ما رزنا به في عصر الانفتاح الفضائي والتكنولوجي الذي صار فيه كل شيء متاحاً وسهل الحصول والتملك والقراءة والمشاهدة، وهذه هي الرقابة الحكيمة القائمة على المناقشة الرزينة والإقناع الهادئ والحوار الأليف..حتى لا نكون كهذه الأم البلهاء التي فرحت لمجرد أن ابنتها تقرأ حتى كان ما كان مما أخبرتنا به هذه الحادثة..

فهذه طفلة صغيرة ربما كان لنا في أمرها درسٌ وعبرة، لقد أصابني بالذهول والخوف، وأفزعتنني من شيء ربما نتصور أنه إيجابي ومطلوب ومرغوب فيه، لكنه للأسف قد يكون طريقاً وأداة لهدم أبنائنا وأجيالنا، وتشويه عقولهم وأفكارهم.. لقد كانت هناك طفلة لم يتجاوز عمرها تسع سنوات تحب قراءة الكتب الأجنبية التي يكون موضوعها الروايات الخيالية والسحر والقوة الخارقة، وكانت أمها تفتخر بها في المجالس النسائية بأن ابنتها تحب القراءة، وفجأة بدأت الطفلة تتحدث مع أمها بأن هناك عدة خرافات يعتقدونها الناس ومنها خرافة وجود الله، فأنكرت عليها أمها قولها، فردت عليها بأن الدين كذلك خرافة ويكفي الإنسان أن يعيش كما يريد

حتى يكون سعيداً، ولو أراد الإنسان شيئاً فإنه يستطيع أن يحقق ما يريد من خلال تواصله بالطاقة الموجودة بالكون، أو يستطيع بخياله أن يحضر ما يريد)

إذا كانت القراءة تُثير العقول وتفسح مدارك الإنسان وتزيد إلى عامله عوالم أخرى وترتقي بنفسه وسلوكه وأخلاقه، فإن هناك كتباً تهدمه وتشل حركته بعد أن تفسد عقله وتشوش على إدراكاته، إذ تجعل من القراءة فيها شيئاً سلبياً يضر بالقارئ ويجرفه للانحراف والتطرف أو الإلحاد والضلال، خاصة إذا كان القارئ لها قليل الخبرة ولا يملك زاداً ثقافياً يدفع به هذه الأفكار المنحرفة، ومن هنا وجب انتقاء الكتاب..!

قال بعض الكتاب الغيورين على الأمة وشبابها: (كما تنتخبون الأصدقاء وتوالونهم إذا رأيتم فيهم الفضل وحسن الأخلاق، هكذا اختاروا الكتب التي تقرؤونها فهي خير الجلساء إذا كانت مما تتضمن حكمة الأزمنة السالفة والحاضرة، لأنها تزيدكم علماً وتهديكم صراط الحياة المستقيم، وتفعل فيكم فعل قدوة الصديق إذا كان عاقلاً كريماً.

وكما تحذرون جليس السوء ومعاشرة اللئيم ابتعدوا عن الكتب التي تفسد النفس، أو التي لا خير في قراءتها، لما فيها من ركافة العبارة والمعنى.. وقد كثرت في هذه الأيام ترجمة الروايات وعمد إليها الأحداث الصغار، فلا بد من التمييز بينها واختبار الأدب المفيد منها، ونبذ ما كان مضراً بالأخلاق، مع العلم بأن أكثرها لا يستحق القراءة،

وبعضها يجب له الطرد كما يطرد السفهاء في الحال إذا رأيناهم مع أبنائنا وبناتنا).. وأكثر من يقعون فريسة لهذه الكتب الضارة، هم الناشئة الذين يعفون على أي شيء كالذباب ولا يميزون الطيب من الخبيث، وبلا مرشد أووجه أومتابع لعملية القراءة، ولأنهم وجدوا الحبل على الغارب وتركت لهم الحرية في إدارة حياتهم في عالم صارت الأفكار المنحرفة فيه تدب دبيب النمل تواجه الجميع ولا تفرق بين كبير وصغير!

لقد كان عمر ﷺ يقرأ كتب الأعاجم فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وهذا لأنه لم يعرف دينه بعد ويخشى عليه التأثير بما في كتبهم بشيء ربما يفسد به عقيدته.. والذين يشجعون الناشئة على القراءة وكل من يريدون أن يدخلوا عالم القراءة، يقولون لهم دوما: اقرؤوا ما تحبون.. وذلك حتى يقيموا علاقة بينهم وبين الكتاب ثم بعد ذلك يتطور أمرهم فيقرؤون أشياء أخرى وفي مجالات لم يكونوا يتوقعون أنهم سيقروون فيها.. وإذا كان الجواب متاحًا ومباحًا وواسعًا ففضاضًا، فذلك في نطاق المعقول والمباح، أما المحذور فلا بد من التحذير منه والتخويف من تبعاته، فلا نترك العنان لأبنائنا وشبابنا في مسألة اختيار الكتب، ورغم وجود الانترنت الذي يتخطى كل الحدود، فإن الإرشاد والمتابعة والتشجيع بدفعهم في اتجاهات أخرى قد تخفف من تعرضهم لأي ضرر من العينات المحظورة.. كما تقوم الجهات الرقابية بدورها في حظر طباعة الكتب الضارة وترويجها..

والرقابة نوعان خارجية وداخلية.. فأما الخارجية، فتكون من البيت أو الأسرة أو المجتمع أو الحكومة، وأما الداخلية فتكون من الشخص نفسه حينما يدرك بقناعة ذاته حجم الخطورة التي تحوم حوله وتتهده إن هو أقدم على أفكار معينة، ( وعليه فإن السلاح الأكثر فاعلية في التصدي لما يكتب وينشر مما قد يحوي أفكارا هدامة دينيا واجتماعيًا وسياسيًا لتقليل أخطارها على الناس والمجتمعات، هو تعزيز الرقابة الداخلية التي ستنبع من ذات الإنسان، وذلك من خلال تبيان الصواب من الخطأ وتوضيح السليم من السقيم والمفيد من الضار، ليصبح الفرد بعدها صغيرا كان أو كبيرا قادرا بنفسه على أن ينبذ السيء ويتجه للجميل.

وتتعزز الرقابة الداخلية من خلال تنمية القيم والأخلاق وروح احترام القانون واتباع المعايير الدينية ومراعاتها، وهذا الأمر وإن كان لا يتأق بين يوم وليلة، لكنه حينما يأخذ مداه ويستكمل أركانه يصبح حتما قويا التأثير شديد الفاعلية (٥٩)

## كنت لصًا..!

هل تصدقني لو قلت لك: إنني كنت في يوم من الأيام لصًا محترفًا؟ نعم لقد كنت لصًا أسطوعلى ما لدى الغير وأستحله لنفسي دون أن يؤنّبني ضميري أويحز في نفسي ألم الحرام وإقدامي على هذه الفعلة المشينة..!

نعم حدث هذا.. ولكن دعني أشرح لك الموضوع قبل أن توغل في سوء الظن بي، ورغم علمي أن الخطأ لديك لا يتجزأ، إلا أنني طامع أن أجد لديك إعدارًا تتفهم به علتي، وإن لم تستطع أن تتفهم فعمل صورتي المشينة في عقلك يخف وقعها وتهون حدتها شيئًا ما.

القصة يا عزيز القاريء هي أنني لست لصًا عاديًا كأولئك اللصوص الذين يسطون على ممتلكات الناس وأموالهم، ولكنني لص من نوع آخر، فإذا كان لص المال يسيل لعبه حينما يبصره، فإني أنسى نفسي وأفقد وعيي ويقودني هواي حينما أبصر الكتب.. نعم إنها الكتب عشقي الأول وغرامي الفريد، الذي تطور بي حتى صيرني لصًا من اللصوص، فما أن أزور صديقًا من أصدقائي أو قريبًا من أقربائي وألمح بطرف عيني كتابًا في حوزته إلا وتفور حماستي وتجمع نفسي وينفلت شعوري وأستدعي الشيطان ليفكر معي في كيفية اقتناص هذا الكتاب، فإن كان صاحبه من الكرماء المحسنين الذي يمنحون

ويعطون، فكان بها ونعمت وإن شح وأعرض فلا طريق معه إلا أساليب اللوصية التي أتقنها وصرت فيها محترفاً.. إن نفسي لا تستقر ولا يهدأ لي بال إلا حينما أرى هذا الكتاب مستقراً في مكتبتني أوبين يدي، وأشعر بارتياح كبير، ويُهَيِّأُ إلي أنه جاء إلى مكانه الصحيح وأنه مسرور لأنه أصبح بين يدي من يقدر قيمته ويمنحه قدرًا كبيرًا من الحب والإعزاز والإكرام الذي لم يكن يناله فيما سبق..!

هذه هي المرحلة التي مارست فيها حرفة اللوصية.. وفي محاولة مني لتجميل الموقف والهروب من الفعلة المشينة والسطوالأثيم، كنت أصارح أصحاب هذه الكتب بأنني أخذتها منهم بأسلوب يميل إلى التهريج والمخادعة، حتى لا يؤخذ الموقف بشكله الحقيقي وصورته الواقعية، وحتى أهرب من الانضواء تحت كلمة السرقة، ومن ثم تبدأ مرحلة المماطلات والحوارات والأخذ والرد لاسترداد الحق المسلوب والذي لا أجد مناصاً من رده وأنا في غاية الألم، لأنني قد تملكني شعور بأن هذا الكتاب صار جزءاً مني وقريناً لروحي، وكيف تؤخذ مني روحي؟ ولكنه الحق الذي لا كبير فوقه.

ومع مرور الأيام اكتشفت أن هذه العلة يُتلى بها الكثيرون من عشاق الكتب الذين لو طُبق عليهم الشرع لقطعت أيادهم لكثرة ما أخذوا من هذه الكتب الحرام.. وياله من لفظ، وياله من عبارة.. الكتب الحرام..!

كثير من المفكرين والأدباء تعرضوا لهذا النوع من السطو واستطاع  
للصوص أن يُفجعوهم في أئمن ما يملكون.. فبعض السراق يأخذون  
الكتب لمجرد الاقتناء فقط، أما أنا فكنت أسرقها للقراءة ولكن هل  
ترى ذلك يشفع لي؟! لا أعتقد فما بني على باطل فهو باطل.

كان الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) رحمه الله من أولئك الذي عانوا  
من لصوص الكتب، فقد كان ممن يكرهون التفریط في الكتاب حتى  
ولومن باب الاستعارة، ومن هنا كان أصدقاؤه لا يجدون إلا أن يلجأوا  
لسرقة كتبه ولا يعيدونها له أبدًا.. وقد كان له صديق يعمل مهندسًا  
في الصحراء.. يأتي لزيارته في القاهرة كل شهر فيبيت عنده إلى أن يأتي  
موعد رحيله فيغادر في الصباح الباكر، وهو مازال مستغرقًا في المنام،  
وظل على هذا الحال أعوامًا كثيرة، لقد حاول أن يستعير منه بعض  
الكتب، ولكن الأستاذ عبد الوهاب رفض وتجادل معه صاحبه كثيرًا  
إلى أن اقتنع برغبته، وكان الأستاذ يلحظ بأن كتبه تتناقص وتختفي  
بغير سبب واضح أو علة مفهومة، واتجهت ظنونه إلى بعض من  
يزورونه من الأصدقاء والمعارف، وكان منهم صديق يدعي الاشتراكية  
جادله مرة في برجوازيته وإصراره على تمسكه بكتبه، وذكر له اسم  
أجنبي مزيف ينتهي بأوف وزعم أنه كاتب اشتراكي روسي كان بعد أن  
ينتهي من قراءة أي كتاب يركب سيارة الأتوبيس العامة ويتعمد أن  
يترك الكتاب وراءه في المقعد عند نزوله لكي يعثر عليه مواطن آخر  
ويقرأه ويتثقف لأن الثقافة للجميع وليست حكرًا على أحد!..

لم يقتنع الأستاذ عبد الوهاب بهذا الكلام لأن حبه للكتب يفوق كل الحدود، ولعلي أؤيد الأستاذ مطاوع في رفضه إعارته كتبه فما الاستعارة إلا لون من ألوان السرقة

وكانت إعارته الكتب شيئاً ممقوتاً عند العرب، وكان شاعرهم يقول في ذلك:

ألا يا معير الكتب دعني فإنَّ إعارته الكتب عار

وكانوا يقولون إنَّ الكتاب الذي يعار لا يردُّ إلى صاحبه، ويحكى أن الكاتب الفرنسي، إميل زولا زاره ذات مرّة أحد أصدقائه في بيته، وعندما بدأ الصديق يطّلع ويتفقّد مكتبة، زولا «الكبيرة، فيأخذ كتاباً يتمعنه ثم يردّه إلى مكانه في رفوف المكتبة، وفجأة وقع نظره على كتاب كان يبحث عنه منذ مدّة، فقال لصديقه: زولا: هل لك أن تعيرني هذا الكتاب؟ فقال زولا له على الفور: لا، لا أستطيع أن أعيرك إيّاه، فالكتاب الذي يعار لا يردُّ إلى صاحبه أبداً، والدليل على ذلك أنّ معظم الكتب التي ترى في هذه المكتبة معارة.

وقال أحد الكتاب الكولومبيين: إنَّ الذي يُعير كتاباً إقطع له يدًا واحدة، أمّا الذي يردّه الى صاحبه فاقطع له الاثنتين. ولله در القائل:

أيها السارق أسفاري بدعوى الاستعارة

أنت لص تحسن السلب بخبث ومهارة

وتدعي العلم وللجهل في رأسك شارة

ربما أن كتابي حين لم تنفض غبارة

فوق رف حوله الآفات يرتعن جاره  
شنت الأرضة فيه غارة من بعد غارة

أما صديقه المهندس فإنه كلما زاره طلب منه زيارته لمقر عمله في الصحراء حيث يعيش في بيت حكومي واسع ويقوم على خدمته بستاني وطباخ حكوميان، ويعده بقضاء أيام جميلة في هدوء الصحراء وشاعريتها، وبالفعل عزم الأستاذ على زيارة صديقه ومعه صديق آخر، واستقبلهم المهندس بمظاهرة ترحيب على باب البيت وقادهم إلى مائدة الغداء الحافلة ثم انتقلوا إلى غرفة المعيشة لشرب القهوة، فما أن دخلها وتلفت حوله ليتأمل مكتبته الصغيرة المعلقة على الحائط، فإذا به يصرخ فيه قائلاً: كتبي يا حرامي !

فقد كان كل ما في مكتبته من كتبه الضائعة والمختفية والمفقودة منه بطريقة غامضة طوال ثلاث سنوات، ولم يكن في مكتبته كتاب واحد من مقتنياته الخاصة أو من مشترياته بحر ماله! أوشك الأستاذ على الانفعال ولكنه فوجيء بالصديقين ينفجران من الضحك والصخب، والصديق المذنب يقول له بكل بساطة ماذا أفعل وأنت لا ترضى أن تعيرني الكتب وأنا لم أتعود شراءها!؟

ثم شفع له صديقه الآخر وطلب منه العفو بتقادم الجريمة وسقوط العقوبة، ولم يجد مطاوع مفرًا من أن يشاركهما السخرية، وعند الرحيل جمع من كتبه السلبية ما اتسعت له حقيبته وترك له الباقي وهو يتوعدده أنه سينسى كل ما قرأه من هذه الكتب المسروقة

ولن يستفيد منها بشيء من الثقافة الحقيقية، لأنها ثقافة من مصدر حرام، ثم حرص إذا زاره بعد ذلك أن لا يتركه يغادره في الصباح كما كانت عادته القديمة وإنما لابد أن يودعه قبل رحيله.

ولصوية الكتب قد وقع فيها بعض الكبار من الأدباء والمشاهير وأبرزهم الأديب الفرنسي (جان جينيه) والذي سجن أكثر من مرة بسبب تكرار سرقة للكتب وغيرها، بل إنه يستعير النسخ النادرة من مكتبات عامة وبعد أن يقرأها يعرضها للبيع في شوارع باريس وتكرر منه هذا السلوك وتكرر سجنه بما مجموعه سبع سنوات تقريبا ولتكرار سرقاته كاد أن يحكم عليه بالموءبد لولا أن كوكتوشهد لصالحه في المحكمة وقال: (إن جينيه أكبر كتاب المرحلة المعاصرة) ثم رفع سارتر وكوكتوعريضة ووقع عليها مجموعة من المثقفين يطلبون فيها العفو عن جينيه وإسقاط الحكم المحكوم به ومدته عشرة شهور بسبب جنح قديمة وفعلاً تم لهم ذلك وكتب جينيه بعد ذلك (يوميات لص) وهي مترجمة للعربية.

وقد كان المستشرقون أبشع السراق الذين عرفهم التاريخ، فهم سراق حاضرة بأكملها، ولكنهم رغم هذه السرقات كانوا أشد حفاوة بها من أهلها وعرفوا كيف يغتتموا ما فيها لصالح نهضتهم؟.. ففي القرن الثامن عشر وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته، فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية

ويغيرون على المخطوطات في البلاد العربية والإسلامية، فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوروبا، وفي أوائل القرن التاسع عشر بلغ عددها نحو ٢٥٠ ألف مجلد..

لصوص الكتب لا يقتصرون فقط على هذا النوع المزعج من السرقات، فهناك نوع آخر أبشع إيلامًا للنفوس، ويمائل تمامًا لدى صاحبه كسرقة العرض والشرف، وأصحاب النوع الأول قد يتلون به ويمارسونه رغم كونهم شرفاء ولديهم أخلاق وقيم.. أما النوع الثاني فلا يمارسه إلا من انعدمت فيه المرورة والدين والخلق والفضيلة، لأن ما يقوم به هو أبشع أنواع السرقة ولصوصها هم أخس أنواع اللصوص وأحقهم.. وقد يمارسها طلاب علم وأساتذة جامعات وباحثين وللأسف علماء ودعاة وقد سمعنا مؤخرًا عن دعوى قضائية أقامتها باحثة مغمورة ضد أحد الدعاة الكبار بأنه سرق بحثها وطبعه في كتاب وضع عليه اسمه.. ولعلك الآن أدركت هذا النوع الموحش من السرقات.. إنها السرقة الفكرية والعقلية .

ما أقدر هذه الفعلة وما أقدر فاعلها؟!!

وأنا عن نفسي لا أعرف كيف لهذا الأفك أن ينام مطمئنًا هانئًا مرتاح البال وقد سرق إبداع غيره وجهد من حوله وهكذا الإنسان دومًا حينما يتجرد من الدين والخلق، فإنه يفعل أشياء تئن لها

الحياة والأحياء.. وأحكي لك الآن صورة أوحادثة مؤلمة من هذه السرقات، قصها علي أحد أصدقائي الذي انتسب لكلية الآداب قسم اللغة العربية فيقول: كان من جيراني معلم أزهري من عابرة اللغة العربية، كان شغوفاً بالعلم عاشقاً للغة ونوادرها، وكنت أذهب إليه كل يوم لكي يشرح لي بعض المسائل الصعبة، كانت حجرته متخمة بالكتب، وكنت أجد في نفسي سعادة كبيرة بالجلوس معه والاستفادة من علمه، ولازلت أجد رائحة كتبه القديمة في أنفي كلما تذكرته، كان أسلوبه مميّزاً في عرض النحو ومسائله، فقد حببني فيه وسهل علي مداخله، وكم كان كنيئاً حينما تنادي عليه زوجته لأي طلب من طلبات البيت لتحرمنا من هذه اللحظات الممتعة، وفي يوم من الأيام أعلمني أنه انتهى من كتاب في النحو شرع يؤلفه منذ سنوات ويحلم ينشره وطباعته لأنه يحمل رسالة وهي تسهيل النحو على طالبه، ثم حدثني أنه أعطاه لصديق من أساتذة الجامعة الأكاديميين ليقول رأيه فيه، وكان هذا الأستاذ الجامعي كثيراً ما يذهب لزيارة الأستاذ ويتجاذب معه أطراف الحديث في أمور لغوية، ومرت الأيام تلو الأيام دون أن يأتي منه أي رد في شأن الكتاب، ثم بعد إلحاح الأستاذ كان رده عليه: أنه ضاع منه وسط ركام من كتبه وأبحاثه، فحزن الأستاذ كثيراً لأنها النسخة الوحيدة التي كان يمتلكها، ولكنه عزم على كتابته مرة أخرى، واستعد لذلك.

والحق أنني لم أسترح يوماً لهذا الجامعي منذ أن رأيتَه، وكنت أشعر أن في نفسه شيئاً غير سوي وألمح في نظرات عينيه حقداً على هذا

الأستاذ الطيب، ولم يكن بمقدوري أن أفصح عما أجده داخلي، فلعلها خيالات نفس أو مجرد عدم راحة نفسية، فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف.. ولم تلبث الأيام إلا أن صدقت ظنوني في الرجل، وانطباعي عنه، فقد كانت هناك طالبة جامعية من جيران أستاذاي قد التحقت بكلية اللغة العربية وجاءته لتشرح له ما غمض عليها في كتاب النحو الذي يدرس لها في الجامعة، فتناول منها الكتاب ليشرح لها ما غمض عليها، وأخذ يتصفح وكانت المفجأة المفجعة.. إنه كتابه الذي ضاع منه، لقد سرقه صديقه الجامعي ووضع عليه اسمه وقرره على الطلاب.. لقد سرق جهده وفكره، وأخرجه للنور ونسبه لنفسه زوراً وبهتاناً.. كان الرجل يحكي لي الحادثة وهو حزين منهار يكاد الهم يمزق صدره من شدته، كان يقول لي: لو أنني فقدت عضواً من أعضاء جسدي لكان أهون علي من فقد كتابي العزيز، الذي وضعت فيه خلاصة علمي وتجربتي ومعرفتي.. حتى يسرقه هذا الغادر الخسيس وينسبه لنفسه!

وضاع جهد هذا الأزهري الطيب الذي لم يتخيل يوماً أن يكون هناك حقراء إلى هذا الحد..

وهناك نوع آخر من السرقة وهو سرقة الأفكار وصياغتها بلغة مختلفة، وقد مارسه كبار الأدباء والمفكرين يقول الدكتور السباعي: ( الدكتور طه حسين في كتاب الأدب الجاهلي ما كان إلا ترديداً مخلصاً لآراء غلاة المستشرقين المتعصبين ضد العرب والإسلام أمثال

(مرجليوث) الذي نقل آراءه كلها في كتابه (الأدب الجاهلي) ونسبها لنفسه وليس له في الكتاب رأي جديد نتيجة بحث علمي قام به أوتعب في سبيله..! ويمثل هؤلاء أيضاً الأستاذ أحمد أمين في كتابيه فجر الاسلام وضحى الإسلام من سرقة لآراء المستشرقين دون أن ينسبها إليهم) ٦٠

وهونفس ما أكده أي فهر (محمود شاعر) رحمه الله في المعركة التي دارت بينه وبين طه حسين حول كتاب الأخير عن المتنبي، حيث أوضح شاعر (أن خصومته الحقيقية ليست مع طه حسين وإنما مع مرجليوث، لأنه صاحب المسألة والدكتور طه مجرد ناقل لا أكثر ولا أقل، وأن المشكلة لديه في السطوع على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس، وأبشع منه أن ينكشف أمر الغصب والسطوع ويتسامع به الناس ويدل العلماء على الأصل المغصوب كتابة موثقة منشورة فلا يبالي الساطي بشيء من كل ذلك بل يزداد جرأة وتيها بسطوه وكأن ظهور سطوه فضيلة ترفع من قدره وهو استخفاف من الدكتور بعقول الناس والقراء) ٦١

والنموذج الأخير هو تهمة بالسرقة لعالم كبير وهو الشيخ محمد حامد الفقي وقد اتهمه الشيخ أحمد الصديق الغماري بسرقة كتاب

---

60 - الاستشراق والمستشرقون - د. مصطفى السباعي

61- راجع شهادة ربع قرن - عايدة الشريف

مخطوط نادر من الشيخ محمد أمين الخانجي صاحب مكتبة الخانجي، ويدعي الغماري إن الخانجي كاد أن يرفع على الفقي دعوى قضائية لولا وساطة الشيخ أحمد شاكر.. هذه رواية أحمد الصديق الغماري ومن المعروف أنه على عداوة شديدة مع جماعة أنصار السنة المحمدية ومؤسسها محمد حامد الفقي.. المهم أن الغماري روى واقعة السرقة بكل تشف وشماتة في كتاب له أسماه (جؤنة العطار) وهذا الكتاب لم يطبع ضمن كتب الغماري ويوجد في ملف (بي دي إف) على الانترنت وقد اعترف الغماري في نفس هذا الكتاب أن الخانجي اتفق مع الفقي بعد ذلك على مراجعة بروفات تاريخ بغداد وهذا يقوي الشك في حقيقة السرقة التي اتهمه بها) ٦٢

وكان الاتهام بالسرقة موجودا بين الأئمة الكبار فقد اتهم السخاوي السيوطي بأنه اختلس مما كان يعمل وادعى عليه بأنه أخذ كتب المحمودية ونسبها لنفسه وهي اتهامات لا دليل عليها أوبرهان يثبتها، فقد كان السيوطي أمينا في تناول كتبه، ولا يثبت معلومة في موضعها من غير أن يشير إلى من أخذها عنه والكتاب الذي استمدها منه، ولا يذكر خيرا إلا أسنده لأصله..

كما وجه السيوطي نفس التهمة إلى القسطلاني صاحب (إرشاد الساري) حيث إدعى أنه أخذ من كتبه وإستمد منها ولم ينسب

---

62- من مقال لناصر الحزيمي بجريدة الرياض الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٦ هـ - ٢٧ مايو ٢٠١٥ م - العدد ١٧١٣٨

النقل إليه في سلسلة عالم المعجزات التي يقدمها التلفزيون الألماني تناولت (قناة LTR الألمانية) موضوعًا يتعلق بالحضارة الإسلامية في مجال العلوم، والمذهل أن هذا الفيلم يعترف بالتطور التكنولوجي الكبير الذي شهدته الحضارة الإسلامية خلال قرون عديدة.

يقول أحد الباحثين في هذا الفيلم: قبل ألف سنة تقريبًا كان العالم الإسلامي متطور لدرجة كبيرة، بينما كانت أوروبا تعيش في حالة تخلف وجهل، فالمسلمون وضعوا المؤلفات العلمية والاكتشافات والاختراعات.. في مجال الطب كان المسلمون يتبعون الطرق العلمية والأدوية ويجرون عمليات جراحية، بينما الغرب كان يتبع أسلوب السحر والشعوذة للشفاء.

في مجال الهندسة اخترعوا ساعات دقيقة جدًا وأساليب حربية متطورة.. أول فكرة للصاروخ، وأول فكرة للدبابة.. أول شيفرة سرية، وأول أسلوب لقفل سري يعمل بالشفرة.. وهكذا.. والشيء المميز أن علماء المسلمين كانوا يعتمدون أسلوب التوثيق العلمي، فكانوا يضعون اسم المرجع الذي اعتمدوا عليه في كتبهم.

الشيء الذي فعله الغرب ببساطة - كما يقول الباحث الألماني في الفيلم - أنهم سرقوا هذه العلوم بعد انهزام المسلمين، وطمسوا أسماء المؤلفين ونسبوا هذه العلوم والاكتشافات والاختراعات لأنفسهم، يتابع الباحث: (إنها أكبر عملية سرقة في تاريخ العلم!)

علماء كثر أخذوا اكتشافات المسلمين ونسبوا لأنفسهم.. أسهل طريقة لسرقة العلم أن تأخذ الكتاب وتعيد نسخه حرفياً.. ولكن تمحواسم المؤلف الأصلي وتضع اسمك عليه بدلاً منه!!

العبارة التي لفتت انتباهي في هذا الفيلم وفي أفلام وثائقية كثيرة عن حضارة العرب والمسلمين، أن هذه القفزة العلمية الهائلة التي خطاها العرب في مجال العلوم لولاها ما كان لحضارة الغرب أن تنشأ! والأهم أن هذه العلوم والاكتشافات جاءت بنتيجة تعاليم القرآن!! فالقرآن يحض على العلم والمعرفة والاكتشاف..

في واحدة من المفارقات الغريبة، وذلك بعد تصديقه على أحكام الإعدام بحق العديد من قيادات جماعة الإخوان المسلمين، ضبط الدكتور شوقي علام، مفتي الجمهورية متلبساً بنشر مقتطفات من كتاب (في ظلال القرآن) لأحد أشهر رموز جماعة الإخوان المسلمين وهو الشهيد سيد قطب، وعلى الرغم من أن المفتي أصدر العديد من الفتاوى التي تحرم السرقة العلمية والاقتراسات من نصوص الغير ونسبتها إلى السارق، فإنه نشر كلام (قطب) ونسبه إلى نفسه دون أية إشارة إليه، كما تقتضي الضوابط العلمية

جاء ذلك في مقاله المنشور بتاريخ (٢٣/٦/٢٠١٥) بجريدة (اليوم السابع)، تحت عنوان (نجحت لعلكم تتقون)، نقل المفتي معظم المقال من تفسير الشهيد المفكر سيد قطب، فقد أخذ مقاله - كماً وكيفاً - من كتاب (في ظلال القرآن) وفندت صحيفة (المصريون)

وقتها فقرات المقال، وأشارت إلى أن (المفتي نقل جل المقال -إن لم يكن كله- من تفسير سيد قطب، فقد أخذ مقاله كما وكيف- من صفحتي ١٤٠ و١٤١ من الكتاب)، كما أثبت ناشطون بالوثائق أن ما فعله المفتي ليس الحالة الأولى له، حيث اقتبس مقالات سابقة من كتب ولم يشر إلى مؤلفيها!

وأشارت صحيفة (المصريون) إلى أن المفتي اقتبس مقاله المنشور بصحيفة (الشروق)، بعنوان: (للصائم فرحتان)، من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام أبو حامد الغزالي، وأنه نقل جزءاً كبيراً من مقاله بعنوان (الدين المعاملة - منهج الصحابة في التيسير ٢)، بتاريخ ١٧ إبريل ٢٠١٥، الذي نشرته صحيفة المساء، من كتاب الدكتور عبد الله بن إبراهيم الطويل، بعنوان: (منهج التيسير المعاصر).

كرر الدكتور شوقي علام، مفتي الديار المصرية، السرقة مرة ثالثة في أحدث مقالاته المنشورة بجريدة اليوم السابع، الجمعة ٢٠١٥/٧/٣م، لكن هذه المرة كان عن طريق النقل من مقال للداعية السعودية الشيخ عائض القرني. وهو الأمر الذي لم يسلم منه الشيخ عائض نفسه وقد نسب إليه مثل هذا الأمر في كتابه (لا تيأس) حيث تقدمت الباحثة (سلوى العضيديان) بشكوى إلى وزارة الثقافة والإعلام تتهم الداعية الكبير بسرقة كتابها (هكذا هزمت اليأس) والمنشور في عام ٢٠٠٧م، مؤكدة أن الدكتور القرني سطا على ٩٠% من كتابها ضمنه في كتابه (لا تيأس).

وصدر الحكم بتغريم الشيخ مبلغ ٣٣٠ ألف ريال سعودي، متهمه إياه بالاعتداء على الحقوق الفكرية للغير.. كما شمل الحكم سحب كتاب (لا تياس) من الأسواق، ومنعه من التداول، ووضعه بشكل رسمي على قائمة المنع حتى لا يدخل إلى المملكة.

أما الشيخ القرني فوجّه رسالة إلى الكاتبة مؤكِّدًا أنه ليس عاجزًا عن التأليف، وقد منحته البحرين جائزة المؤلف العربي الأول، وهو الذي يحفظ القرآن وآلاف الأحاديث وآلاف الأبيات وطالع آلاف الكتب.

أما أحدث هذه السرقات الفجة، فهو ما أذاعته صحيفة (المصري اليوم) في خبرها بتاريخ الأحد ٢٠١٤-٢-٢٠م تحت عنوان (وزير الأوقاف ينسب جهود زقزوق لنفسه) حيث حصلت المصري اليوم على مستندات تكشف حذف الدكتور محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف، اسم سلفه الدكتور محمود حمدي زقزوق، عضوية كبار العلماء بالأزهر، من (موسوعة الحضارة الإسلامية)، التي أصدرها الثاني عام ٢٠٠٥، ووضع «مختار» اسمه عليها، وغير تاريخ صدرها من ٢٠٠٥ إلى فبراير ٢٠١٤، ثم قدّمها لرئيسه أثناء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

كان (زقزوق) قد أهدى الموسوعة إلى الرئيس الأسبق حسنى مبارك في الاحتفال بالمولد عام ٢٠٠٥، عقب الانتهاء من إصدارها مباشرة. وتقع الموسوعة في ١٠٠٠ صفحة، وتضم هيئة تحريرها كلاً من: الدكتور أحمد فؤاد باشا، نائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق، والدكتور طه

أبوكريشة، عضوهيئة كبار العلماء بالأزهر، والدكتور عبدالله التطاوى،  
نائب رئيس جامعة القاهرة حينذاك، والدكتور عبدالستار الحلوجى،  
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، والدكتور رفعت حسن هلال،  
الأستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة، و٥٠ أستاذًا.)

## الأنوثة المثقفة !

لماذا نجد من المثقفين دومًا من ينبهر بالفتاة القارئة والمثقفة ويشعرون تجاهها بحنين طاغ وجاذبية أخاذة؟

إنه يرى جمال الطبيعة وأشجارها الغناء وأنهارها المنسابة وطيورها المغردة، تتضاءل أمام جمال فتاة قبعت على كتابها تغوص في أفكاره ومعانيه، وبعضهم يود لوأنه عاش بقيه حياته في صحبة مثل هذه الفتاة يأكلان على كتاب ويشربان على كتاب، وينامان على كتاب ويستيقظان على كتاب!.

فما مصدر هذا الإعجاب، وهذا الانبهار ؟ هل يا ترى لأن الثقافة في المرأة شيء نادرٌ يستحق الانبهار.. أم فقط لأنها امرأة ؟!

حاولت كثيرًا تفسير هذا الولع الشديد لأدبائنا الكبار بـ(مي زيادة) لقد سحرتهم وملكت قلوبهم.. جذبتهم جميعًا بجمالها ومظهرها وشيائكتها وحديثها وأنوثتها وثقافتها.. لقد أشعلت عواطفهم فلم يفلت من غرامها أحد، الكل عشقها.. الكل أحبها.. الكل هام بها.. الجميع قالوا فيها شعراً أونثراً أوتحدث عنها أدبهم بشوق ملتهب وحنين ملتاع.

لقد كانت مي مهوى الأفئدة ومنية العقول. وأسائل نفسي.. هل تختلف الثقافة حينما تملكها وتنطق بها امرأة؟

ومالهم الرجال؟

أليست هذه الثقافة قد أثبتت أنهم أجدر بها من النساء، وأن عظماء المفكرين وكبار الأدباء لم يكونوا إلا من الرجال؟ أليس إبداعهم أرفع وأثمن ما أنتجته القرائح والعقول.. فلماذا الهيام إذن بالمرأة المثقفة والفتاة القارئة؟!

إن عقل المثقفين ووجدانهم يعشق صورة المرأة القارئة.. ويهوى معنى الأنوثة المثقفة.. ولو أنك جئت بشاب وفتاة وأمسكت كل منهما كتابا يقرأه.. فلن يعبأ الناظر بصور الفتى لأن الفتاة لها مذاقها في أعماقهم، ولعل هذه الحفاوة ترجع إلى أنها لبت معنى الغريزة والهواية.. الغريزة التي تتمثل في حاجة الرجل إلى امرأة، والهواية التي هي الثقافة والفكر.. فقط لا أكثر.. ولا أقل..

كثير من المثقفين يرون أن حياة الأديب أوالمثقف تستدعي أن تكون شريكة حياته على نفس هواه ومزاجه العقلي، حتى تنسجم حياتهما ويكون بينهما رابط مشترك يسهم أول ما يسهم في الحب المتبادل والعشرة السعيدة وتنمية الموهبة وتلاقح الأفكار، أما أن يعيش في عامله وحيداً فريداً، دون أن تشاركه من تعيش معه تحت سقف واحد أفكاره واهتماماته، فإنه سيصاب بخلل وملل .

لكن الواقع قد يخالف هذا التوهم وهذه الرؤية، فحينما تنظر إلى زوجات الأدباء الكبار، هل تجدهن على هذا النحو؟

الدكتور حسين فوزي ولويس عوض ويحيى حقي كانت زوجاتهم أجنبيات يصرفن اهتمامهن بعيداً عن الكتاب في تربية الطيور والحيوانات الأليفة وكان أزواجهن يتحملون نصيباً من هذا النشاط راضين أم صاغرين، فزوجة يحيى حقي كانت إذا ذهبت إلى مصفف الشعر.. كان عليه وقتها اصطحاب الكلب للنزهة.. (وعطية الله إبراهيم) زوجة نجيب محفوظ لم تكن مثقفة، ولم يرد عنها أنها قرأت كتاباً، والعقاد لم تكن له زوجة أصلاً، والرافعي والزيات وإحسان عبد القدوس والحكيم، لم نسمع بزواجهم المثقفات ولا علم عنهن شيئاً في عالم الثقافة والفكر، رجل واحد لعبت زوجته في حياته دوراً كبيراً وذلك نظراً لظروفه وعوائقه وهوطه حسين وزوجته سوزان..

ولكن ليس معنى هذا أن جهل الزوجة بالثقافة وحب القراءة شيء عادي ولا قيمة له ولا يؤثر في حياة الزوج المثقف والقاريء، فرغم هذه الأمثلة السابقة من المفكرين والعباقرة إلا أن كثيراً من المثقفين يشعر بمعنى السعادة في حياته حينما تكون زوجته مثقفة قارئة تشاركه كل ما يعن له من رؤى ومفاهيم..

بل إن بعضهم من شدة عشقه للثقافة والكتب عزم أن لا يتزوج حتى لا يقترب من امرأة تفسد عليه عشقه للقراءة وتشعر بتفضيل شيء آخر عليها فتفسد حياتهما، إنه الأستاذ محمد طاهر زوج الكاتبة والأديبة

والباحثة الكبيرة (نعمات أحمد فؤاد) ففي حديثه لصحيفة المصري اليوم ذكر قصة ارتباطه بزوجه في منتصف الخمسينات وكان وقتها يمتلك مصنعا للأدوية ودارا لنشر الكتب ( منذ طفولتي الغراء كنت عاشقا للقراءة التي كانت رفيقتي في كل لحظة، حتى أنني قررت عدم الزواج حتى لا أرتبط بامرأة تستشعر تفضيلي للقراءة عليها، ولكن سمحت لي الظروف أن أتلقى نعمات أثناء إنهاءي بعض الأوراق في عملها بوزارة الثقافة، وكنت كلما ترددت عليها وجدتها تمسك بكتاب تقرأ فيه، فكان الحب وكان الزواج في منتصف الخمسينات، وشعرت بحسي الأدي المتخصص في عالم الكتب أنني أمام موهبة قلما تتكرر، حتى إنني منعتها من القيام بمهام الزوجات في المنزل حيث كان لدينا الطاهي والخادمة، وأذكر أنني عدت من عملي ذات يوم ووجدتها تقف في المطبخ فنهرتها بقولي: إن ملايين النساء يستطعن القيام بتلك الأمور ولكن كم واحدة منهن تمتلك هبة الكتابة التي شبهها الأديب الراحل أحمد حسن الزيات في مقدمة كتابه (بلادي الجميلة) بمي زيادة، مؤكدا على تفوق نعمات على مي في الأسلوب)

وأمام هذا التواءم ارتبط بها وأكمل معها مشوار الحياة، وكان إذا أراد أن يعبر عن حبه لها لم يكن يجد غير غذاء الروح كأنفس ما يسعدان به ويقدرانه في حياتهما فلم يكن المال أو الحلي وإنما كان الكتاب في بيت كانت القراءة فيه هي سبب بنائه وأساس تكوينه.. كان يحب بين الحين والآخر مفاجئتها بنفائس الكتب والنادر منها كدليل على محبته لها، ولعلمه بما يمكن لمثل تلك الهدايا أن تطير

بها فرحًا، ومن بين الموروثات التي حرص على اقتنائها لها كتاب (بانوراما) الفرنسي اللغة والذي يعود تاريخ طباعته إلى عام ١٨٤١م وقد طبع منه خمسين نسخة فقط تم إهداؤها في حينها لملوك ورؤساء العالم

أما نسخة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فقد حصل عليها الزوج حينما حضر أحد المزادات الخاصة بأحد القصور الملكية في النصف الثاني من الخمسينات، حيث قال: (كان هذا الكتاب من بين المقتنيات المعروضة للبيع، ظللنا نزايد عليها أنا وزوجة رجل أعمال شهير لا أتذكر اسمها الآن، وكانت معروفة بحب الكتب والمزادات ظللنا نزايد على بعضنا البعض حتى علا صوتي بمبلغ ٤٠٠ جنيه، وكان مبلغًا كبيرًا بمعايير وقتها، فصمتت السيدة وهي تظن أنني أبيعها لها بعد المزاد مقابل بعض الجنيهات الأخرى، ولكنني كنت منذ رأيت أنه أيقنت أن نعمات ستطير به فرحًا حيث يحكي عن مصر ويصورها في وقت الحملة الفرنسية.. وبالفعل صار الكتاب أحد أهم مقتنياتنا، وأتذكر يوما من عدة سنوات حينما أعلنت روسيا عن عثورها على نسخة من هذا الكتاب النادر لدى أحد أفرادها، مشيرة في متن الخبر إلى أنه قد يكون النسخة الوحيدة الباقية في العالم، يومها أصرت نعمات على الاتصال بوكالة الأنباء الروسية، وأخبرتهم باعتزاز أن لديها هي الأخرى نسخة أصلية من الكتاب (٦٣)

شيء جميل أن تكون الزوجة حفية بالقراءة فتملاً بها البيت، وتعنى بالمكتبة، وتدرّب أطفالها عليها، وتشجع زوجها لمزيد من الاطلاع والإنتاج وفي مستهل كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) لأنيص منصور نطالع إهداء جميلاً رائعاً لا يقدر معناه إلى من يعيشه من المثقفين، ولا يأسى عليه إلا من حرم منه، لقد أهدي أنيس منصور كتابه لزوجته، فقال فيه: إهداء.. إلى التي لولا تشجيعها ما كان السطر الأول من هذا الكتاب، ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصفحات، امتناناً عميقاً وحباً أعمق: إلى زوجتي.. أنيس منصور..

وإذا كان من المفكرين والأدباء من لا يرضى أحدهم من زوجته إلا أن تكون ربة بيت تحمل هم الأولاد وتيسر له شئون الحياة وتوفر له الراحة والوقت الذي يستطيع من خلاله أن يقوم برسالته، فإن هناك من يحلم بالزوجة المثقفة، ويؤمن بما أشرنا إليه من المشاركة الوجدانية وأثرها في حياته..

وإذا كانت زوجه بعيدة كل البعد عن الثقافة والفكر وبغض الكتب والمكتبات، فإن عليه أن يحاول بين الحين والحين أن يوقظ فيها هواية القراءة وصحبة الكتب وإلف المطالعة، وقد يفشل وقد ينجح ولكن لمزيد من التحفيز والمحاولة إليك هذه التجربة العملية، فقد كان (سلامة موسى) من الذين نجحوا في تلك التجربة حيث يقول في كتابه (تربية سلامة موسى): (عقب الزواج وجدت صعوبتين أولاهما أني أحترف الأدب والصحافة، وأتعلق بالقراءة وهوايتي هي الثقافة،

والزوجة تعد الإنفاق على الكتب إسرًا، ثم هي أيضًا لا تطيق رؤية زوجها وهو غارق في كتابه طوال الوقت أو معظمه في البيت، وخاصة إذا كانت هي لم تتعود إدمان القراءة، والصعوبة الثانية هي التفاوت العظيم بين مستويينا الثقافيين، وكانت زوجتي قد تعلمت في مدرسة فرنسية تديرها الراهبات ويتجه فيها معظم العناية إلى التعليم الديني، ولذلك وجدت أنه للتغلب على هاتين الصعوبتين أن أشرع في تعليمها من جديد، فصرت أشركها فيما أكتب وأناقشها في جميع الموضوعات الثقافية التي أهتم بها، وبدهي أن كل زوجة تهتم بحرفة زوجها، ولما كانت حرفتي هي الصحافة والأدب والعلم، فإنها اضطرت إلى تتبع نشاطي حتى ارتفعت على مستواها السابق كثيرًا، وبهذا الوفاق بيننا بل أكثر من ذلك، إذ هي قد أصبحت صديقتي كما هي زوجتي، وظني أن خير طريق إلى الصداقة الضرورية بين الزوجين، أن يرفع الزوج زوجته إلى مستواه الثقافي إذ هوحين يقصر في ذلك يجد أن التفاهم معدوم أو ملتبس، فلا يكون الحديث بينهما إلا في الشؤون التافهة ويعودان وكل منهما يعيش في عالم منفصل عن العالم الذي يعيش فيه الآخر، والصداقة التامة تحتاج إلى التكافؤ الثقافي بينهما أو ما يقاربهما.)

يشتكي أحدهم من أنه يحب الثقافة والقراءة ويود لو أنه قضى يومه كله في مكتبته ومحراب فكره، يتناول هذا الكتاب ويعايش هذه الرواية، ويكتب هذا المقال ويستمتع بعيون التراث، بينما رفيقته

لا تعرف غير ثقافة الطعام والمطابخ ولا تحب الثقافة وتعد القراءة والكتب من أشد أعدائها، وأن الكتب التي يقرأها هي بمثابة الضرة التي تشاركها في زوجها، وأنها تتمنى لو يأتي يوم وترها تحترق عن آخرها فلا يبقى منها سطر واحد.. لماذا لا نجرب ونحاول ترويضاها على الكتاب، لعلنا نخلص إلى النتيجة التي خلص إليها (سلامة موسى) فنزأب الصدع ونداوي الشرخ.؟!

ثم ماذا لوتزوجت المثقفة القارئة ؟ هل ساعتها ستقبل ويروق لك أن تشغل بالكتاب عن إعداد طعامك وشرابك وتربية ولدك وإعداد هندامك ؟ أخشى ساعتها أنك لن تبغضاها وحدها وإنما ستبغض كل كتاب تراه عيناك.!

ألا ما أروع المرأة الوسطية التي تعنى ببيتها ولا تهمل كتابها..! أراد الروائي الانجليزي العظيم (تشارلز ديكنز) أن يتزوج الفتاة التي أحبها (ماريا بندل) ابنة مدير أحد المصارف بانجلترا.. وقد كان عاشقا متيما بها، لكنها رفضت حبه وقالت: عن تشارلز شاب لطيف، لكنه أديب، فهل يستطيع أن يعولني بقلمه ؟ وتحولت عنه وتزوجت من تاجر ثري، أما تشارلز فتزوج بعد سنوات زواجا تقليديا لم يسعد به كثيرا، ولم يعجز أيضا عن احتمال.. وقال عنه النقاد إنه قد رضي بالمزيج المعتدل من النجاح الأدبي والتعاسة الزوجية، فلم يمز على زواج ماريا بزوجه التاجر سوى بضعة أعوام حتى تعثرت تجارته وأفلس وعاشت معه حياة جافة محرومة في حين حقق (ديكنز)

نجاحًا أدبيًا وماديًا هائلًا ودرت عليه روايته مالا وفيرا حتى أصبح أغنى الأغنياء في إنجلترا.

وعلى العكس من قصة ماريما مع تشارلز.. فلقد تزوج المفكر الفرنسي (مونتسكيو) من ابنة جنرال قديم من جيران بيته في ريف (بوردو) ولم تكن أسرتها غنية، ولا كانت هي نفسها جميلة أومغرية.. وسئل (مونتسكيو): ماذا أعجبك فيها لكي تتزوجها؟ فأجاب أعجبتني راحة عقلها عندما تحدثتُ إليها ذات مرة حين زرت أباها!

وصدقت فإساعة المفكر الكبير في من تزوجها، فلقد نجحت في إسعاده وتوفير كل أسباب الراحة والنجاح له وكان يغادر (بوردو) إلى باريس ليلتقي بأدبائها ومفكريها تاركًا لها توكيلًا بإدارة أملاكه وأعماله.. فتديرها عنه بحكمة.. ولا تعترض طريق حريته الشخصية وأعماله الفكرية، وتسعد بعودته بعد بضعة أسابيع أو شهور من باريس ليحدثها عما فعل وما شهد من محافل أدبية وفكرية في العاصمة!

أما الروائي الروسي العبقري (ديستوفسكي) فلقد احتاج إلى سكرتيرة يمي عليها كتابه الذي يؤلفه إلى جوار فراش زوجته المحتضرة.. لأنه لا يريد أن يفارقها إلى غرفة المكتب في أيامها الأخيرة.. ولا عجب في ذلك، فقد أحبها سنوات طويلة وانتظر بصبر عجيب حتى تاملت لكي يتزوجها، ولم تطل عشرتها له كثيرًا حتى مرضت مرضًا شديدًا ولازمت الفراش.. واقتربت منها النهاية المحتومة.

ولما جاءت سكرتيرته الشابة التي أزمع أن يملي عليها مؤلفه الجديد الذي يؤلف عباراته وهو بجوار فراش زوجته، فتحمست له وأعجبت به ومامت زوجته بعدما انتهى من كتابه، وبدأ الأديب الكبير يشعر باضطراب في حياته، وفي هذا الجو الضبابي كانت المفاجأة من هذه السكرتيرة النابهة التي قالت له: لا يمكن أن تجمع الأقدار بين جبلين متباعدين، لكنها تستطيع أن تجمع بين رجل وامرأة يحتاج كل منهما للآخر! وبعدها تزوجته وارتبطت به، وكانت هي الملاذ الذي ملأ فراغ حياته، وصارت أنيسه وسلوة أيامه التي عوضته عن فقد الزوجة.

والدكتور لويس عوض حينما سكن في باريس خلال دراسته بالسربون، تعرف بزوجته التي شاركته رحلة حياته على مدار ٠٤ عاماً كانت كلها سعادة ووثام، ولم ينكر عليها إلا اقتناءها عشرة من القطط في بيت الزوجية. أما الدكتور طه حسين فإنه احتاج إلى مرافق له يقوده إلى الجامعة ويعود به، وكانت وقتها من سكان البيت الذي يسكن فيه، وكانت كذلك معينة له على القراءة بعد عودته من الجامعة فأحبها وهام بها ثم صارحها وتزوجها ودامت حياتهما ٠٥ عاماً منذ هذا الارتباط.

## الرماد النفيس

(الرماد النفيس) تحت هذا العنوان المتألق كانت مقالة الكاتب البارع (فهد الأحمدى) عن العقول القمعية التي لا تستطيع وأد الفكر بالفكر، وإهما تستعمل الجحيم والنار في محوه والقضاء عليه.. تذكرت هذا العنوان الرائع حينما قرأت نبأ الحوثيين الفجرة الذين لم يكتفوا بما أحدثوه في اليمن من اضطراب وقتل ودمار وتخريب وقتل آلاف اليمنيين، فإذا بهم يرتكبون جريمة في حق العلم والدين فأحرقوا كميات كبيرة من كتب الحديث الشريف والفقهاء السنية التي كانت موجودة في مكتبة السجن المركزي بالعاصمة اليمنية صنعاء في أواخر عام ٢٠١٥م بحجة أنها تدعو إلى التطرف وتساعد تنظيم داعش !

وذكر مصدر من داخل السجن: أن الكتب التي تم حرقها عبارة عن مؤلفات صحيح البخاري وصحيح مسلم والأربعين النووية وعدد من المؤلفات والكتب التي تتمتع بإجماع علماء المسلمين، وتمثل مراجع أساسية في العلوم الإسلامية .

وحاول عدد من النزلاء إثراءهم عن حرقها بدعوى أنهم دأبوا على قراءتها خلال فترة محكومياتهم، إلا أن كل توسلاتهم ذهبت أدراج الرياح، ولم تُجد في إثنائهم عن جرميتهم، بل تعدوا بالضرب على بعض السجناء الذين حاولوا الحصول على بعض تلك الكتب قبل حرقها وإنقاذها من النار!

وتوجد داخل سجن صنعاء مكتبة ضخمة تحوي كثيراً من الكتب الدينية والتثقيفية وتشرف عليها مصلحة السجون بموجب قانون السجون ولائحته التنفيذية، والذي يفرض على المصلحة تزويد النزلاء بكتب متنوعة لغرض الاطلاع عليها خلال الفترة التي يقضونها داخل السجن.

وبعد هذه الحماية الفكرية لعقيلة النزلاء اليمينيين ماذا فعل الحوثيون؟ لقد زودت مكتبة السجن بملازم لمؤسس الجماعة (حسين الحوثي) وكتب أخرى من مؤلفات قيادات حوثية وشخصيات إيرانية، وفرضت قراءتها بديلاً عن تلك الكتب التي تم حرقها، وهكذا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير!

وقد تسببت النار في إحراق تراث عظيم خلفته أمتنا في بلاد الأندلس على يد الأخرق الجاهل الكاردينال سيسنيروس الذي أمر عام ١٥٠١م بحرق (مكتبة مدينة الزهراء) التي كان بها ما ينيف على ٦٠٠٠٠٠ مخطوط في مكان يسمّى (باب الرملية) بغرناطة وهي ساحة كبرى معروفة ما زالت موجودة بها بنفس هذا الإسم العربي القديم حتى اليوم، يؤمّها السيّاح من مختلف أنحاء العالم، ويشرّبون بأعناقهم لمشاهدة اللوحة الرخامية التي كتب عليها هذا الاسم الذي أصبح لصيقاً ومقروناً باسم هذا الكاردينال ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن فعلته الشنعاء، وجريمته الزكراء التي دمّرت واختفت على إثرها العديد من المخطوطات وأمّهات الكتب النفيسة التي أبدعها علماء

أجلاء في مختلف حقول العلم، وفروع المعارف بالأندلس، ويقال إن الجنود الذين كلّفوا بالقيام بهذه المهمة كانوا يخفون بعض هذه الكتب أثناء إضرامهم النار فيها في أرديتهم لفرط جمالها وروعها إذ كان معظمها مكتوبا بماء الذهب والفضة، ولقد ظلّت هذه الحماقة الهوجاء وصمة عار، ونقطة قائمة في التاريخ الأسود لإسبانيا المتزمتة إبان محاكم التفتيش .

تؤكد المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): (وهكذا حرقت يد التعصب مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات، هي مجهود العرب في الأندلس وثمره نهضتهم في ثمانية قرون). ورافقت موجة حرق الكتب الحملة الصليبية، وتروي المصادر التاريخية أن مكتبة بني عمار في القرن العاشر الميلادي في طرابلس أحرقت. ويعود سبب حرقها إلى توهم الصليبيين أن جميع محتويات المكتبة هي نسخ من القرآن الكريم. فعند احتلال طرابلس كان يرافق الحملة الصليبية أحد القساوسة الذي تجول في القاعة المخصصة للقرآن الكريم، فاعتقد أن المكتبة بجميع قاعاتها مخصصة للقرآن الكريم، فأعطى أوامره بحرقها.

إن حرق الكتب عادة المفلسين الضعفاء الذين لا يملكون الحق ولا يعرفون الإنصاف.. كما أنهم أبعد ما يكونوا عن الحكمة والرزانة.. فمنذ متى والحرق وسيلة ناجحة في القضاء على الأفكار والآراء!؟

لقد أمر هتلر عام ١٩٣٣م بحرق كل الكتب التي تعارض النازية في الميادين والساحات العامة في كل المدن الألمانية، لأنه كان يكره العقل الحر والفكر المستنير فهما العقبة أمام استبداده وتسلطه.. وأراد من الألمان أن يلغوا عقولهم فلا يرون إلا رأيه ولا يتكلمون إلا بكلامه، ولا يفكرون إلا بتفكيره وهذا ما حدث، فلم يكن هناك مكان لرأي آخر أو وجهة نظر مخالفة، لم يكن هتلر وحزبه الغبي يخافون من أي شيء مثل خوفهم من الثقافة والفكر الحر المستنير المستقل، وكان أعوانه وعلى رأسهم وزير إعلامه (جوبلز) يؤمن إيمانا أعمى بهذا المنطق ويقول: كلما ذكرت كلمة مثقف تحسست مسدسي، واستطاع (جوبلز) أن يفرض وجهة النظر النازية على كل ما كان يصدر في ألمانيا بعد استيلاء الحزب، وقرر أن يحاكم كل ما صدر قبل عصره من كتب وآراء وأفكار، وكان يرى في معظم الإنتاج السابق على العصر النازي جريمة فكرية كاملة تستحق العقاب والمقاومة، ففي نفس السنة التي تولى فيها السلطة ١٩٣٣م وبعد حوالي ١٠٠ يوم يحدثنا (وليام شيرر) في كتابه (ألمانيا الهتلرية) عما حدث في ليل أحد الأيام فيقول: (وصل عرض قام به ألوف من الطلاب يحملون المشاعل عند منتصف الليل إلى ساحة عامة تقع مقابل جامعة (برلين) في شارع (أونتردن لندلن)، وسرعان ما اشتعلت النيران في كومة هائلة من الكتب وضعت على الساحة، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب في النار المشتعلة إلى أن بلغ ما أحرق منها نحو عشرين ألفا، ووقعت مناظر مماثلة في مدن أخرى، وهكذا بدأت عمليات إحراق الكتب،

وكان الكثير من هذه الكتب التي التهمتھا النيران في برلين تلك الليلة على مشهد من الطلاب الفرحين، ومرأى من الدكتور جوبلز وزير الإعلام النازي من تأليف عدد من المؤلفين ذوي الشهرة العالمية، من أمثال توماس مان وهنريخ مان وأرنولد وستيفن زفايخ وإيريك ماريا وألبرت اينشتاين وغيرهم، ولم يقتصر الإحراق على عشرات من الكتاب الألمان فحسب، بل تعداه إلى كتاب أجانب من أمثال جاك لندن وهيلين كيلر وه.ج. ويلز وفرويد وأندريه جيد وأميل زولا ومارسيل بروست، ويقول البيان الذي أصدره الطلاب: إن كل كتاب يعمل في تهديم مستقبلنا أو يضرب معاوله جذور ثقافتنا الألمانية وبيتنا الألماني، وقوى شعبنا المحركة، مصيره الإحراق.

أما جوبلز فقد ألقى خطابا على ضوء هذا اللهب المشتعل قال فيه: في وسع الروح الألمانية أن تعبر عن نفسها من جديد ولا يقتصر عمل اللهب في إضاءة الخاتمة النهائية لعهد مضى وإنما يضيء أيضا حقبة مقبلة.

وهكذا شهدت برلين في العاشر من مايو ١٩٣٣م حادثاً فريداً من نوعه في تاريخ الإنسانية وهو حريق الثقافة الذي أقيم كأنه احتفال وطني برعاية الدولة النازية وإشرافها، وكان هذا الحريق رمزاً لكراهية العقل الحر والرفض الكامل للتفكير المستقل، والدعوة المتعصبة للتخلص من الاختيار الحر الذي تقوم عليه الثقافة الحقيقية العميقة والاستسلام للفكرة الواحدة والرأي الواحد والتبعية الكاملة لكل ما يدور في رأس

وفي مذكرات (بريخت) نتوقف أمام خروجه من ألمانيا حيث يروي لنا عدوان هتلر على الثقافة والمثقفين وهوشأن المستبدين فيقول: (إن ألمانيا قبل ظهور النازية وسيطرتها على السلطة كانت تطرح شعاراً رضي به الجميع، وهو أن (الفن ملك الشعب)، وكان العمال الألمان على درجة طيبة من الثقافة والتعليم وكانوا يمثلون جانباً أساسياً من جماهير القراء والمترددین على المسرح والمهتمين بالفنون والآداب، وكانت الأزمة الاقتصادية المدمرة التي هددت الشعب الألماني بعد الحرب العالمية التي تثير القلق في نفوسنا جميعاً، وبدأت أكتب القصائد والأغنيات التي تعكس مشاعر الشعب وتهاجم أعداءه، وكان أعداء الشعب هؤلاء يتجمعون تحت راية هتلر حتى قبل وصوله للسلطة، ولم يلبث هذا الزعيم النازي صاحب الصوت الذي يشبه صوت الذئب، أن وصل إلى السلطة سنة ١٩٣٣م وكانت الهجمة الأولى لهتلر والنازية ضد الثقافة والمثقفين، فقد منع الرسامين من الرسم واستولى على دور النشر والصحف والمسارح واستديوهات السينما، وفي شهر فبراير ١٩٣٣م غادرت ألمانيا وكان ذلك في اليوم التالي مباشرة للحريق الذي دبره باسم (الرايشتاج) وبعد هذا الحريق بدأت الهجرة الجماعية للفنانين والأدباء والعلماء الألمان بشكل لم ير العالم مثيلاً له من قبل)

ومما يذكر أن هتلر أمر بأن يتلغ الكاتب (أرنست تولى) كتابه الذي كتبه ضد النازية والكتاب من ٤٧٠ صفحة وظل أرنست يأكل فيه حتى مات!

إن هذه الحماسة والعداء المفرط للثقافة والقراءة شيء طبيعي في سلوكيات المستبد، لأن الثقافة والكتاب هما أعدى أعدائه، فالثقافة تعني اليقظة والقراءة هي الطريق والمنبع الأوسع للثقافة..

وانتهى (هتلر) وعصره وبقيت الكتب ومفكراتها يدعمون الحياة بالثقافة والحرية والفكر والعلم، ولم تستطع ألسنة اللهب مهما كان زئيرها أن تقضي على الفكر والرأي، فالخلاف حول كثير من الأعمال والكتب والأفكار أمر طبيعي ومتوقع، لكنه لا يبرر حرقها ومنع الآخرين من الاستفادة منها ومهما حاول المانعون أو الحارقون؛ فإن منعهم لا قيمة له ولن يؤتي نفعه، لأنها أفكار دائمة خالدة يتغير الزمان لكنها لا تتغير، ويتبدل الحال لكنها لا تتبدل، ونرى أمة تصف بعض الكتب بالضلالة وتحرمها على شعوبها ثم لا يفتأ الزمان فإذا بها قائمة فيها مرغوبة مطلوبة يقرأها الناس، ولكنه التعصب الممقوت والإنكار على الآخر وعدم قبول آراء الآخرين والاندفاع للحكم عليها بعقل ضيق وأفق مخنوق.

وأما (فرانز كافكا) فكان أديبًا حساسًا يشهد أدبه بمعاناة الإنسان المعاصر من تمزقات وآلام ومأس كثيرة، وينظر النقاد لأدب (كافكا) على كونه مثالاً للأدب الأسود أدب التشاؤم والحزن والكتابة والآلام..

تعرضت حياته لإخفاقات كثيرة وفشل عاطفي وانتهى به الأمر إلى أن مات بالسل عام ١٩٢٤م وهو في سن الواحدة والأربعين.. تلك الظروف وما إليها قد أحدثت في نفسه ثورة ألم عظيم، وهم مقيم، وجعلته ينظر إلى الدنيا بعين كئيبة مظلمة قائمة السواد!.

ولاشك أن ينعكس كل هذا الأسى على أجمل ما في حياته.. أدبه ومصنفاته، ففي الوصية التي تركها لصديقه (ماكس برود) قبل أن يموت.. أوصاه أن يحرق كل كتبه وأوراقه، لأنها بنظره لا فائدة منها ولا نفع لها.. لكن ماكس لم ينفذ هذه الوصية المحيطة، وسارع إلى الاهتمام بتراث صديقه ونشر إنتاجه، وعرف به الدنيا وقدمه لمسارح أوروبا والعالم، ليصير (كافكا) عبر هذا الصديق المخلص من رواد الأدب العالمي الحديث.

ولكن القدر لم يحرم (كافكا) من تنفيذ وصيته بحرق كتبه، فبعد موته بسنوات جاء (هتلر) إلى الحكم كما أشرنا وأصدر أوامره بحرق كتب كافكا.. لأن مؤلفاته تصور الظلام النفسي الذي يمزق الناس، وكان هذا التصوير هو واقع الناس في ألمانيا قبل مجيء (هتلر) وبعد مجيئه كذلك!.

(إن الخلاف على طبيعة الكتب ومواقف الناس منها أمر طبيعي ومتوقع؛ غير أن هذا ليس سبباً لإحراقها ففي عام (٣٠٥) أصدر فقهاء قرطبة فتوى تحرم على الناس قراءة كتب أبي حامد الغزالي ومطالعة آثاره وأسفاره خاصة كتاب (الإحياء) بل وصل بهم الأمر أن

أفتوا بكفر من يقرأ هذا الكتاب أويطالعه..ثم سعى هؤلاء الفقهاء إلى استصدار موافقة من الحاكم المرابطي (ابن تاشفين) تقضي بحرق كتاب الإحياء، فجمعت نسخه في قرطبة وأتي بها، وملمت من سائر مدن المغرب وتم إحراقها كما أراد فقهاء المغرب في هذا الوقت، وكان الغزالي وقتها يعيش في المشرق الإسلامي وعاجزاً كل العجز عن إنقاذ كتبه والدفاع عن نفسه!

وليس صواباً من يشمت بالإمام الغزالي ويقول بأنه فعل مع الفلاسفة والفلسفة نفس ما فعله معه هؤلاء الفقهاء، وفعله لم يكن وصاية على القراء أو على دينهم، وإنما هي مسؤولية يراها الرجل ألقى عليه وواجباً لا بد له أن ينفذه، ثم إنه قبل ذلك فعل ما لم يفعل هؤلاء الفقهاء، فقد ناقش آراء الفلاسفة في كتبه وعلمه وهدم نظرياتهم وأظهر تهافتها بعقله الجبار، أما هؤلاء الفقهاء فدفعهم إلى ما فعلوه إما حسدٌ وإما جهلٌ أو عصبية رعاء لرأي فقهي أو خلاف مذهبي.

وفي التاريخ نجد حوادث كثيرة أحرقت فيها كتب عدت وقتها خطيرة أو مارقة في حين لا تبدولنا اليوم كذلك أو ببساطة لا يهمنا أمرها.. ففي الصين مثلاً أحرقت سائر الكتب العتيقة عام (١٢٣ ق.م) التي لا تناسب أفكار الإمبراطور المقدس (بيتشي)، وفي آسيا الصغرى أحرقت مكتبة برغام التي تضم ٢٠٠,٠٠٠ كتاب بسبب موجة فكرية مخالفة، وفي بغداد قذف المغول بكتب (دار الحكمة) في نهر دجلة حتى

ازرق لونه لمجرد الجهل بحقيقتها.. وحين اقتحم الرومان قرطاجة عام ١٤٣ق.م أحرقوا نصف مليون مجلد من ذخائر القرطاجيين، كما أحرق الرومان في مكتبة الإسكندرية والتي كانت تضم أكثر من (٧٠٠,٠٠٠) مجلد لا نعلم عنها شيئاً، ذهب بعضهم لاتهام العرب بحرقها حين دخل عمرو بن العاص لمصر، ولكن عددًا من المؤرخين أكدوا أن الاتهام خرافة وأسطورة فعمرو بن العاص فتح مصر عام ٦٤٢م وهو وقت لم تكن مكتبة الإسكندرية موجودة حتى يحرقها حيث تم إحراقها بالكامل في عهد يوليوس قيصر عام ٤٨ق.م.. وكل هذه الحوادث مجرد أمثلة لتبيان الكم الهائل من العلوم القديمة التي فقدت إلى الأبد بسبب لحظة اختلاف جنونية أوفورة تعصب فكرية، والتي لوبيقت سليمة لتسارع رتم الحضارة وكنا نقضي إجازاتنا الآن فوق سطح القمر والمريخ !

وليس أدل على تبدل المواقف من تغير أفكار الكاتب نفسه فيعمد لحرق كتبه بيديه، وهذه مأساة مختلفة؛ فسقراط وأفلاطون وديكارت وكونفشيوس أحرقوا كتبًا ألفوها بأنفسهم.

أما الكيميائي السويسري ( براسيلوس ) فقضى عمره في محاولة تحويل الحديد إلى ذهب وحين يئس أحرق - قبل وفاته عام ١٥٤١م جميع ما ألفه في علمي الكيمياء والمعادن..

أما في تاريخنا فقد ندم (وهب بن منبه) على كتابه (القدر) فقام بحرقه علنا، وكتاب الإرجاء للحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب

الذي قال عنه: (وددت لوأني مت ولم أكتبه) وهناك على الأقل ٣٧ عالماً وفقهياً ورد أنهم أحرقوا بعض كتبهم قبل وفاتهم مثل ابن سينا وابن فروخ والماوردي والحافي وابن جبير وسفيان الثوري وأبو عمرو بن العلاء) ٦٥

ربما تحرق الكتب التي يرى القائمون على الأمور أنها تخالف فكر الأمة وتضر بعقل الإنسان، ولكن الحرق في ذاته لا يعالج أي مشكلة ولا يحوأي رغبة وإرادة في الاطلاع والتواصل خاصة في عصر الانترنت والانفتاح الفضائي فكل ممنوع مرغوب، وفي الستينات أحرق المصريون كتبهم خوفاً من أن ينسب بعضهم للجماعات الدينية أوفكرة من الأفكار أوحزب بعينه يخالف بتوجهاته أهواء الحاكم الطاغية الذي استخدم الإرهاب لقمع الفكر والمعارضين.

قرأ (أنيس منصور) يوماً كتاباً تحت عنوان (نهاياتهم العجيبة) وهو الكتاب الذي تركته له صديقه الصعلوكة الفرنسية، كان الكتاب يسرد صوراً مأسوية لأدباء وشعراء ومفكرين أحرق مخالفوهم كتبهم ففي سنة ١٥٥٣ أحرقت فرنسا المؤلف (ميشيل سرفيتوس) مع كل كتبه، وأحرق لويس الرابع عشر مؤلفات باسكال عام ١٧٣٤م وأكثر الكتب التي أحرقت في القرن الثامن عشر في كل الدول الأوروبية عن مؤلفات الفيلسوف الفرنسي (فولتير)، وكتاب (دراسات في لغة الجنس) للعالم (هافيلوك إليس) ضبطته جمارك نيويورك فأحرقته أمام عينه،

---

65 - من مقال الرماد النفيس لفهد الأحمدى بصحيفة الرياض تاريخ ١٣/٢/٣١هـ

وفي ولاية ميسوري الامريكية أحرقت رواية (عناقيد الغضب) للكاتب الأمريكي (شتاينبيك) ورواية (عنبر إلى الأبد) للأديبة (كاتلين وينسور) أحرقتها الجمارك البريطانية .

أوحث هذه التصرفات لأنيس منصور أن يقرر لكتبه نهاية حينما قرر أن يقطع صلته بالماضي، وكان مزاجه في تلك المرحلة متوترًا غير مستقر، فكان أول ماجنى عليه كتبه، واختار لها نهاية تعيسة وقرر أن يدفنها في التراب ولا يبيعها للبائعين لأنه لا يطيق أن تتمزق أمامه، وأخذ يزرف عليها دموعًا كثيرة ووصف نفسه ساعتها بقوله: (كأنني واحد من الجاهلية رزق بنتا وهو يكره البنات.. يراها عارًا فراح يدفنها حية، دفنت بناقي وأهلت الطين عليها ) وأخذ يدفن المئات والمئات وكان الوأد وكانت الدموع، تصرف غامض للكاتب الكبير وإجراء شائك الملامح، لكنه على كل حال قد استراح نفسيًا بصنع هذه المأساة في شيء عزيز عليه!

إن النفس حينما تتأزم ويعدو عليها الزمن، فإنها تستهتر بكل قيمة في حياتها وتأتي على كل عزيز لديها وهوما حدث لأبي حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه وتراثه الكبير النفيس حينما أصيب بالتعاسة والبؤس والخيبة، لقد كان فيلسوفًا متصوفًا أديبًا بارعًا من أعلام القرن الرابع الهجري نشأ يتيماً فقيراً وعانى شظف العيش ومرارة الحرمان وانتقل بعد موت والده إلى كفالة عمه الذي كان يكرهه ويقسوعليه ولما شب امتهن مهنة الوراقة التي أتاحت له التبحر

في العلم والمعرفة فصار موسوعي الثقافة، وأراد أن يغير من حياته ويخرج من غياهب فقره، وأن يحظى بعناية الأمراء ورعاية الوزراء، فاتصل بكثير منهم رجاء أن يكافئوه على إنتاجه وعلمه، لكنه كان يعود بعد كل هذا صفر اليدين خائب الآمال مما ولّد لديه حالة من الإحباط الدائم واليأس المستمر والنقمة على الحياة ومن فيها، فلم يجد سبيلاً يرضي به نفسه البائسة إلا أن ينتقم من كتبه التي رأى أنه لا نفع منها، حيث لم تجر عليه أي شيء، كما رأى أن يرضن بها على من لا يعرفون قيمتها ولا يقدرّون مقامه، فجمعها وأحرقها ولم يسلم منها غير نذر يسير نقل قبل الإحراق..!

ويرجع بعضهم السر فيما لاقاه التوحيدى من إعراض عصره عنه وما عاش فيه من عناء وفشل إنما يعود إلى طباعه وسماته حيث كان مع علمه وذكائه وفصاحته وأدبه واسع الطموح شديد الاعتداد بالنفس سوداوى المزاج وغيرها من الصفات والعوائق التي جلبت الإعراض عنه، وسببت له المتاعب ووضعت العوائق والصعاب في طريقه، وحالت دون وصوله لبغيته وتحقيق طموحه.. وكان مما قال يصف به حاله:(فقدت كل مؤنس وصاحب ومرافق ومشفق، ووالله لربما صليت في الجامع، فلا أرى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أوعصار أونداف أوقصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة

معتاداً للصمت ملازمًا للحيرة محتملاً للأذى يائسًا من جميع من  
ترى)

ولم يبق من كتبه التي ألفها وتبلغ العشرين إلا القليل، ولم يطبع  
منها إلا المقابسات والصدقة والصديق ورسالة في العلوم وما بقي  
منها مخطوطًا.

## كُتُب ممنوعة !

الكتاب دوّمًا عدوالمستبدين وخصم المتسلطين، ينال منهم العقوبة والاعتقال قبل كاتبه، ففي عهد عبد الناصر كانت الكتب الفكرية تُصادر ويعدم كتابها ويزج بهم في السجون، ويلقون بسببها أشد أنواع التعذيب والاعتقال، وكان البيت الذي يجدون فيه كتابًا يجرمونه، فيا ويل صاحبه ومالكه الذي يذهبون به خلف الشمس لا يعرف طريقه أحد..

يقول ألبرتومانغويل في كتابه تاريخ القراءة:(إن الحكام الدكتاتوريين يخافون الكتب أكثر من أي اختراع بشري على الإطلاق، ولذا نرى أن القوة المطلقة لا تسمح إلا بنوع واحد من القراءة، أي النوع الرسمي، وبدل المكتبات الكاملة المملوءة بالآراء المتنازعة لا يراد الارتقاء إلا على كلمة الحاكم بأمره)

(مارتن لوثر) قسيس ألماني وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران ورفضه أن يكون البابا وحده له القول الفصل عند تفسير الكتاب المقدس، معتبرًا أنّ لكل امرئ حق التفسير، وطالب السماح للقسيسين بالزواج، بل تزوج هو من إحدى الراهبات، هذا كله أدى به للنفي والحرم الكنسي، وإدانتته مع كتاباته بوصفها هرطقة وخارجة عن القوانين.

وردًا على هذه الجراءة حضرت مؤلفات (لوثر) واعتبر كزنديق سيئ السمعة، وجرمت الكنيسة كل مواطن في ألمانيا يؤويه أو يقدم له مساعدة، كما أهدر دمه بمعنى أن قتله العمد لن يتسبب بأي أثر قانوني.. هذا كله قبل أن تستقر الكنيسة البروتستانتية، ويصبح (مارتن لوثر) أحد رموز الإصلاح وعصر التنوير الأوروبي، ويكرم في جميع المدن والمحافل والمتاحف كأبرز الذين أشرعوا بوابة عصر الأنوار داخل قلاع العصور المظلمة الأوروبية ومحاكم التفتيش).<sup>٦٦</sup>

وهناك كثير من الشخصيات في تاريخنا الإسلامي صودرت كتبهم وحُظر نشرها أو قراءتها مثل (الكندي) الفيلسوف الكبير الذي احتفى به الخليفة المأمون والمعتصم، لكن الخليفة المتوكل أمر بضره ومصادرة كتبه، واتهم بالزندقة وكان يدافع عن نفسه: بأن أعداء الفلسفة جهلة وأغبياء وتجار دين.

(الفارابي) الذي يعرف عند الغرب بـ (Alpharabius) ألف في الفلسفة والمنطق والطب والموسيقى وحاول أن يثبت أن لا خلاف بين الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية، كفره الفقيه الغزالي هو وابن سينا، ومنعت كتب ابن رشد والغزالي وغيرهم كثير من المفكرين والعباقرة.

ثم هل تتخيل.. أنه في زمن من الأزمان كانت قراءة الأدب واقتناء كتبه عملاً مستنكراً يكاد يصل إلى درجة المنكر، وكان المجتمع المصري

---

66- صحيفة الرياض - الاثنين ١٦ ذي القعدة ١٤٣٦ هـ - ٣١ اغسطس ٢٠١٥ م  
- العدد ١٧٢٣٤،

مع بواكير النهضة الأدبية بعدها ترفًا مفرطًا وصورة من صور العيب والفجور.. وإذا أخبر المعلم عن طالب أنه يقتني كتابًا أدبيًا أويقرأ فيه فإنه يعنفه ويزجره بشدة وكان بعضهم يخفي النظرات للمنفلوطي في ثيابه حتى لا يراها أحد فيشي به أويتقول عليه!.

وحيثما سافر المويلحي إلى فرنسا وكتب (حديث عيسى بن هشام) وصور فيه البيئة المصرية على طريق مقامات الحريري، ذهب الناس إلى والده وكان من علماء الأزهر وعاتبوه عتابًا شديدًا على ما كتبه ولده واستنكروا هذا الحدث وتصوروه بدعة شديدة.. وحيثما عاد (محمد حسين هيكل) وكتب رواية (زينب) لم يكتب عليها اسمه، لأنه خشي على مهنته ووضعها الاجتماعي، وحثرًا من أن يناله المعارضون بالنقد اللاذع، فلم يجد إلا أن يوقع عليها باسم (فلاح مصري) وكان الآباء والمعلمون والشيوخ والمجتمع كله ينكر هذا اللون من القراءات ولا يعده فسادًا في الذوق وإنما فسادًا في الأخلاق!.

وكان الأستاذ (توفيق الحكيم) واحدًا من هؤلاء الذين عاينوا مرارة هذا الحظر المحكم، الذي جعله يتخفى عن الأعين ليقرأ ما تتوق إليه نفسه، حتى كاد هذا التخفي أن يحدث في بيته كارثة كبيرة، يقول الحكيم: (إني عندما أجد اليوم كتب الأطفال الملونة بما فيها من قصص وأساطير دينية وتاريخية ومغامرات خيالية، عندما أجد في متناول يد ابني وقتما كان في السادسة والسابعة والثامنة قصص

الأنبياء ملونة بالرسوم في أسلوب لطيف وقصص الفراعنة واليونان والعرب، والإلياذة والأوديسا كلها ومغامرات (سويفت) و(روينسون كروزو) وأقاصيص اندرسن وغير ذلك من المطالعات الممتعة الموسعة للخيال مبسطة سهلة التناول، أغبط هذا الجيل، بل إني عندما أرى الروايات والقصص والمسرحيات يقرأها الشباب دون رقابة أو اعتراض من أولياء الأمور، بل على العكس أصبحت قراءتها اليوم مما ينصحون به ويدفعون إليه على اعتبار أنها مطالعات جديفة محترمة، بعد أن ارتفعت اليوم كلمة الرواية أو القصة المسرحية إلى مواضع التبرجيل لدى الناس جميعا من رسميين وآباء عندما أرى ذلك كله، أغبط كذلك شباب هذا الجيل وأطالبه أيضا بأن يقرن ما حبه به العصور الحديثة من معونة وتيسير بإجادة منه أكثر وإتقان أعظم، فهو لم يتخبط على الأقل في مطالعته، ولم يجد من يقف في طريق سيره العقلي الطبيعي.

إني كنت أتخفى بمطالعاتي القصصية عن عيون أهلي، كما لو كنت أرتكب وزراً من الأوزار مع أنها في أغلبها كانت على مستوى جيد من حيث التأليف والترجمة، كنت أتسلل حاملاً الكتب لأقرأها تحت سريري، كان ذلك السرير مفروشاً بملاءة تتدلى أطرافها إلى الأرض حاجبة من يتخفى تحته كأنها ستارة مسدلة، فما كان أحد يراني أويكتشف مكاني، لكن تلك الملاءة أو الستارة كانت تحجب عني النور، فما كنت أبالي أحياناً وكنت أمضي أقرأ في الظلام حتى أعجز عن تمييز الأسطر، فأخرج خفية وأحضر شمعة أشعلها وأعاود القراءة على ضوءها،

هكذا كانت تسير الأمور، إلى أن حدث ذات يوم أن جاء موعد الغداء فجعلوا ينادون علي وأنا مستغرق في قراءة، ثم فطنت إلى ندائهم المتكرر، فخرجت من تحت السرير مهرولاً تارگًا من ارتبائي الشمعة موقدة وبينما نحن منهمكون في طعامنا إذا بصراخ يتعالى في الطريق والجيران يتصايحون، حريقة.. حريقة! فارتاعت والدتي وأرادت النهوض لتتحري الخبر، فأجلسها والدي مطمئنًا قائلاً: لا ترتاعي إنها ولا شك حريقة في الشارع بأحد الحوانيت الصغيرة والجيران والمارة من أدهم التهويل! لكن. لم تمض لحظة حتى كان الطرق على بابنا نحن والناس يصيحون بنا: عندكم حريقة، وهنا أفاق أهلي ونهضوا فزعين مرتاعين يبحثون في أنحاء المنزل، وإذا الحجره التي أنام فيها هي قد تصاعد منها الدخان وتأجج فيها اللهب وظل الجميع يكافحون النيران حتى أطفئت، وظل والدي يبحث عن سبب هذا الحريق ويتحري بدقته وتحقيقه وأنا ساكت منكمش لا أنبس بحرف)<sup>٦٧</sup>

حتى وهو كبير.. تخفى عن الناس حتى لا يعرفوا أنه هو الأديب (توفيق الحكيم)، ورفض نشر رواياته وحينما نشرت كان ينكر أنه توفيق الحكيم المطبوع اسمه على الغلاف!

كان الإمام الشافعي رحمه الله في حادثة سنه نهماً في طلب العلم، جادا في تحصيله، يغريه منه كل غريب ويتوق فيه إلى كل نادر، وقد رأى في حادثة سنه أن يطلب علم الفراسة ويمارسها ممارسة عملية،

---

67 - توفيق الحكيم يتذكر - جمال الغيطاني

فلازم الأعراب في البادية وهو صغير، ثم أخذ كتبها من اليمن ومما قال: (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتها جميعاً)<sup>٦٨</sup>

وكان وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه، ومما يروى عن براعته في ذلك أنه جلس يوماً مع رجل كانت زوجته تعاني من طلق الولادة.. فحسب لذلك وقال: تلد جارية عوراء، على فرجها خال وموت لكذا، فولدت فكان كما قال، فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبداً، ثم دفن تلك الكتب التي نقلها من اليمن.

وأخرج الحاكم عن طريق حرمله قال: كان الشافعي ينظر في كتب النجوم، وكان له صديق، فذكر القصة وقتها فقال: تلد إلى سبعة وعشرين يوماً، وقال: في فخذ الأيسر خال أسود، يعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت فجأة، وقال فيها، فأحرق الشافعي تلك الكتب وما عاد ينظر في شيء من ذلك.

وقد تخلص الشافعي من هذه الكتب لأنها خطيرة، ولو وقعت في يد مرضى القلوب لربما خدعوا بها الناس وصوروا لهم أنهم على علم بالغيب والتأويل، ليكونوا فتنة للناس في عقيدتهم ودينهم، والشافعي إمام جليل ما كان له أن يضل الناس أو يفتنهم عن دينهم، ورغم حرقه لهذه الكتب، إلا أنه مارس الفراسة في بعض المواقف، وهي مما أفاده في معرفة الناس والوقوف على طبائعهم وسماتهم،

ومنها بل من أطرفها ما رواه الحميدي وهو من أئمة الحديث قال  
نقلا عن الشافعي: (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى  
كتبتها وجمعتها، ثم لما حان انصرافي، مررت على رجل في طريقي؛  
وهو محتب بفناء داره، أزرق العينين، ناقيء الجبهة سناط- لا لحية له-  
فقلت له: هل من منزل؟ فقال: نعم قال الشافعي: وهذا النعت  
أخبث ما يكون في الفراسة، فأنزلني فرأيت أكرم رجل، بعث إلي  
بعشاء وطيب، وعلف لدابتي وفراش ولحفًا، فجعلت أتقلب الليل  
أجمع، ما أصنع بهذه الكتب؟

إذ رأيت هذا النعت في هذا الرجل، فرأيت أكرم رجل، فقلت: أرمي  
بهذه الكتب، فلما أصبحت قلت للغلام: أسرج فأسرج، فركبت ومررت  
عليه، وقلت له: إذا قدمت مكة، ومررت بذي طوى، فسل عن منزل  
محمد بن إدريس الشافعي .

فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا؟! قلت: لا.

قال: فهل كانت لك عندي نعمة؟! فقلت: لا.

فقال: أين ما تكلفت لك البارحة؟ قلت: وما هو؟

قال: اشتريت لك طعاما بدرهمين، وإدامًا بكذا، وعطرًا بثلاثة دراهم،  
وعلفًا لدابتك بدرهمين، وكراء الفراش واللحاف درهمان.

قال: قلت: يا غلام أعطه، فهل بقي من شيء؟

قال: كراء المنزل، فأبني وسعت عليك وضيقت على نفسي، قال  
الشافعي: فغبطت نفسي بتلك الكتب، فقلت له بعد ذلك: هل

بقي من شيء ؟

قال امض، أخزأك الله فما رأيت قط شرا منك)<sup>69</sup>

وروى المزني قال: كنت مع الشافعي في الجامع إذ دخل رجل يدور على النيام، فقال الشافعي للربيع: قم فقل له: ذهب لك غلام عبد أسود مصاب بإحدى عينيه؟

قال الربيع: فقلت إليه فقلت له، فقال: نعم، فقلت تعال، فجاء إلى الشافعي، فقال: أين عبيدي؟ فقال: مر تجده في الحبس، فذهب الرجل فوجده في الحبس، قال المزني: فقلت له أخبرنا فقد حيرتنا! قال: نعم، رأيت رجلاً دخل من باب المسجد، يدور بين النيام، فقلت: يطلب هارباً ورأيتَه يجيء إلى السودان دون البيض، فقلت: هرب له عبد أسود، ورأيتَه يجيء إلى ما يلي العين اليسرى، فقلت: مصاب بإحدى عينيه، قلنا: فما يدريك أنه في الحبس؟ قال الحديث في العبيد، إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا، فتأولت أنه فعل أحدهما، فكان كذلك.

وهذا الموقف من أروع الدلالات التي تؤكد على عقلية الشافعي الباهرة وحسن استنباطه وذكائه الحاد!

ما أقسى أن يحرم الإنسان من كتاب يهواه وتتوق إليه نفسه

69- آداب الشافعي ومناقبه (129)

للتقليب في صفحاته، وهونوع قاس من الحرمان لا يشعر به إلا من يعرفون قيمة القراءة، ويعشقونها كهواية.

الكاتبة السعودية (نبيلة محجوب) تذكر تلك المرحلة من صباها التي حُرمت فيها من الكتب التي تهواها فتقول: ( بدأت أتعرف على الكتب خارج الكتاب المدرسي، فكان الطريق إليها محفوظًا بالمخاطر، الحيلة وسيلتنا للقراءة، ليصفولنا الجوساعة بصحبة ديوان شعر لنزار قباني أرواية لنجيب محفوظ أو إحسان عبد القدوس، نخفيها في حقائبنا المدرسية عندما كان سيفنا في ربوع الطائف، هوجهة السفر الوحيدة لمعظم المكين)

وكما قيل: (الكتاب له جلاله وله شخصيته المحترمة، وهوزورق محكم الصنع، يعبر بك خضم العلوم بشتى ألوانها وطعومها وأعماقها ونكهاتها.. وهوبحجم المضمون.. بحجم ما فيه من معلومة فهوسائح يخر بك أمواجًا بعضها متلاطمة وبعضها هادئة ساجية)

## كتب خلف القضبان

شيء جميل ورائع ما فعلته رومانيا لتشجيع الإبداع والتأليف وإثراء عالم الكتب حيث تسمح اللائحة القانونية التي وضعت منذ عام ١٩٦٩م بإعفاء السجناء أصحاب المؤلفات من السجن ٣٠ يومًا عن كل كتاب يؤلفونه بالسجن، وذلك إذا نشرت لهم كتب علمية ذات قيمة علمية.. لكن سرعان ما اعتزمت رومانيا لإلغاء هذه اللائحة، وقالت وزيرة العدل (روالوكا برون) في بوخارست: أنها تعتزم التقدم بشكل عاجل لمجلس الوزراء بلائحة جديدة بهذا الشأن.. فماذا حدث ياترى حتى تلغى هذه اللائحة الرائعة ؟

في السنوات الأخيرة في رومانيا شهدت تزايد أعداد السجناء الذين ألفوا الكتب في السجون، حيث بلغ عدد هذه الكتب عام ٢٠١١ م ثلاثة كتب ليتصاعد بشكل صاروخي في عام ٢٠١٥م إلى ٣٤٠ مؤلف، ويعود هذا التزايد الملحوظ في إبداع تأليف الكتب للسجناء في رومانيا، إلى الحملة القوية التي شنتها الحكومة ضد الفساد عام ٢٠١٢م مما أدى لإدانة آلاف السياسيين والمسؤولين البارزين ورجال الأعمال وسجنهم..!

وهنا ظهر السبب الرئيسي لهذا الشطط الكبير في عالم التأليف والكتابة، حيث أجرى الادعاء تحقيقات ضد دور نشر وجامعات وأساتذة جامعيين للاشتباه في تقديم مزايا للسجناء الذين ألفوا كتبًا أثناء فترة قضاء العقوبة، وذلك لأن القانون الحالي يوجب بحصول

الكتاب على شهادة من متخصص بأن الكتاب له قيمة علمية تستحق أن يعفى صاحبه من السجن لمدة ٣٠ يومًا.

الفكرة طريفة وهامة وداعمة لمسيرة الإبداع ولكن يد الفساد قضت عليها حينما جعلتها مطية لبراءة المدانين.

من المؤلفين الكبار من ارتفعوا فوق جدران السجون والسلاسل، فكتبوا وهم في الأغلال وكانت كتبهم إعلانا بأنهم أعلى وأقوى من كل القيود..!

الأديب الإسباني (سرفانتس) كتب روايته الرائعة (دون كيشوت) في السجن..

وأوسكار وايلد كتب (من الأعماق) وهو في السجن..  
والعقاد كتب (عالم السدود والحدود) في السجن..

السجن والاعتقال بلاء وكرب يصيب الإنسان بالوحشة واليأس والقنوط، لكنه عند أهل الفكر والثقافة والعلم شيء آخر وشعور آخر! فقد يعتبره بعضهم فترة استجمام أوخلوة أو فرصة للقراءة والبحث والتأمل، وفي تاريخ المكتبة العربية نجد كتباً كثيرة ألفت في غياهب السجون أو سجلت أفكارها في قاع الزنازين، وكانت قمة في الإبداع حينما اختمر مدادها الذي كتبت به مع محنة صاحبها ونفسه وآلامه وبلائه.

لقد كان الإمام (ابن تيمية) رحمه الله من أولئك الذين ألفوا وأبدعوا كثيراً في سجنهم، وكان السجن له فرصة كبيرة لينشغل بالمطالعة والتأليف وتنقيح ما كتب من مؤلفات ورسائل، لقد ألف في محبسه كثيراً مما يتصل بتفسير القرآن كما ألف الرسائل ورد على بعض المسائل، وكان يرد ويجيب على ما يرد إليه من الخارج من الأسئلة العلمية والاستفتاءات الفقهية..

واستمر الشيخ في ذلك العطاء العلمي في سجنه، حتى صدر قرار شكل ضربة قوية للثقافة الإسلامية وإضراراً كبيراً بحرية الفكر والبحث.. يقول أبو الحسن الندوي في كتابه القيم عن الإمام ابن تيمية:

(كان الناس يتلقفون كل ما كان يكتبه الشيخ في المحبس، ويصل من أقصى البلاد إلى أقصاها، ومن بين ما كتبه الشيخ من الرسائل والمسائل في حبسه رسالة في موضوع مسألة الزيارة ردّاً على أحد قضاة المذهب المالكي في مصر القاضي عبدالله بن الإخنائي، أثبت فيها أن القاضي المذكور رجل قليل البضاعة في العلم، فاشتكى القاضي إلى السلطان وأبدى سخطه واستنكاره، فأصدر السلطان مرسومًا يصرح بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكتب، حتى لا يبقى عنده ما يستعين به علي التأليف والكتابة، ونفذ المرسوم وصودرت أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ باسم الحكومة وأرسلت جميع مسوداته

وأوراقه من المحبس إلى المكتبة الكبرى وكان ذلك نحو ٠٦ مجلدا من الكتب وأربع عشرة ربطة كراريس كان يشتغل بها دراسة وتأليفًا)

وبعد هذا القرار العنيف ما كان لابن تيمية أن يستسلم لجورهم ولم يفتعه شيء من تسلط السلطان عليه، ولم يفكر حتى أن يرفع شكواه إلى الحكومة، فحينما أخذوا منه أدوات الكتابة فكر أن يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة، ووجدت له عدة رسائل وكتابات مكتوبة بالفحم، وظلت على حالتها محفوظة.. وما حدث لابن تيمية نوع من الحصار الفكري أو المصادرة الفكرية، ومن باب كتم العلم الذي لا يتحمل وزره إلا من منعه، وما كانت مقاومته لذلك إلا نوعًا من الجهاد استحسنه واستعذب النضال فيه راضيًا شاكراً حتى أنه قال يصف حالته: ( ونحن والحمد لله في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان والجبليّة، والجهمية والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون )

وقد أملى (السرخسي) كتابه المبسوط في نحو ٥١ مجلد وهو في السجن بأوزجند من بلاد ما وراء النهر، وسبب حبسه أن حاكم البلدة التي كان فيها واسمها أوزجند، تزوج جارية قبل أن يستبرأها.. فسئل السرخسي عن فعل ذلك؟ فقال: فعله حرام لا يجوز ونكاحه باطل، فغضب منه الحاكم وسجنه في بئر هناك، وبقي محبوسًا نحوًا من عشر سنين، فسأله الطلاب وهو في السجن أن يشرح لهم كتاب

محمد بن أحمد المروي، وهو أحد متون الأحناف المهمة؛ فأجابهم لذلك رحمه الله، وأملى كتابه المبسوط نحوًا من عشرين مجلدًا وقيل خمسة عشر مجلدًا وهو في السجن بأوزجند، وطبع الكتاب في ١٣ مجلدًا..!!

وقال عند فراغه من شرح العبادات (هَذَا آخِرُ شَرْحِ الْعِبَادَاتِ بِأَوْضَحِ الْمَعَانِي وَأَوْجَزِ الْعِبَارَاتِ، أَمَلَاهُ الْمَحْبُوسُ عَنِ الْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ مُصَلِّيًّا عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ مُحَمَّدٍ الْمُبْعُوثِ بِالرِّسَالَاتِ وَعَلَى أَهْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، تَمَّ كِتَابُ الْمَنَاسِكِ وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَلَهُ الْحَمْدُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَفْنَى أَمْدُهُ، وَلَا يَنْقُضِي عَدَدُهُ).

وقال في شرح الإقرار: انتهى شرح الإقرار المشتتم على المعاني على ما هو من الإقرار أملاه المحبوس في محبس الأشرار..وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير الكبير، أملاه وهو في الحب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرغ فأطلق.

وهذا (أحمد بن علي بن هبة الله الزوال) المتوفى سنة ست وثمانين وخمس مائة، تولى القضاء سنة ٥٣٤ ولما تولى المستنجد حبس القضاة وبقي ابن المأمون في الحبس إحدى عشرة سنة، وأخذ جميع ما يملكه وكتب في الحبس ٨٠ مجلدة منها (الجمهرة) لابن دريد مجلدان، و(شرح سيبويه) ثلاث مجلدات، و(إصلاح المنطق) محشى مجلدة، و(الغريبين) للهرودي مجلدة، و(أشعار الهذليين)، ثلاث مجلدات، و(شعر المتنبي) مجلدة، و(غريب الحديث) لأبي

عييد مجلدتان، وأشياء غير ذلك، وهذا الشاعر (عبدالمملك بن غصن الأندلسي)، من أهل وادي الحجارة، حبسه حاكم (طليطلة)، وصنف وهو في مدة حبسه كتابه (السجن والمسجون، والحزن والمحزون)، ضمنه ألف بيت من شعره، وسماه أيضًا رسالة: (السر المكنون في عيون الأخبار وتسلية المحزون)، وتنقل بعد إطلاقه من السجن بين بلنسية وقرطبة، وتوفي بغرناطة.

وذكر (الزركلي) في (الأعلام) خبر ابن قاضي (سماونة) وهو فقيه حنفي، متصوف، من القضاة، كان أبوه قاضيًا بقلعة سماونة في سنجق كوتاهية بتركيا، التي ولد وتعلم بها، ورحل إلى قونية ثم إلى مصر، وحج وتصوف، ورحل إلى تبريز مرشدًا فأكرمه فيها الأمير تيمورخان، وعاد إلى مصر فبلاد الروم واستقر في أدرنة، وكان بها والداه، فنصب قاضيًا للعسكر، وحبس في وشاية ففر، وصار إلى (زغرة) من ولاية (روم ايلي) فاتهم بأنه يريد السلطنة، فأخذ وقتل بسيروز، له كتب منها: (لطائف الإشارات) في فقه الحنفية، ألفه ثم شرحه بكتاب سماه (التسهيل) وهو سجين في (أزنيق)، وذكر الزركلي كذلك خبر (محيي الدين بن خير الدين أبو الكلام آزاد) أحد زعماء المسلمين في الهند في فترتها التحريرية، وهو مفسر وخطيب، ولد بمكة وتعلم بالأزهر ودرس على علمائه، وعاد إلى وطن أبيه (الهند) فسكن كلكتة، وأنشأ فيها مجلة (الهلال) باللغة الأردية (سنة ١٩١٢م)، وهاجم الاستعمار البريطاني فاعتقله الإنكليز في رانتجي (سنة ١٩١٤م) فألف (تفسيرًا) للقرآن الكريم في ١٥ جزءًا بالأردية، وأطلق من معتقله (١٩٢٠م)،

فأنشأ مجلة (البلاغ)، وتكرر اعتقال البريطانيين له، فأمضى في السجن أحد عشر عامًا لم يصرفه عن هدفه في مقاومة الإنجليز، وصنف في السجن كتابه (التذكرة) بالأردية، وهو الذي سجل فيه فلسفته الثورية وعقيدته السياسية.. وهناك نماذج كثيرة في تاريخ سلفنا الصالح رضوان الله عليهم من ألفوا كتبًا هامة ومؤثرة في فترة اعتقالهم، وقدر لبعض الزنازين أن تكون المهة الأول لكتب علمت الناس وأثرت في فكر الأمة وكان لها قيمتها العلمية الكبيرة.

والمجاهدون من العلماء والدعاة قديمًا وحديثًا يتجددون مع تجدد الصراع بين الحق والباطل بنفس الروح وبنفس العزيمة وبنفس اليقين والإيمان وفي العصر الحديث لم يقدم هذه الصورة النادرة العظيمة إلا علماء ودعاة جماعة (الإخوان المسلمين) وكان هذا إرهابًا بأنهم حملة الحق وأهل الصدق، وورثة هذا الإرث الزكي من جهاد السابقين وبلائهم، فمن هذا كتاب (في ظلال القرآن) لصاحبه الشهيد (سيد قطب) الذي قيل فيه: (التفسير الذي هرب في صدور النساء) حيث منع المجرمون عنه الأوراق والأقلام لكي لا يكتب خواطره أو أفكاره التي هي عليهم أشد من جلد السيوف ولسع الشياطين.. وما سجن إلا لهذه الأفكار!

قال فيه أخوه الأستاذ المفكر الكبير (محمد قطب) رحمه الله: (الكتاب الذي عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيانه كله.. وعاشه لحظة لحظة، وفكرة فكرة، ولفظة لفظة.. وأودعه خلاصة

تجربته الحية في عالم الإيمان) ولقد عاش مع هذا الكتاب مدة ٢٥ عامًا وقدر للجزء الأكبر منه أن يخط سطره في غياهب السجون الناصرية.

ومن أروع الكتب التي ألفت عن سيدنا (عمر بن الخطاب) ﷺ كتاب (شهيد المحراب عمر بن الخطاب) للأستاذ (عمر التلمساني) رحمه الله وقد قال في مقدمته: ( كان من فضل الله تعالى أن دونت مسودات هذا الكتاب بين سجون أربعة: اليمان وقنا وأسيوط ومعتقل مزرعة طره، وكانت إشراقات ابن الخطاب بعد الركون إلى جانب الله، من باعثات الطمأنينة إلى القلب والرضا بقدر الله حلوه ومره عن طواعية واقتناع.. وهو كتاب لو ألهم الله حكام المسلمين أن يقرأوه لكان في هذا خير كبير لهم، يثبت أركان حكمهم ويحبب فيهم شعوبهم ويجمع القلوب حولهم، يغنيهم ذلك عن كثير المعاناة والإنفاق في تثبيت أركان تلك العروش المهتزة المتقلقلة التي يبيت أصحابها على وجل إذا أصبحوا سألوا أنفسهم هل سيبيتون، وإذا باتوا سألوا أهلوهم هل سيصبحون؟! )

ونأتي إلى المغامر الكبير صاحب كتاب (حينما غابت الشمس) هذا السفر العظيم الذي يحيي أتعس حقبة مرت بمصر.. إنه الأستاذ (عبد الحليم خفاجة) رحمه الله من الرعيل الأول لجماعة (الإخوان المسلمين) وكيف خاض هذه التجربة المثيرة حينما عزم تأليف كتابه وهو في السجن؟ وكان يدرك تمام الإدراك أن هذا العمل لو كشف

لعجل بشهادته وموته، فالورقة والقلم كانت تهمة يلقي صاحبها العنت الشديد وما أدارك وهو يدون في هذه الأوراق صوراً مزرية من إهانة الإنسان لأخيه الإنسان، ويحكي مشاهد مؤلمة لهذا النظام الجبان وطاغيته الذي حارب الإسلام وذبح دعائه، وسجنهم البقية في المعتقلات، كانت محاولة الأستاذ خفاجة في هذا الكتاب الخطير محاولة جريئة وشجاعة وغير مسبوقه وما كان يملك من أمر نفسه شيئاً فقد كان هناك نداء من داخله يلح عليه بالشروع في عملية التدوين وكانت قصة مدهشة نتركه وحده يحكيها لنا حتى نرى حجم المجازفة ومدى الخطورة.

يقول الأستاذ (عبد الحليم خفاجة) في مقدمة كتابه (حينما غابت الشمس): (الفضل لله تعالي وحده، ثم لاثنين من الأخوات في إخراج هذه المذكرات، من الظلمات إلي النور، في وقت كان يجبن فيه عن التضحية أشجع الرجال.. الأولى هي الأخت أم جهاد زوجة أحد الأخوة المعتقلين، والثانية هي الأخت نفيسة زوجة الشهيد أحمد نصير.. الأولى غامرت بتهريبها إلي خارج المعتقل، رغم سلسلة التفتيشات التي يتعرض لها الزوار والمعتقلين علي السواء.. والثانية لم تتردد في الاحتفاظ بالكشاكيل الخمسة التي سُرِّبت إليها تبعاً، رغم أنه لم يكن قد مضي علي استشهاد زوجها بالمعتقل عدة أشهر، وكان بيتها لذلك هو أصلح مكان للحفظ بعد أن خفت الرقابة عليه، ولولا هاتين الأختين المجاهدتين لطويت الفكرة في الصدور.. فلقد ترسب في نفسي اقتناع جازم سنة ١٩٦٩م وما بعدها حتى تاريخ وفاة عبد

الناصر سنة ١٩٧٠م أننا باقون خلف الجدران حتى نلقي الله، وكان هذا الاعتقاد الذي تعددت شواهدة لدينا وراء مغامرة كتابة هذه المذكرات، التي لن يصيبني منها أي سوء سوى التعجيل بالشهادة، وهي خيرٌ عندي من الموت البطيء .

ظهرت بوادر هذه النية الشريرة بفتح الزنازين علينا ليلاً ونهاراً لأول مرة بعد أربعة عشر عاماً من السجن والاعتقال، وذلك علي سبيل التخدير للحيلولة دون حدوث أي انفجار داخلي، في وقت بدأ النظام فيه ضعيفاً بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ ومحتاجاً إلي دعم الدول العربية بعد مؤتمر الخرطوم، وإلي مساندة الرأي العام الإسلامي، ولا يريد تعكير صفوهذه العلاقات بأي عمل يشتم منه رائحة معاداة الروح الإسلامية في الأمة، فكان في فتح الزنازين والاكتفاء بإغلاق أبواب العنابر الخارجية إلهاء لنا عن التفكير في أي عنف، بما يوحي به الفتح من قرب تصفية الأوضاع الاستثنائية، خاصة بعد صدور بيان ٣٠ مارس المخصص للكلام عن الحريات.. وكانت الثورة تبذل جهداً مستميتاً للتوفيق بين نية البطش والتنكيل بالحركة الإسلامية، وبين ضرورة الظهور بوجه ديمقراطي إنساني، أوحى إسلامي إذا اقتضى الحال.. ففي الوقت الذي بطشت فيه بمظاهرات الطلبة المطالبة بالحريات في الإسكندرية في فبراير ١٩٦٨م، أصدرت بيان ٣٠ مارس، الذي يفيض إنسانية وكرامة، حتى استحق وصف بيان الحريات، واستأهل لذلك أن يخلد في متحف الثورة.. وفي الوقت الذي اضطر فيه عبد الناصر إلي إعلان تصفية المعتقلات أمام المؤتمر الطارئ للاتحاد الاشتراكي، لم

ينس أن يستدرك ويستثني القلة، الذين يعتبرهم الجيش العقائدي للإخوان، وفي الوقت الذي شغل عبد الناصر فيه الأمة بالاستفتاءات الكثيرة كان لا ينسى أن يضيف: أنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. ليكون لقب الحريات وجه جديد من وجوه الشرعية، وعندما تفاقم الأمر واشتدت مظاهرات العمال بحلوان في نوفمبر ١٩٦٨، اضطر إلي أن يكون أكثر تطوراً أمام المؤتمر القومي في اجتماعه الطارئ، فأعلن هذه المرة بحسم كبير إلغاء جميع الإجراءات الاستثنائية، حتى لا يبقى في مصر معتقل واحد عن غير طريق القضاء.. وكان في هذا الإعلان صادقاً في الظاهر - علي الأقل -؛ لأن التنفيذ كان يتم علي الورق، حيث صدر في نفس ساعة إلغاء الإجراءات الاستثنائية قرار جمهوري رقم ١٩٨٦/١٠/١٠ باعتقال المعتقلين، والقرار صادر من رئيس الجمهورية باعتباره الرئيس الأعلى للقضاء، لا بصفته رئيساً للسلطة التنفيذية صاحب القرارات الاستثنائية المشؤومة.. فكان القرار الجديد قضائي، والاعتقال أصبح قانونياً، وإلي هذه الأمور من آخر اللعب بالألفاظ والشعوب، في الوقت الذي لم يتغير فيه أي شيء في المعتقلات

في هذا الجوال الغريب لم تكن الكتابة بالأمر الهين، ولا عواقبها بالوخيمة فحسب، في نظام لا يحترم الإنسان إلا بالشعارات، وفي ظل قائد معتقل شيرير هو (عبد العال سلومه) عريق في إحصاء حركات وسكنات بل وأنفاس المعتقلين.. فكان لابد من فرض حالة طوارئ شديدة علي نفسي، وحسبي بفتح الزنازين فرصة ومغنم.. ومع هذا فلم يسلم

الأمر من مآزق كادت تودي بي قبل تحقيق الهدف، فكنت أتخير الكتابة في أوقات السحر، أوبعد الفجر، أوفي وقت الظهيرة، وأتخير الأماكن المهجورة، أو حجرة قائد العنبر ليلاً، أوسطوح المرافق من مغسل وفرن ومطبخ، أو ما شابه ذلك، وفي كل الأحوال أترك كتاباً أدبيّاً مفتوحاً أمامي؛ أُرْضِي به الفضول من يفاجئني بالسؤال.. ولقد حرّمت النوم علي عيني بعد الفجر؛ خشية التفتيشات المفاجئة، التي تشمل أغلب أيام الأسبوع، بحثاً عن الأوراق والأقلام، وقبل أن تصل فرقة التفتيش إلي العنبر أكون قد أدخلت الكشكول في علبة صفيح أعددتها سلفاً، وطرحتها فوق ظهر المعتقل، وبعدها أستوي علي «ممرتي» آمناً، وعندما تحين فرصة لعب كرة القدم بفناء المعتقل أتعمد قذف الكرة عاليّاً فوق السطوح، لأكون أول من يتطوع بإحضارها، ومعها صيدي الثمين مشدوداً تحت الثياب.. وأخطر ما واجهني من مآزق كان أثناء إحدى غارات الفاتوم علي مصانع حلوان القريبة من المعتقل، حيث بقيت في مكاني فوق السطوح، مستغرماً في الكتابة، مستفيداً من حالة الذعر التي عمت الجميع، ومن صفارات السجانة المدوية لسرعة إدخال المعتقلين إلي الزنازين.. لم أشعر إلا وأرجل قائد المعتقل والضباط من ورائه تهول من جانبي، متجهة إلي سور السطح لمعاينة أماكن ضرب الغارة، فأسرعت بللمة أوراقي وانفلتُ هابطاً من حيث سعدوا، دون أن يشعر بي أحد.. ولكن محنتي الحقيقية كانت تبدأ فور فراغي من كتابة كل كشكول، إذ كيف اخترق به الحواجز البوليسية، إلي

خارج أسوار الدولة البوليسية، قبل الشروع في الكتابة من جديد.. لم يكن أمامي إلا انتظار الأعياد الإسلامية، والمناسبات الوطنية، حيث يترخصون في تسلم الأطعمة، في مختلف الأوعية، بشرط سرعة إعادتها فارغة داخل علبها الكرتونية.. وبنفس السرعة أكون قد نجحت في إلصاق الكشكول في قاع الكرتونة، مستخدمًا النشا والأوراق، بحيث يبدو القاع طبيعيًا، بمساعدة من أثق بهم من الشباب.. وكم تصببت عرقًا كلما شاهدت السجان وهو يعن في فحص علبة الكرتون، إلي أن يمر المشهد بسلام فأخر ساجدًا لله..

وعندما ضاقت بنا السبل ذات مرة، ولم نجد منفذًا عن طريق الزيارات تصنّع أبوجهاد المرض؛ ليدخل المستشفى، حيث زارته أم جهاد بها، واستطاع أن يغافل السجان ويدس لها الكشكول في صدرها، ولم يتشكك أحد، وإلا لقامت إحدى السجانات المخصصة لهذا الغرض لتفتيشها، وأخيرًا نفذت إرادة الله بخروج جميع المذكرات، ومن ورائها خروج كل المعتقلين، والتقيت بها في العافية، وازددت حمدًا وشكرًا لله، خاصة حين قيض لي أخي الدكتور عبد الله رشوان؛ ليتولي حفظها مرة أخرى، قبل سفري إلي الكويت.. ولما استتب لي الأمر بالكويت وأنجزت كتاب الحوار مع الشيعيين، فاتحت أخي الشيخ حلمي الكاشف لإحضار المذكرات معه من القاهرة في إحدى سفرياته، وبصّرتّه بالعواقب، فما زاد علي أن قال: أليست عملاً للدعوة في سبيل الله؟ قلت: بلي إن شاء الله، قال: إذن لا يهم ما يصيبني، وجاء أخي بلال التل - مدير تحرير جريدة اللواء الأردنية

- لزيارتي برفقة الأخ أحمد رائف، لإجراء تحقيق صحفي معي حول كتاب الحوار، وأثناء الزيارة اطلع علي المذكرات، ورغب في نشرها، فرحبت بذلك حبًا في هذا الشاب الغيور علي دعوته، وتم النشر بحمد الله علي مدار ستين حلقة أسبوعية)

وكان الشيخ (محمد ناصر الدين الألباني) ممن طالهم الحبس والاعتقال، واستطاع رحمه الله أن ينجز أحد أعماله في السجن وهو فتح من الله به عليه حيث قال رحمه الله: شاء الله تبارك وتعالى أن أسجن في عام (١٣٨٩هـ) الموافقة لسنة (١٩٦٩م) مع عدد من العلماء من غير جريرة اقتربناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأساق إلى سجن القلعة وغيره في دمشق، ثم أفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية وأنفى إلى الجزيرة لأقضي في سجنها بضعة أشهر، أحسبها في سبيل الله عز وجل، وقد قدر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبب صحيح الإمام مسلم وقلم رصاص وممحاة، وهناك عكفت على تحقيق أميتي، في اختصاره وتهذيبه، وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، دون كلل ولا ملل، وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقامًا منا إلى نعمة لنا. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب مدحت باشا مذكراته وهو في سجن الطائف، حيث قال نجله علي حيدر بك: كتب والدي هذا الأثر في قلعة الطائف أمام ألف مشكل وهو محاط بالجواسيس، فكان يكتب السطر أو السطرين ويترك

الكتابة إذا سمع وقع قدم أوصوت إنسان، ويذكر مدحت باشا أنه  
قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة  
هذه الأسطر فلبى طلبهم.

## كتب صنعت مستقبلهم !

كثيرون هم أولئك الذين لعبت الكتب في حياتهم دورًا كبيرًا وكان لها أعمق الأثر في تغيير مسارها وكانت نقطة التحول التي وضعتهم علي مشارف عالم جديد وصنعت لهم مستقبلًا هامًا وخطيرًا ووضعو بسببها بصماتهم علي صفحة الحياة.. وكان من أبرز هؤلاء قاهر المنصرين، والحجة القوية والداعية القدير الشيخ (أحمد ديدات) رحمه الله

هاجر (ديدات) إلى جنوب إفريقيا في عام ١٩٢٧ م ليلحق بوالده وبدأ دراسته في العاشرة من عمره حتى أكمل الصف السادس، ولكن الظروف المادية الصعبة أعاقت استكمالته لدراسته.. ثم يحدثنا عن بداياته مع طريق الدعوة وكيف تغير مسار حياته بسبب كتاب استطاع أن يجعل منه المناظر أحمد ديدات الذي دوى ذكره في الأفق وأخرس السنة الضلال فيقول:

(يتحدث الشيخ أحمد ديدات عن بداية طريق الدعوة، فيقول: كنت أعمل في دكان قريب من موقع إرسالية آدمز ميشين (كلية آدمز).. وكان من عادة الطلبة في هذه الكلية أن يأتوا إلى المحل، وكانوا مبشرين تحت التدريب.. كانوا يأتون إلى المحل ويروني وبقية العاملين المسلمين في المحل، وكانوا يتحدثون إلينا بأشياء عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وعن أمور وأشياء ليس

لدي أي معرفة عنها..ومن هذه الكلية توافق علينا المبشرون الذين حولوا حياتنا إلى بؤس وعذاب، فلقد كانوا يتدربون هناك على كيفية مواجهة المسلمين .

وحينما كانوا يأتون لشراء ما يحتاجون إليه من المحل كانوا ينهالون علينا بالأسئلة والانتقادات.. فيقولون:

- هل تعلمون أن محمدًا تزوج نساءً كثيراتٍ جدًّا ؟  
وحينئذ لم يكن لدي أدنى معرفة بذلك .

- وهل تعلمون أن محمدًا نشر دينه بحدِّ السيف ؟  
ولم يكن لدي أدنى معرفة عن ذلك.

- وهل تعلمون أن قد نقل كتابه عن اليهود والنصارى ؟  
ولم يكن لدي أدنى علم بذلك .

كان الموقف في غاية الصعوبة بالنسبة لي.. ماذا أفعل كمسلم ؟..  
هل أَرُدُّ

على الهجوم ؟..

ولكن كيف ذلك ؟.. وليس لدي من العلم والمعرفة ما أَرُدُّ به..  
وهل أهرب من المكان ؟..

والحصول على عمل في تلك الأيام كان أمرًا عسيرًا .

وكان لدي توقُّ شديدٌ للمعرفة، وللقراءة . وفي صباح يوم الراحة

الأسبوعية دخلت المخزن الخاص برئيسي، وأخذت أقلب في كومة من الصُّحف القديمة، وأفتش عن مادة جيدة أقرؤها، وانهمكت في البحث إلى أن عثرت على كتاب قضمته الحشرات - وفيما بعد جدّدت غلاف هذا الكتاب الذي قضمته الحشرات - وحينما أمسكت بالكتاب ثارت منه رائحة نفاذة أثارَت أنفي وانتابنتني حالة من العطس فقد كان الكتاب قديمًا ومتعفُّنًا .

قرأت عنوان الكتاب.. العنوان هو: (إظهار الحق).. كان وقعته في أذني وكأن العنوان بالعربية..

كان الكتاب قديمًا وصدر في الهند عام ١٩١٥ م، قبل ميلادي بثلاث سنوات.. فلقد ولدت عام ١٩١٨ م، فهو أقدم مني بثلاث سنوات.

وبفضل هذا الكتاب تغيرت حياتي تمامًا، ولولم أصادف هذا الكتاب ما كنت لأقوم بما أقوم به الآن، وأعني بذلك التحدث إلى الناس عن الأديان من منطلق المقارنة بينها .

هكذا كانت البداية..

ثم انظر إلى (توني روبنز) ذلك الاسم الذي سعد بقوة الصاروخ عالم التدريب وتحفيز الذات لقد أصبح (توني روبنز) من أشهر المحاضرين الذين أنجبتهُم (الولايات المتحدة الأمريكية) ومن أبرع محللي الشخصيات وترجمة اللغة العصبية.

وإذا تأملنا حياة هذا النجم اللامع أدركنا أنه لا بد لنا من التوقف حيالها ومعايشة أحداثها حتى نأخذ العبرة ونستفيد من الدرس الكبير الذي أعطته لنا القراءة حينما حولت حياة هذا الفتى المشرد إلى شيء عظيم في سماء الفكر والعلم والمعرفة.

لقد كان يعيش ماضيًا كئيبيًا مظلمًا ويكفيك أن تعلم أنه فكر في الانتحار وأقدم عليه فعلاً لكن الأقدار كانت تخبيء له شيئاً غير الموت والفناء حينما أنقذه رجل عجوز فتح أمامه باباً جديداً للحياة وكيف ينظر إليها بطريقة صحيحة.؟!

كانت حياته صعبة مريرة، فقد انفصل والداه وهو في سن السابعة، وكان مجرد حارساً لعمارة سكنية، وكان بديناً فقيراً معدماً، لا يساعده أحد في تحمل أعباء الحياة، حلم كثيراً كما يحلم المعدمين الحالمين أن يمتلك مكتباً فخماً بأحد البنايات الشاهقة المطلة على البحر.. وغيرها من أحلام الترف والبذخ التي تراود خيال المحرومين! كما عانى من بعض المشكلات الطبية المؤرقة، وكان منها ورم مزمن أخضعه للعديد من الفحوصات الطبية!، وقد أدت به هذه الظروف الصعبة إلى حالة مزرية من الاكتئاب الحاد، الذي لم يجد طريقة للخلاص منه سوى الانتحار، وعزم على ذلك بالفعل، ورسم خطة لهلاكه، فذهب إلى أحد الشوارع الجانبية وعلق حبلًا وربطه حول عنقه وحينما ألقى بنفسه وبدأت أنفاسه تتقطع، ثم تراءى له شيئاً يأتي من بعيد ويقترب منه شيئاً فشيئاً إلى أن أغمضت عيناه تمامًا

وأغشي عليه وغاب عن الوعي.

فلما أفاق فتح عينيه وانتبه ثم انتفض واقفًا من مكانه ليجد نفسه في غرفة صغيرة مليئة بمئات الكتب، وبها رجل عجوز يجلس في ركن من أركانها يكتب، فذهب إليه ليسأله لماذا أنقذه ولم يتركه لينتحر ويتخلص من آلام حياته؟

وقد كان العجوز حكيماً عاقلاً، ومن هذه الحكمة استطاع أن يقدم له الجواب على هذا السؤال الیائس المحبط.. وكان جوابًا غير مجرى حياته، وكان سببا في تحولها تحولًا كبيرًا! حيث قال له: (لا يوجد في الحياة ما يستحق أن تفقد حياتك من أجلها، عليك أن تعيش حياتك بسعادة واترك هذه الخدمة للقدر يأتي لیسلبنا حياتنا في الوقت المناسب.

تريث (توني) وأخذ يفكر في هذا الكلام الرزين الذي نطق به هذا العجوز الحكيم، وقال في نفسه: كيف يقول هذا وهولا يملك من الدنيا غير هذا المكان الفقير جدًا والمعدم ومجموعة الكتب؟، كيف ينظر للحياة هكذا وهوليس بصاحب مال أوجه أومركز وسلطة؟

ولكن العجوز لم يكتف بهذا الجواب الذي أفتعه ببساطة الحياة، وإنما أراد أن يضع يده على المنبع السحري للسعادة في الحياة فقال له: إن سبب قناعته بحلاوة الحياة هي هذه الكتب، إنها هي التي ساعدته على النظر للحياة بهذه الطريقة الايجابية وتقبلها بكل صورها المختلفة والعيش بسعادة مهما كانت الظروف.

هذه النقطة هي ما جعلته يُعيد تفكيره من جديد في حياته وكيف كانت؟، وبدأ يخط سيره في الحياة على طريقة هذا العجوز الحكيم ويلجأ إلى القراءة ليجد فيها ومعها سر السعادة تلك الحياة التي كان ممنوعاً من أن يلج عالمها أويكون من أصحابها!! لقد قرأ كثيراً في فنون الثقافة المتنوعة وخاصة تحفيز الذات وعلم النفس والتنمية الذاتية إلى أن وصل لمرحلة متطورة ومتقدمة في علم تحليل الشخصية وترجمة اللغة العصبية.

وتحولت حياته من النقيض للنقيض، حيث تحول من حارس فقير، إلى أشهر محاضر في أمريكا، بعد أن كان فقيراً ومعدماً أصبح يعيش في قلعة أثرية اشتراها له ولعائلته، وأصبح يمتلك أكبر مكاتب استشارية في الولايات المتحدة، وطائرة خاصة تساعد على التنقل.

ويذكر أنه ذات مرة حينما كان يركب طائرته الخاصة ذاهباً إلى إلقاء محاضرة حول البرمجة اللغوية العصبية شاهد في الطريق زحاماً شديداً وطوابير كثيرة من السيارات، لذا قلق من عدم إمكانية حضور المشاركين في المحاضرة بسبب هذا الزحام، إلا أنه اكتشف أن هذا الزحام بسببه!

والحقيقة أن القراءة هي التي صنعت هذا العبقري، وهذا المحاضر الذي تتزاحم عليه الملايين الذي قال أحدهم عنه: (إن عبقرية (انتوني روبينز) تكمن في قدرته على تعليم الجميع: أن المستحيل يعد أمراً ممكناً)

ودعني هنا أخبرك عن السيدة قطعة الذهب..! لا تعجب من هذا الاسم.. ولا تظن أنني بهذه الجملة أمتدح قطعة من الذهب وأجعل منها سيدة رفيعة المقام لنفاستها وجيل قدرها على بقية المعادن، فليس من عادتي ولا ديني أن أعظم الذهب أو أمتدح منه شيئاً، لأنني أعرف أنه رمز الغرور ومتعة الدنيا الفانية..! ولكن هذا اللقب في حقيقته ما هو إلا اسم سيدةٍ حقيقية سميت به، وعرفها الناس ونادوها به.. إنها السيدة (ببي زار لشته) وهي امرأة أفغانية، ومعنى اسمها باللغة الأفغانية هو (قطعة الذهب)

من عادتي دومًا إذا التقيت بالنوابغ والأذكىاء، أن أسألهم عن حياتهم وتاريخ نشأتهم وأن يقصوا علي بعض المواقف التي أثرت في حياتهم ويذكرونها لأمهاتهم.. لأنني أدرك أن هذا النبوغ وهذه العبقرية، لا بد أن يكون للألم علاقة مباشرة بها، ودخل وتأثير كبير في تطورها وظهورها.. ومنذ أيام التقيت بالدكتور (حياة الله عتيد) المدرب وخبير التنمية البشرية والمدرب النابه، والدكتور (عتيد) أفغاني الجنسية ورجل ألمعي، يتمتع بالذكاء والنبوغ والوقاد والفراسة الفريدة.. تلمحه في نظرات عينية ولمعة جبينه.. اغتنمت الفرصة وأخذت أستعيد عليه الماضي الذي اكتشفت من حديثه أنه ماضٍ لا يُنسى ولا يُغفل، لكثرة ما فيه من محطات الكفاح والشقاء والإرادة والإصرار، ورحلات التعب والعناء، حتى وصل الرجل إلى ما صل إليه الآن من علم ومعرفة.. ثم طرقت باب الحديث عن أمه، السيدة (ببي زار لشته) وماذا كانت تمثل في حياته، وهل يذكر لها في نشأته أي موقف مؤثر؟

فإذا بي أكتشف أن أمه في حياته هي كل حياته، فقد كان أبوه الشيخ (قل والي) ذا مكانة مرموقة بين قومه، وكان عالماً تقياً ورعاً يعلم الناس اللغة العربية والقرآن وعلومه والتفقه في الدين وحفظ القرآن، وكان الناس يجلسونه ويحبونه...ولما ولد الدكتور حياة الله كان ضعيفاً مضمحللاً قال الناس لأبيه وأمه: إن هذا الطفل سيموت لأنه ضعيف، ولا يحتمل استمراره حيّاً، فتفكر الوالد وعزم على أن يسميه (حياة الله) وقال: لو عاش هذا الطفل فإن حياته ستكون وفقاً لله..

ولم يدم والده كثيراً.. فسرعان ما أصيب بقذيفة روسية أردته شهيداً إلى ربه، إبان الاحتلال الروسي لأفغانستان، ورحل عن الحياة تاركاً زوجته الأرملة وأطفالها الستة يعيشون وحدهم في الدنيا يقاسون آلامها وعناءها وقسوة أيامها.. كان من عادة الأفغان في ذلك الوقت.. أن الزوج إذا مات فإن إخوته يأخذون أطفاله للخدمة والعمل ويجبرون زوجته على الزواج دون اعتبار لرغبتها أو إرادتها ووصف الدكتور بأن هذه العادات الجاهلية كانت موجودة لوقت قريب ولكنها انتهت الآن.. ولكن الزوجة وهروباً بأبنائها من هذا المصير النكد، لم تسافر إلى المنطقة التي يقيم فيها إخوة زوجها حتى لا تتعرض لمثل هذا وعكفت على تربية أبنائها وأرادت أن تقوم برسالتها كام..

لم تكن تدرك الزوجة المسكينة أنها ستكمل وحدها مسيرتها لتحقيق تلك الرغبة التي أرادها زوجها في طفلها حياة الله.. ولكنها استطاعت أن تكملها وبجدارة!! فتعالوا معي لتتعرف ماذا كان من

أمرها مع ولدها..؟

حدثني وهو يستعيد ذكرياته مع أمه في مراحل تربيتها له وإخوته فيقول: كانت أمي أمية لا تقرأ ولا تكتب ولكنها رغم ذلك كانت تستطيع أن تقرأ القرآن، ورغم هذه الأمية كانت تتابعني في دوري كل يوم بشكل غريب، فكانت تمسك بكتبي وقراطيسي وتظهر لي في ملامح وجهها شيئاً من الحزم والصرامة، تجعلني أرتعب وأشعر كأنها مديرة المدرسة تراقبني وتسالني وعليّ أن أجيب، فكانت تقول لي: ماذا أخذت في دروسك اليوم؟ ماذا ذاكرت منها؟ أين واجبك؟، أكمل دروسك لن أسمح لك اليوم بالخروج ذاكر دروسك.. كان هذا شعوري رغم كونها أمية لا تقرأ ولا تكتب .

لم تكن تضربني.. ولكنها كانت تخيفني بنظراتها.. وكانت عند أي تقصير تراه مني ومن إخوتي ما كانت تفعل شيئاً إلا أنها كانت تأخذني وتشير بيديها إلى كتب والدي التي علاها التراب وتقول لي: انظر إلى هذه الكتب.. كتب أبيك لقد راح أبوك ومات.. من سيقروها؟!.. كانت تقول ذلك وهي تبكي، وكنت أنا أشعر مع هذه الإشارة بثقل الأمانة، وأن هذه الكتب هي الرسالة التي تنتظرنني لأحملها وأقوم تجاهها بواجبي، وأحقق فيها موعود أبي.. كانت تقول لي: إذا أنت لم تقرأ فمن سيقراً إذاً؟ إنك إذا لم تقرأ ستكون مجرد عامل بسيط تعمل في الأعمال اليومية، تنظف بيوت الناس وتخدم عند الناس، وهذه الكتب التي تركها أبوك ستبقى هكذا، لقد كانت هذه

الكلمات تحدث في نفسي هزة عنيفة قوية تزلزل مشاعري.

وبفضل هذه المتابعة من أمي لا أذكر أنني نمت مرة وعلي واجب مدرسي لم أنجزه.. فقد كنت أنهى واجبي قبل نومي، لأنها كانت تقول لي: كيف تنام ويرتاح ضميرك وعليك واجب لم تنجزه..؟

ويواصل الدكتور حديثه العزب عن أمه، ولكنه هذه المرة يحكي لي موقفًا رائعًا لو حكاها لي غيره لقلت: إنه اقتبس أحداثه من حياة نساء سلفنا الصالح وجعله لنفسه.. لأنه شبيه بما كانت تفعله أمهات الصالحين من الأئمة الكبار في تربيتهن لأبنائهن على الصدق والفضيلة.

يقول لي: لقد غرست أمي في نفسي معنى الورع وتقوى الله والخشية من الحرام، فأذكر أنها كانت تدفعني لحفظ القرآن وترسلني للمسجد في الليل قبل صلاة الفجر لأراجع وأحفظ القرآن وكانت تعطيني السراج حتى أستطيع الرؤية في الليل، وكانت تقول لي: يا عتيد لن أسامحك إذا استخدمت سراج المسجد وأخذت منه زيتًا، لأنه ملك للناس ومصلحة عامة، أما سراجك فخاص بك وإذا فعلت ذلك فلن تستطيع أن تستفيد من علمك وحفظك للقرآن، وكنت أرد عليها وأقول لها: نعم يا أمي فأنا أحفظ قول الشافعي:

فَأرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

شَكَّوْتُ إِلَى وَكَيْعِ سَوْءِ حِفْظِي

وَأُخْبِرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ      ونورُ الله لا يُهدى لعاصي.

ويمر الزمن ليتحقق أمل هذه الأم في ولدها، وما زال يذكر جارة لهم كانت تجلس معها وتواسيها بقولها: إن ابنك هذا ستسمعين قرع نعله في يوم من الأيام، أي أنه سيصير شيئاً مهماً..

يقول الدكتور (عتيد) وهاهي اليوم تشاهدي في التلفزيون وتستمع إلى أحاديثي ولقاءاتي، وترى شهرتي في كل مكان، وحينما أذهب لزيارتها أمازحها وأدب لها بقدمي في الأرض لأذكرها بما قيل لها في يوم من الأيام!..

وبعد سيرة هذه الأم الصامدة، ورحلة كفاحها.. فإننا نستطيع القول بأن أمتنا ولأدّة، وأنه مهما تبدل الزمان وتغيرت أحواله فإنها قادرة أن تمدنا بأمثال هذه الأم المباركة التي تربي الأجيال وتشحذ الهمم وتحيي العزائم وتنمي الطاقات وتحببهم إلى القراءة والكتب حتى تنتفع الأمة بأبنائها وتنهض برجالها.

أمّ جعلت من الكتب وسيلتها العملية لتربية ولدها وترهيبه من عتمة الجهل وظلامه!..

كانت الكتب بالنسبة له هي النذير الذي يطرق وجدانه كلما قصر أو تكاسل في دروسه وواجباته، كانت الكتب هي الطموح الكبير الذي يرى نفسه فيه، والمستقبل الكبير الذي يطله عليه من

صورتها المتراكمة، كانت هي المسؤولية الكبرى التي كان يتعلم من أجلها.. (انظر إلى هذه الكتب.. كتب أبيك لقد راح أبوك ومات.. من سيقراها)

وإذا كان الدكتور عتيد قد لعبت الكتب في حياته دورًا كبيرًا صاغت من خلاله مستقبله، فهناك من لعب بالكتب واستغلها وجعل منها طريقًا يخدع به الناس، ولكنه خدعهم على علم وقراءة، وهذا ما جعل البعض يمتدح هذه النوعية من النصب والاحتيال .

إنه (فردنياند ديمار) رجل عجيب صاحب قصة غريبة، وهو الذي لقب بالمخادع الأعظم، لأنه كان نصابًا ومحتالًا ولكن كما قيل: بطريقة فنية تجعل المرء يكاد يحترمه، لقد قام بانتحال عدة شخصيات ونجح فيها، ربما بشكل يفوق أصحابها الحقيقيين، حيث ادعى مرة أنه محام، وانتحل مرة دور مدير سجن ودور طبيب نفسي.. ودور باحث علمي ومرة بدور كاهن وغير ذلك في كثير من الحرف والوظائف، ولعل هذا الرجل لو أتيح له أن يكون ممثلًا لكان له مستقبل كبير، ولحقق نجاحًا باهرًا، ولك أن تتخيل أمرًا عجيبًا، فقد كان هذا النصاب المحتال مثقفًا، وكانت القراءة من أكثر الوسائل التي تعينه على تمثيل أدواره وتقمص طبيعة شخصيات متنوعة.. وهي ما كانت حاضرة في أكبر وأشهر مغامراته، (حينما انتحل شخصية طبيب جراح بشري، وذهب للعمل في الجيش الكندي على إحدى المدمرات الحربية في أثناء الحرب الكورية، ولم يكن في حوزته سوى بعض المراجع الطبية

عن الجراحة لكنه قرأها واستوعبها جيدا، وكان جرحى الحرب يأتون إليه ويقوم بإسعافهم، بل إنقاذهم، والمدمش أن جميع المصابين الذين تولى علاجهم تماثلوا للشفاء ولم يصب أي منهم بأي أذى، حتى في أصعب الحالات التي تتطلب استشاريين ماهرين كان يبدع فيها، ولهذا أصبح من المشاهير، لكن الشهرة أنهت حياته العلمية في النصب، فتعرف عليه الناس وانكشفت خطته، لكن الجيش الكندي لم يقم بأي إجراء ضده، لأنه لم يقتل أي مريض ولم يتسبب في أذى أحد، كان العقاب الوحيد أن تعرف الجميع على أنه نصاب ولم يعد يمارس هوايته، وتم عمل فيلم عن قصته وسمي (great Impostor the) وتم عرضه عام ١٩٦١م. ٧٠

البعض معجب بقصة (فردنيانند ديمار) وطريقته الطريفة في الاحتيال والنصب وقدراته وأسلوبه العلمي في أداء أدواره، لأنه يكاد يكون حالة نادرة في دنيا الناس أن ينتحل شخصية طيب وينجح فيها ويصل للشهرة والمهارة التي وصل إليها صاحبنا، كل هذا بمجهوده الذاتي وقراءته العصامية واستيعابه وتطبيقه الجيد والحاظ لما يقرأ.. ولعله يعطي شحنة قوية وحماسة دافعة لأناس نالوا الشهادات الجامعية وتوظفوا في الوظائف الحكومية ولكن نماءهم الفكري وعطاءهم العقلي تعطل ولم يؤمنوا بفكرة تطوير أنفسهم وذواتهم عن طريق القراءة كما فعل صاحبنا النصاب المثقف.. كما أنها دعوة لاكتشاف المواهب العديدة والقدرات المتقدمة الدفينة في ذاتك..

70 - من مقال النصاب المحترم لفهيد العديم صحيفة مكة - تاريخ 20 سبتمبر 2015

اقتحمها وتسليح لها وخذ بأسبابها.. فرما تكون ناجحًا فيها لائقًا لها.. كما فعل هذا الرجل الذي مثل كل الأدوار ونجح فيها لأنها مواهب ذاتية طاف عليها واستخرجها من نفسه للوجود والواقع!

## التلغيف الثقافي

وعلى الجانب الآخر من السرقات العلمية واللصوصية الفكرية، نجد باب التلغيف والافتراء قد أصاب الكثيرين من العلماء والمفكرين، وذلك إما لعلو شأنه في ميدان العلم، أولجلده على خصومه وإلزامهم بالحجة الدامغة والبراهين القاطعة، فيؤول عليه الحاقدون والخصوم كلامًا يعارض آراءه ويوافق ما ينقده، أو إفكًا يؤلب عليه الناس ويثور بسببه عليه كل من قرأه وعرف نسبه له.

وهوما كانت تفعله حركات الضلال والانحراف عبر التاريخ الإسلامي، فقد كانوا يحاولون استمالة بعض العلماء والمشاهير ليروج لمذهبهم ويدعولباطلهم، يحاولون معه بكل السبل.. يشترونه بالمال وبما يستطيعون من مغريات الدنيا، وهكذا فعل الشيعة لينشروا أفكارهم عن طريق العلماء حتى يقولوا بما يريدون، وكان الإمام الشعبي ممن حاولوا مساومته فقد قال:

( لوأردت أن يعطوني رقابهم عبيدًا وأن يملأوا بيتي ذهبًا على أن أكذب على علي كذبة واحدة لقبولوا، ولكنني والله لا أكذب عليه أبدًا )

ولما كان العلماء يتأبون عليهم ولا يخضعون لإغراءاتهم المادية من الجاه والمال فإن (هؤلاء الملاحين سلكوا طريقًا آخر في الغواية

والتلفيق والاختلاق على العلماء الأجلاء وإيذاء الاسلام حينما كانوا ينسبون ما يشاءون من الأفكار إلى من يشاءون من العلماء، وكانوا يسمون بعض أتباعهم بأسماء المشاهير من العلماء كالسدي وابن قتيبة، وينقلون عن هؤلاء موهمين الناس أنهم ينقلون عن السدي وابن قتيبة المعروفين) ٧١

ومما يروى عن الإمامين (يحيى بن معين) و(أحمد بن حنبل) أنهما صليا في مسجد الرصافة فقام بين أيديهم قصاص فقال حدثنا (أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) قالا حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( من قال لا إله إلا الله خلق الله كل كلمة منها طيرا منقاره من ذهب وريشه من مرجان ) وأخذ في قصة نحو عشرين ورقة فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال له: أنت حدثته بهذا، فقال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة، فلما فرغ من قصصه وأخذ القطيعات، ثم قعد ينتظر بقيتها فأشار إليه يحيى بن معين وقال له تعال فجاء متوهماً النوال، فقال له يحيى من حدثك بهذا الحديث؟، فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ، فإن كان لابد والكذب فعلى غيرنا فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحقق ما تحققته إلا الساعة، قال له يحيى كيف علمت أني

71 (1) فجر الإسلام - أحمد أمين

أحمق؟ قال كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد كمه على وجهه، وقال: دعه يقوم فقام كالمستهزئ بهما...

يقول (ابن الفراء) في طبقاته نقلاً عن أبي بكر المروزي: (رجلان صالحان بُليا بأصحاب سوء: جعفر الصادق، وأحمد بن حنبل، أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة، دونت في فقه الشيعة الإمامية على أنها له، وهوبريء منها. وأما الإمام أحمد، فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها) ٧٢

قال الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه اليواقيت والجواهر (وقد دسَّ الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته، عقائد زائغة، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد، لافتتنوا بما وجوده تحت وسادته) ٧٣ كما دس على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كتاب نهج البلاغة أو أكثره، فقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة علي بن الحسين الشريف المرتضى أنه: (هوالمتهم بوضع كتاب نهج البلاغة، ومَنْ طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي عليه السلام، ففيه السب الصراح والخط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفَس

72 - التصوف الإسلامي والإمام الشعراني - طه عبد الباقي سرور ص 82

73 - المصدر السابق

القرشيين الصحابة، وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم  
بأن الكتاب أكثره باطل(٧٤)

وقد فعل الملقون مثل هذا الأمر مع كثير من علمائنا الكبار  
وأضافوا لكتبهم مما ليس منها، وما هي منه براء، ولم يسلم منه  
كبار رجال التيارين السلفي والصوفي فهذا حجة الإسلام الغزالي يظن  
الكثيرون أن الكتب التالية من تأليفه ووضعه وما هي إلا موضوعة  
عليه ككتاب (معارج القدس) وكتاب (المضنون به على غير أهله)،  
وكتاب (المضنون به على أهله) وكتاب (مشكاة الأنوار) والذي لُفقت  
عليه من قبل أعدائه وحساده، وقد قيل ذلك أيضا عن مؤلفات  
(ابن عربي) أن هناك من دس فيها ما يخالف دين الإسلام، وكان  
الإمام الشعراي من أبرز أئمة الصوفية الذين لفق عليهم ولحقت  
بمؤلفاته زيوفًا لا علاقة له بها، وقد صرح بهذا في كتابه (الأجوبة  
المرضية) فقال:

( لقد ألحق بعض الحساد إلى كتابي ( البحر المورود في الموائيق  
والعهود) زيادات كانت تعارض الشريعة وتولوا إشاعتها في الجامع  
الأزهر وغيره حتى نجمت بذلك فتنة، وهناك اضطرتت إلى أن أقدم  
النسخة الصحيحة الأصلية من كتابي إلى العلماء فكتب عليه كبار  
العلماء ومشايخ الإسلام تزيية وتصديقًا ومن ثم اطلعوا على حقيقة  
تلك الزيادات التي كان قد ألحقها الحساد إلى كتابي وماتت الفتنة)

كما دسوا عليه في كتابه العظيم (الطبقات الكبرى) ما إذا تفحصه القاريء لوجد به تناقضاً كبيراً بين صفحاته ففيها ما يوافق الشريعة وبه ما يناقضها كما يخالف في هذا الكتاب ما جاء في جميع كتبه، فمن يقرأ كتابه (الميزان) الذي ينقل عنه الأئمة، لا يتصور هذا المكتوب، وكذلك كتابه أسرار أركان الإسلام والأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، والبدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير وغيرها يقف بكل وضوح على براءة الإمام الشعراي مما لفق عليه ودس في كتبه ومما لا شك فيه أن هذه الافتراءات أفسدت كتاب الطبقات وهو كتاب قيم في أصله وموضوعه وبه فائدة عظيمة.

أما التيار السلفي فقد ذكرنا قصة رائده الأول أحمد بن حنبل لكنها كانت مع نجمه الثاني ممنهجة ومقصودة ومحزنة، فقد لفق الحاقدون على الإمام ابن تيمية وقد كان رحمه الله لا يقول أقوالاً منكراً وجمالاً باطلاً يبرأ إلى الله منها جهاده وبلاؤه ومسيرته العلمية الزاهية التي كانت حرباً على الضلالة والمنكر والزيغ والابتداع ومنها ( أقوال تحط من شأن صاحب النبوة العظمى وتسيء إليه) ووجدت تلك الافتراءات من تجاوز لها وصدقها وتفاعل معها دونما تثبت أو تحقيق، فأقدم البعض على تكفيره في فتاوى رسمية كالتي صدرت في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع وقد رد عليها حافظ الشام (ابن ناصر الدين الشافعي) بما يثبت عظمة ابن تيمية وبراءته مما نسب إليه في كتابه الشهير ( الرد الوافر على من زعم أن

من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام كافر) وقد جمع في هذا الكتاب شهادات متنوعة لـ ٧٨ عالماً وإماماً وزاهداً.. وذكر آرائهم وانطباعاتهم في شخص الإمام (ابن تيمية) وفي بداية هذا الكتاب يفيض الإمامان الجليلان البدر العيني وابن حجر العسقلاني ثناء في ابن تيمية ونوها أنه كان سليم العقيدة صحيح الفكر سني المذهب وشيخ الاسلام بلا نزاع حتى قال (البدر العيني):

(من نسبه إلى الزندقة فهوزنديق، وقد صارت تصانيفه إلى الآفاق وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق) وكذلك قام العلامة خير الدين نعمان الآلوسي صاحب روح المعاني بالرد على (ابن حجر الهيتمي) الذي أصدر فتواه العنيفة عن (ابن تيمية) وذكر فيها كلمات نابية فكان مما قال: (عبد خذله الله تعالى وأضله وأعماه وأصمه وأذله)

ويبدو أن الرجل قد اعتمد على النقل اللساني والإشاعات التي ترددها العامة، ولم يكن له قرب أووقوف على حقيقة ابن تيمية وهو مما يثير العجب العجاب..! والخطر كل الخطر، والسوء كل السوء، أن يتبع العالم أقوال الناس ويصدقها دون التثبت من حقائق الأشياء والأشخاص، وربما تنكشف له الحقيقة فيكون من النادمين، فالتلفيق إذن منه المكتوب ومنه السمعي الذي يغتر به كثير من العلماء من أهل الصدق والثقة فيرددون ما سمعته آذانهم ضد إخوانهم في العلم، وهو ما حدث مع الأوزاعي لما بلغه أموراً مكذوبة عن الإمام

(أبي حنيفة) رحمه الله، فلما قدم الإمام المحدث (عبد الله ابن المبارك) وهومن تلاميذ (أبي حنيفة) إلى الشام و( دخل على الإمام الأوزاعي ببيروت، قال له الأوزاعي: يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يُكنى أبا حنيفة؟

قال الإمام (ابن المبارك): فرجعت إلى بيتي، فأقبلت على كتب (أبي حنيفة)، فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام، فجئت يوم الثالث، وهو (أي: الأوزاعي) مؤذن مسجدهم وإمامهم، والكتاب في يدي، فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة منها وقعت عليها قال النعمان (أي: لم يكتب أبا حنيفة) فما زال قائماً بعد ما أدن حتى قرأ صدرًا من الكتاب، ثم وضع الكتاب في كفه، ثم أقام وصلى، ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها، فقال لي: يا خراساني من (النعمان بن ثابت) هذا؟

قلت: شيخ لقيته بالعراق، فقال: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثّر منه، فقلت له: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه. (!) ٧٥<sup>(١)</sup> وصنف بعض الملاحدة كتابًا في تنقيص الإمام الأعظم (أبي حنيفة) رضي الله عنه ونسبه إلى الشيخ (مجد الدين الفيروز أبادي) صاحب القاموس في اللغة، ثم أوصله إلى الشيخ (جمال الدين بن الخياط اليميني)، فشنّع على الشيخ أشد التشنيع، فأرسل إليه الشيخ (مجد الدين) يقول

75 (1) انظر هذا الخبر في تاريخ بغداد (١٣ / ٣٣٨). تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢ / ٣٩٩).

له: (إني معتقد في الإمام أبي حنيفة غاية الاعتقاد.

وصنفت في مناقبه كتابًا حافلًا وبالغثُ في تعظيمه إلى الغاية، فأحرقتُ هذا الكتاب الذي عندك، أو اغسله، فإنه كذب وافتراء عليّ) ٧٦

إن الزنادقة لم يتركوا علمًا من علوم الإسلام إلا وكان لهم فيه بصمة من التلفيق والدس والافتراء، ففي التفسير نجد الإسرائيليات التي تغط بها بعض كتبه ونقلها أولئك الذين اعتنقوا الإسلام غير مخلصين حاقدين كائدين أو مخلصين علققت بأذهانهم هذه القصص حينما كانوا على ديانتهم فجلبوها للإسلام واستحسنها المسلمون، وظنوا أنها من العلم ووجدوا فيها بعض السلوة والطرافة، وقد يكون في بعضها فساد كبير وغرض خطير، كأن يقال بأن أيوب عليه السلام مرض حتى ظهر الدود على جسده وكنسبة المعاصي إلى بعض الأنبياء حيث زعموا أن داود عليه السلام عشق زوجة بعض جنوده وأرسله للحرب ليقتل فيزوجها، كما زعموا أن يوسف عليه السلام هم بامرأة العزيز هم فُحشٍ وسوء ولفقوا في ذلك قصصًا وحكايات لا تليق بمقام الرسل الكرام الذين عصمهم الله وحفظهم من سوء الفواحش.. وفي الحديث الشريف كان الوضع والتلفيق قد بلغ أشده افتراءً على رسول الله ﷺ حتى يفسدوا الدين ويحرفوا الملة، ولكن الله تعالى قيض لهذه المهمة علماء حفاظ حاربوا الوضع والوضّاعين

---

76(1) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج ١. ص ١٢٧

فطمسوا زيفهم وردوا إفكهم، أما التاريخ فقد امتلأت كتبه بالقصص المزيفة والحوادث المزورة والمواقف الخيالية، بهدف قتل القدوة وتشويه تراث الأمة وزعمائها فهذا هارون الرشيد من أكثر خلفاء الإسلام الذين نالهم التشوية حتى يلبسوا على حقيقة الرجل وغيرته الدينية وحبه للغزو والعبادة حينما كان يجاهد عامًا ويحج عامًا.

## العلاج بالقراءة !

سيظل الكتاب هو التحدي الأخطر بالنسبة للدول المتقدمة، وقد كادت الكلمة المسموعة تغطي على الكلمة المكتوبة، ولكن مع ظهور الشبكة المعلوماتية عادت الكتابة لمنصة القيادة، وسيبقى الكتاب هو الوسيلة الكبرى للمعرفة، والقراءة تزيد من اللغة الشفوية والتوقف عن المعرفة اللغوية يعني التوقف عن الأفكار والتوقف عن المعرفة، فورا كل كلمة فكرة..!

وهناك دراسة حول لغة الفلاحين، ولغة العباقرة والمفكرين جاء فيها: إن الفلاح يمتلك ٦٠٠ كلمة يتعامل بها في حياته، ولكن وجدوا رجلاً مثل تشرشل يستخدم ٣٠,٠٠٠ كلمة، ومعناها ٣٠,٠٠٠ فكرة والاعتماد على اللغة الشفوية وحدها لا يكون عالماً أو مفكراً ولا سياسياً، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه مقولة في هذا الشأن وهي: (تفقهوا قبل أن تسودوا) وقال الإمام البخاري معلقاً عليها: (وبعد أن تسودوا) أي لا بد من الاستمرارية لأن الذاكرة تضحل، بل ثبت علمياً أنه كلما استمر الشخص في القراءة تقل فرصة إصابته بمرض (الزهايمر)؛ لأن علماء النفس قالوا: إن المدركات اللغوية تصل للمخ في الجهة اليسرى في منطقة اللغة، والمعلومات والمدركات والمفاهيم تعمل عملية تثبيت تؤكد الذاكرة، وتنميتها وكلما قرأت كلما نمت أكثر وتقل فرص (الزهايمر)، وحتى أن من تحدث له جلطة يجرون له عملية تنشيط

لغوي كالطفل تماماً، مما يساعد على زوال الجلطة، بل ثبت أيضاً أن القراءة تقلل وتزيل الاكتئاب .

وهنا أتذكر الشيخ عبدالإله وأتعجب كيف لم تمحو القراءة والمطالعة ما به من زهايمر تناسى بسببه ما أعطيته من كتبي؟! وعذراً أخي القاريء فلا أريد أن أقطع أفكارك، ولا تلمني لأن كتبي تلح بخاطري دومًا كلما ذكرت كلمة الزهايمر..غفر الله للشيخ عبدالإله وسامحه.

إن النسيان يجتاح شرائح عظيمة من المسنين الذين تجاوزوا الستين والسبعين، وأنسب علاج لهم هو مداومة القراءة حتى لا يدهمهم النسيان، فالاطلاع المستمر تجعل الكلمات ماثلة في ذهن القاريء، ومع التوسع الذهني وامتداد الثقافة يجد كثيرًا من الاهتمامات والغايات الهادفة التي تشغله وتنشط حياته!.

(إن من أعظم ميزات القراءة، ونعني هنا جعل القراءة هواية نتعلق بها، أنها تحول دون ذلك النسيان الذي يُصيب بعض المسنين بسبب التصلب الشرياني في الدماغ، وهذا النسيان كثيرًا ما يعرقل التفكير المثمر، ويجلب الاستهزاء بالمسن، ويوحي إليه الضعف والهزيمة، فيزداد سوءًا وانحطاطًا، فإننا ما دمنا نقرأ كل يوم تبقى المعاني ماثلة في أذهاننا بشبكة من الكلمات، فتبقى الذاكرة حية والتفكير مثمرًا حتى ولو بلغ المائة من العمر، أما الذين لا يقرؤون أولاً يجعلون القراءة هواية، فإن التصلب الشرياني يؤدي عندهم إلى النسيان، ولما

كان ما عرفوه من الكلمات قليلاً فإن هذه القلة يظهر أثرها في تفكيرهم، إذ إننا نفكر بالكلمات) ٧٧

إن العلاقة الجدلية بين الفكر واللغة وأيهما أساس للآخر ما زالت قائمة، فالشخص الأصم لا يتعدى مستوى تفكيره مستوى التفكير الحاسي، ولا ينمو ولا يتقوى في فكره، والعلاقة بين اللغة والتفكير أشار إليها علماء النفس اللغوي بقولهم: إن هناك علاقة بين القدرة على التفكير واللغة، وهناك دراسات تقرر أن الشخص الذي لا يستطيع أن يتخذ قراراً وليست له رؤية هو شخص مضمحل الثقافة، وتستطيع أن توجهه حيثما أردت، لأن المعارف هي الأساس في اتخاذ القرار.

هل تتخيل أن يكون هذا العلم الحديث.. علم نفس القراءة أو العلاج بالقراءة، والذي أصبح العالم اليوم يقره ويمارسه في كثير من الحالات المرضية قد تنبه إليه الفراعنة قديماً وسطروه على حفرياتهم وجدران معابدهم؟!!

لقد أكد هذا علماء الآثار.. وذكروا أن المكتبات في أغلبها كانت تابعة للمعابد وتستخدم في علاج كثير من الحالات النفسية، كما يذكر تراثهم أمثلة ومقولات تعبر عن هذا كالتي ذكرت في المكان المخصص للمكتبة في معبد الكرنك.. (هنا علاج الروح)!.!

---

77<sup>(1)</sup> حياتنا بعد الخمسين - سلامة موسى

ومن بعد الفراغة كان أفلاطون، والذي أشار إلى تأثير القراءة العلاجية، وكان أطباء روما ينصحون مصابي الحروب بالقراءة في كتب الملهاة الكوميديية وغيرها..

أما العرب المسلمون الذين هم أمة القراءة فلم يغفلوا هذا الجانب، حيث عالجوا كثيراً من المرضى النفسيين بالقرآن الكريم، وبينت نصوصه الشريفة أنه فيه شفاء وعلاج (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) الإسراء: ٢٨، وكان ميدان الرقيا بآيات القرآن للمصروعين والملبوسين وأصحاب الجروح والآلام.. إلى أن جاء العالم الروسي (نيقولاس روباكن) في مطلع القرن العشرين ويعد أول من وضع اللبناة الأولى فيما يعرف بعلم نفس القراءة.

وقد تخطى الغرب مراحل التحفيز على القراءة والدعوة لها، إلى مرحلة الكشف العلمي بقدرتها العلاجية لكثير من الحالات المرضية، فقد نشرت مجلة (النيويورك) مقالة لكاتبة عرضت علاجها بالقراءة في مدرسة الحياة في لندن، حيث تقدم المدرسة لمرتابها عن طريق التدريب من قبل متخصصين لمواجهة ضغوط الحياة اليومية والعمل والحوارات العميقة مع استشاريين نفسيين والعلاج بالقراءة، لقد بدأ مشوارها العلاجي معهم بسؤالهم لها: ما الذي يشغل بالك هذه اللحظة؟ وبناء على إجابتها على السؤال وأسئلة تفصيلية أخرى، حصلت على الوصفة العلاجية التي ستشترتها من المكتبة بدلاً من الصيدلية، وفوجئت بأنها مجموعة كتب لم تقرأها أبداً كونها خارج

اهتمامها بالقراءة، الوصفة كتبت بناء على تشخيص حالتها الفكرية والنفسية والمثير في الأمر، ملاحظتها لازدياد قدرتها على تحمل ألم عضوي تعانيه خلال أشهر من استخدامها للوصفة المكتيبة !

تقول الكاتبة: (إن العلاج بالقراءة مصطلح قديم وهو الآن علم جديد، قراءة كتاب شيء له تأثير يختلف من شخص لآخر، فهو يعمل كمسكن للبعض وللعض الآخر يعطي مفعول قطعة حلوى على طفل، والدليل على ذلك أمر الجنود المشاركين في الحرب العالمية الأولى بالقراءة بعد عودتهم.. ووجد أن الشخص القاري له قدرة على التعامل مع ضغوطات العمل والتحكم بالعلاقات بشكل أفضل، وأنه يتمتع بصحة عقلية أكثر من غيره وأن قراءة الرواية يكتسبون خبرة تجعلهم يتصرفون تصرفا صحيحا في بعض المواقف، وإن لم يسبق لهم التعرض لها من خلال محاكاتهم لتصرفات أبطال الرواية)

كان الأطباء في أوروبا يصفون الكتب في (روشتات) طيبة للخارجين من جحيم الحرب العالمية، وكانت أكثر الكتب مبيعا هي كتب الفكاهة والأدب الساخر، إلى حد الاستعانة بكتاب ساخرين من أمثال (جورج برنارد شو) لإلقاء محاضرات في المستشفيات العامة، وذلك في محاولة لحمل جرحى الحرب على نسيان أوتناسي تجاربهم المؤلمة.. وطبقا لقاموس (أوكسفورد) الانجليزي ظهر مصطلح (بيليوثيرابي) علم نفس القراءة مطبوعا لأول مرة عام ١٩٢٠م، في رواية كريستوفر مورلي (المكتبة المسكونة)

وتصور هذه الرواية عالمًا كان خارجًا لتوه من الحرب العالمية الأولى تصور علاقة حمقاء تربط بين فتى إعلانات ووريشة لإحدى الإمبراطوريات مع وجود مؤامرة من جانب ألمانيا لتفجير موكب الرئيس الأمريكي.. ويأتي (ميفلن) بائع كتب في هذه الرواية، والذي يمارس طب العلاج بالكتب، ويقول: «متعتي تتمثل في وصف الكتب للمرضى عندما يأتون إلى هنا ويعربون عن استعدادهم لإخباري بأعراض أمراضهم. ولا يوجد على وجه الأرض أكثر امتنانا من إنسان مددت له كتابًا كانت تتوق إليه روحه ولم يكن يعرف به» (٧٨)

ثم تطور أمره وزاد الاهتمام به في أوروبا حيث تذكر (الجارديان) البريطانية: أن مصحات العالم تعود إلى علاج مرضاها بالقراءة، بعد أن تراجع الاهتمام العالمي بهذا النوع من العلاج - نسبيًا - في مطلع هذا القرن، إذ يوجد في بريطانيا حاليًا نحو ٥٠ مصحة تعالج نزلاءها عن طريق (علم نفس القراءة) وهناك مجموعات طبية متخصصة في هذا المجال، تستخدم الكتب كعلاج مساعد لبعض الأمراض النفسية والعصبية، وإعادة تأهيل المعاقين، وهي كتب من نوعية خاصة ومنتقاة بعناية، حسب كل مجموعة على حده.

كما ظهر تيار في بريطانيا يدعوللبعد عن الكيماويات والمضادات الحيوية ويبحث عن أساليب الطب البديل والأدوية الطبيعية، وكان العلاج بالقراءة من ضمن المجالات التي تم الاعتماد عليها وتطبيقها

٧٨<sup>(١)</sup> من مقال كيف تجلب الكتب السعادة؟ هيفزياه أندرسون

خاصة في علاج المدمنين والسجناء والمكتئبين نفسياً، حيث نفذ برنامج علاجي تحت عنوان ( الدخول إلى القراء ) وحقق نجاحات شفايئة كبيرة مع المدمنين بنسبة ٦٠٪، واعتمد القائمون عليه على كورسات مكثفة في القراءة على شكل مجموعات تقرأ كتباً مقررة تبعث على التفاعل والجاذبية والاهتمام والإثارة حتى يتفاعل المريض مع موضوع الرواية أوالكتاب هذا التفاعل الذي يُنشئ في داخله معنى الاهتمام والانتباه، ليخرج من حالة الظلام والاكئاب التي سيطرت عليه.وتحويل أفكاره من السلب إلى الإيجاب .

وفي تجربة عملية طبقها بعض أطباء علم النفس المصريين فيذكر أنه أعطى نسخاً من كتاب واحد هو(كليلة ودمنة) إلى ٥٢ مريضاً من مرضاه، فنظر كل منهم إلى نفس الكتاب نظرة مختلفة، وأسهمت القراءة في تحسن حالة نحو ٢٠ شخصا منهم، كان بعضهم مصاباً بالاكتئاب أوالخوف المرضي (الفوبيا) سواء من الظلام أوالأماكن المرتفعة أوالقلق النفسي، وكلها أعراض ليس من السهل تحقيق نتائج إيجابية في علاجها إلا بعد جلسات طويلة.

وطبقاً لهذا تأتي الرواية من أكثر أنواع القراءة فاعلية حيث تشير الأبحاث أن القصة والرواية تساهم في التغلب على تحديات الحياة وتزيد من الثقة بالنفس، كما جاء في بحث بريطاني أن قراءة الشباب الصغير لقصص هاري بوتر جعلتهم أكثر استعداداً وإيجابية إزاء الأقليات المهمشة واللاجئين وهو ما يعمل على إيجاد الأمن المجتمعي.

إن للقراءة فوائد عظيمة في نفس الإنسان، والذين لا يقرؤون يفوتون على أنفسهم كثيراً من الفوائد والمنافع الهامة، وقد ذكر المختصون بعضاً منها مثل:

#### ١- زيادة معدل الذكاء

فالذين يقرؤون لديهم معدل ذكاء أعلى ومعلومات عامة أكثر، وقد أثبتت الدراسات أن التحفيز العقلي يبطيء ويحمي من الإصابة بالزهايمر والخرف، فبقاء العقل نشطاً وفعالاً يمنع من فقدان قوته.

#### ٢- تحسين الذاكرة

عندما تقرأ يجب أن تتذكر ترتيب الشخصيات وخلفياتهم بجانب الأحداث التي تحدث في طريقهم، فالدماغ يقيم نقاط اشتباك عصبية لكل ذاكرة جديدة تنشئها، ويقوي الذكريات السابقة وهذا يساعد على استدعاء الذكريات على المدى القصير .

#### ٣- التقليل من التوتر

مهما كان يومك عصيباً أو علاقتك بالآخرين متوترة فإن قراءة رواية جيدة أو خيالية تساعدك على التخلص من التوتر وتتيح لك الاسترخاء.

#### ٤- الهدوء

بجانب الاسترخاء فإن قراءة الكتب تجلب لك السلام والهدوء الداخلي، فقراءة المواضيع الدينية تخفف من ضغط الدم وتشعر

بالطمأنينة .

٥- تحسين التركيز

حيث تساعد القراءة على التركيز بعيدا عن المشتتات اليومية.



والبقالون ينضمون لمحلات الفلافل لكنهم لا يكونون بنفس الدرجة في  
تحصيل المراجع الهامة وهدر التراث الثمين.

وأحكي لكم هنا حادثتين عاينتهما بنفسني حتى أثبت لكم هذا  
الكشف الكبير لمصدر هام من مصادر المراجع الثمينة، والتي لا أبالغ  
إن قلت: إنك قد تجد لديهم ما لم تجده في المكتبات الكبيرة والشهيرة  
وما أحكيه يدل على ذلك !!

الحادثة الأولى حينما كنت جالسًا مع أحد أصدقائي الدعاة وهويتناول  
مسألة من مسائل الزكاة وكان مرجعه في ذلك هو كتاب العلامة  
الشيخ القرضاوي (الزكاة) وهو كتاب ضخيم يقع في مجلدين، أعجبتني  
هيئة الكتاب فتناولته من يده وتصفحته فراقنتني طبعته وسألته:  
من أي مكتبة تحصلت عليه، فأخبرني بقوله: لن تصدق.. لقد وجدته  
لدى أحد البقالين وقد أوشك أن يمزقه لبييع في أوراقه ما يطلبه  
الناس من بضائع ومواد غذائية...! فأدرسته قبل أن يشرع في تمزيقه  
وأنقذت الكتاب لأستفيد منه.!

أما الحادثة الثانية، فهي عجيبة العجائب، وقد لعب فيها القدر  
لعبة مثيرة!! فصديقي الأستاذ (تامر الويشي) من معلمي اللغة  
العربية النابهين، حكى لي هذه الحادثة حينما كان طالبًا بكلية الآداب  
قسم اللغة العربية بجامعة المنصورة، وقد أراد أحد الدكاترة أن يغير  
من الروتين ويشغل كل الطلاب في مسألة البحث بدلًا من حالة  
الرقود المعروفة التي يعتمدون فيها على كتاب الدكتور.. يذاكرون

منه ويتلقون الأسئلة وتنتهي القصة.. ولكن المشكلة أنه كان يخبرنا بأسماء مراجع كبيرة ويطلب منا أن نذكر منها ونلخص بعض أبوابها، لأن الامتحان سيأتي منها.. فبدأت بيننا نحن الطلاب عملية سباق في تحصيل المراجع، وأحياناً كنا نتصادم بحيث يتحصل البعض على المراجع في مكتبة الجامعة، ولا يستطيع البعض الآخر أن ينظر فيها، لأن الكتاب قد لا توجد منه غير نسخة واحدة، ولكي نتغلب على المشكلة، نقوم بتصوير الفصل المعين الذي يقصده الدكتور وبعد ذلك يتبين لنا أنه ليس المقصود، وتحدث إشكاليات كثيرة.. وفي يوم من الأيام رفعنا شكوانا للدكتور وأخبرناه أن المراجع متاح للبعض دون البعض، فزاد الأمور تعقيداً بشيء جديد، وقال لنا سأعطيكم اسم مرجع وأتحدثكم لوجودتموه، وهو كتاب (همع الهوامع) وبدأت عملية البحث وكان هذا طبعاً قبل ولوج عصر الانترنت والانفتاح الفضائي، وكنت أظن الموضوع يسيراً ولا يتطلب إلا بعض الجهد من البحث، فذهبت إلى المكتبة المركزية ومكتبة قسم اللغة العربية ومكتبة كلية التربية، وذهبت كذلك لمكتبة دار المعارف ودار الكتب بالزقازيق، ولم أجد شيئاً، كذلك تحمسنا للموضوع بشدة.. ثم أخذتني الجلالة أن أسافر للقاهرة وأسأل في دار الكتب ودار المعارف فذهبت في نفس اليوم، ولم أجد شيئاً كذلك، وزادت حيرتي وكان لي صديق قصصت عليه الأمر فاقترح علي أن أبحث عنه في مكتبة الجامعة الأمريكية، فذهبت إليها وبعد بحث طويل لم أجد ضالتي المنشودة، لم أياس.. حتى اقترح علي أحدهم أن أذهب إلى دار المخطوطات القديمة

باعتباره كتابًا أثريا ولعله مازال مخطوطًا فيها ونادرًا، فحينما ذهبت إليهم وسألت الموظفين ضحكوا من الأمر ولا أعرف إن كانوا ضحكوا على حماستي أو على الاسم الطريف للكتاب؟! ولم أجد هناك، وهنا بدأت أظن أن الدكتور قد ألف هذا العنوان من نفسه، وأنه لا يوجد شيء اسمه (همع الهوامع) وأنه ما أراد بذلك إلا أن يحدث لدينا كطلاب نوعًا من التعجيز، فاستسلمت لليأس ومات في نفسي الأمل في تحصيل هذا الاسم الغريب..!

وفي يوم من أيام الجمعة استيقظت من نومي مبكرًا، وطلبت مني والدي أن أذهب لأتسوق وأشتري طعام الإفطار من (عم سيد) بائع الفول والطعمية، وبينما أنا أمامه أنتظر دوري في طلب الفول رأيت بجواره كومة كبيرة من الكتب والجرائد يمزق منها لبييع فيها، ودققت بعيني وكنت مازلت حديث عهد بنوم فأريت شيئًا أذهلني وكدت أشعر معه بدوار أو أنني في حلم أو أن الذاكرة تعيد الأسماء في مخيلتي.. لقد قرأت اسم (همع الهوامع) على كتاب أصفر قديم.. لم أصدق نفسي وبينما أنا في حالة الذهول رأيت (عم سيد) يتجه نحو الكتاب ليمعن فيه بالتمزيق ويصنع من صفحاته قراطيسًا لبييع فيه، فانقضت على الكتاب بيدي وصدري، ففزع الرجل ونظر إلي وقال لي: مالك يا أستاذ؟ فقلت له: (يا عم سيد أنا عاوز الكتاب ده فقال: طيب يا أستاذ خده بس وسع والنبي علشان أبيع دنا بجيب الكيلوبربع جنيه)، أخذت الكتاب وانصرفت دهشًا تائها من غرابة الموقف، وتنبهت إلى نداء (عم سيد وهويقول: الطعمية يا أستاذ!!)

وبسرعة شرعت في إعداد البحث واستشهدت بالكتاب المذكور وجعلته في قائمة المراجع وسلمته للدكتور وكنت في قمة السعادة، أما أصدقائي فلما أعياهم الحصول على الكتاب استقوا ما تيسر لهم من المراجع الأخرى.. وكان الدكتور يقرأ كل شيء للطلبة، ويحب أن يناقشهم بعكس ما نرى اليوم من إهمال متعمد للطلاب وازدراء تفكيرهم، وفي يوم من الأيام دخل الدكتور للمدرج وليس بيده إلا بحثي فعرفته من بعيد.. فوقف وقال: كل المراجع التي قدمت لي كانت ناقصة ولم تستشهد بالمرجع الذي أشرت إليه إلا هذا البحث ورفعته في يديه، وقال: أنا أريد أن أتأكد إن كان هذا الطالب قد استشهد بالكتاب أم لا؟..

ونادى على اسمي فقممت إليه فقال لي: أين الكتاب الذي استشهدت به، وكان الكتاب معي فأخرجته، فلم يصدق نفسه فقال لي: كيف حصلت عليه؟ فقلت له إنها قصة طويلة هل أحكيها؟ فقال: نعم فسردت الأحداث أمام الطلبة، فأعجب الدكتور بإصراري على تحصيل الكتاب وهمتي في البحث عنه، وأخذ مني وصور منه نسخة لنفسه.. وكنوع من الجزاء وأمام الطلاب جميعاً أخبرني أنه سيمنحني امتياز في مادته تقديراً لجهدي.

وبعد هذه القصة العجيبة أتخيلك أيها الباحث الآن وأنت تفكر وأعلم ما تفكر فيه، لأنه نفس ما فكرت فيه حينما سمعت هذه القصة.. أما أنا فجريت لأقرب بقال أومحل فول وطعمية واتفقت

معه أن يطلعني على ما لديه من أوراق الكيلومنها بربع جنيهه  
ليجعل منها قرطيس..!

الرباط الرباط على أبواب البقالين ومحلات الفول والطعمية حتى  
نقتنص تراثنا ونوادرنا!....!

## القاريء الجبار

إذا كان الزعيم (سعد زغلول) قد وصف الأستاذ العقاد بقوله: ( الكاتب الجبار) فيني أصفه في هذا المقام بالقاريء الجبار..! نعم.. فهو القاريء الموسوعي الذي لم يكتف بمجال من المجالات أو علم من العلوم أو فن من الفنون إلا وكان له به اطلاع ومعرفة.. وما كان لهذا القلم القوي أن يبلغ هذا الحجم الكبير من القوة والمتانة والصلابة والمنعة، إلا وتكون وراءه قراءة قوية عنيفة تمده بالوقود اللازم لخلق الجديد من الأفكار والآراء والإبداعات..!

وذاذ يوم وفي لقاء بالمجمع اللغوي جلس إليه أحد علماء الزيولوجيا، وكان يردد من حين لآخر هذه الكلمة كلما أراد أن يتحدث في شيء يقول: (عندنا في الزيولوجيا)! ففوتها العقاد مرة، فلما كررها انفجرت براكين الغضب، وقال بثورة هائلة: عندكم يعني إيه يا.. هل تريد أن تقول: إنني لا أفهم أحسن منك في الزيولوجيا!

ويقول الأستاذ الأديب (علي الطنطاوي): (لا أعلم أحدًا قرأ أكثر مني غير الأستاذان العقاد ومحمد كرد علي..!)

ربما حق للعقاد أن نفرده دون غيره بالحديث عن علاقته بالقراءة وارتباطها بحياته لأنه صاحب المؤلفات العديدة والمصنفات العميقة والقاريء النهمة الذي رأى في القراءة حياة تضاف فوق حياته تضيف

له أعماراً فوق عمره وخبرات فوق خبراته حيث قال: (لست أهوى القراءة لأكتب ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة..)

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب..

فكرتك أنت فكرة واحدة..

شعورك أنت شعور واحد..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أواقيت بشعورك شعوراً آخر، أواقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين.. لا.. وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الأفكار في القوة والعمق والامتداد.. والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة ومحسوس في عالم العطف والشعور.

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرأتين فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنين، ولكنه يرى عشرات متلاحقات في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه). ٧٩

79 (1) أنا - عباس العقاد - ط نضمة مصر

بل كانت القراءة عنده هي المعنى الحقيقي للحياة، بل هي هدف الحياة، فإذا لم تكن فلا حياة.. قال له الأستاذ (طاهر الطناحي) يوماً: إن بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة وتزيد، فماذا يكون شعورك وقتئذ وما الكتاب الذي تؤلفه؟

فأجاب: إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة، ولو كان ذلك غداً!

ثم تحدث عن أكبر أمانيه في حياته والتي لم تكن في المال أو الجاه أو المنصب وإنما كانت في تأليف كتاب عن الإمام الغزالي وفلسفته، وقد عكف على القراءة عنه بعمق في مراحل الأخيرة ليضع عنه هذا الكتاب لكنه رحل قبل أن يبدأ فيه!

انكب العقاد على القراءة منذ الصغر وقرأ كل ما وقع تحت يده بنهم كبير، فقد قرأ العقد الفريد والمستطرف والكشكول ومقامات الحريري وكثيراً من الدواوين قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، كما قرأ بالإنجليزية أعمالاً أدبية كثيرة فكانت ثقافته الغزيرة مستمدة من الحضارتين وهو ما ساعده كثيراً ووسع مداركه، لقد أعطته القراءة كل شيء، وأعطاهها هوكل ما يملك حتى كان أشهر القراء في القرن العشرين.

ارتبط العقاد بالكتاب صغيراً، وكانت لظروف النشأة أثرها في تولد هذا الحب في نفسه فقد كان والده من أنصار الحركة العربية، وكان العقاد يرى في بيت أبيه مجلة الأستاذ وغيرها من مجلات عبد الله النديم ومعها أعداد قليلة من أبونضارة والعروة الوثقى ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء..

وكان يسمع على الدوام أخباراً في سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ولا سيما النديم .

مما دفعه أن يحاكيه وهو صغير بإعداد مجلة اسمها (التلميذ) على غرار مجلة (الأستاذ) التي يصدرها النديم، ثم يقول: إن هذه الظروف اقترنت بها رغبة ملحة في القراءة والكتابة، وكان يرى والده يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية وتراجم الأولياء الصالحين، ولم يقتصر الأمر على والده، وإنما كان يرى أخواله يقرؤون كتب التصوف والأدب الديني، ولا سيما كتب الغزالي ومحيي الدين بن عربي وغيرهم من المتصوفة المتأخرين ثم يصحبه والده إلى مجلسه مع شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين يسمرون معه في المنذرة ويقضون أوقاتهم في الحديث عن السياسة والأسرة الحاكمة وقد أفادته هذه الجلسات فائدة كبرى كان أهمها معرفته بالقاضي أحمد الجداوي وكان من أدباء الفقهاء الذين عاصروا جمال الدين الأفغاني وأخذوا عنه دورساً في الحكمة والغيرة القومية وهو رجل يذكره العقاد بأنه قوي الذاكرة وواسع الحفظ من

المنظور والمنثور يستظهر مقامات الحريري وبيدع الزمان ودواوين الشعراء الفحول ولديه قدرة على منازل خمسة أوستة من الأدباء في وقت واحد فيسكتهم دائماً ولا يسكتونه مرة واحدة، وكانت معرفة العقاد بهذا الرجل حسب قوله هي إحدى الدوافع القوية التي حفزته للمطالعة والإقبال على قراءة الكتب والدواوين.

ومن هذه الجلسات كانت انطلاقة الفتى اليافع نحو القراءة والمطالعة، التي أحبها حينما رأى اهتمام من حوله بها..وهي بمثابة عملية تشجيع ذاتية وتوجيه غير مباشر تتوق إليه النفس حينما ترى المناخ من حولها مصبوغاً به..

لقد ورث العقاد طبيعة الانطواء عن أمه وأبيه، فلم يكن يميل الوحدة وإن طالت ويستطيع أن يقضي الأيام الطوال في بيته وحيداً وهو ما يتعذر على غيره من أترابه، ولكنه ومع هذه الانطوائية لم يكن فارغاً عاطلاً، وإنما كان يشغل نفسه بالقراءة والكتابة .

وفي صباه ومع دخوله للمدرسة كان هناك دكان بجوارها يبيع الكتب مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف ومن هذه الكتب ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين..

ولم يكن مصروف العقاد في ذلك الوقت يزيد على خمسة مليمات في اليوم أي خمسة قروش في الأسبوع يتسلمها من والده كل يوم خميس،

لم يكن يشتري بها مأكولا أوفاكهة كما يفعل أصحابه أويذهب بها إلى ملعب البهلوان إن زارت مدينتهم في أوقات زيارتها، وإذا تجمع لديه ثمن الكتاب اشتراه لساعته ولم يتردد أويعطي العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب، وبهذه الطريقة واستطاع العقاد أن يقرأ العقد الفريد، وثمرات الأوراق والمستطرف والكشكول والمخلاة ومقامات الحريري وبعض الدواوين، ولم تكلفه هذه المكتبة التي اشتراها في صباه أقل من جنيه واحد!

ولكن هذه الكتب التي اشتراها لم تكن هي كل ما قرأه في فترة التلمذة وما بعدها وإنما كانت له طرقه إلى كتب أخرى غير طريق الشراء حيث كان يقرأ في الكتب التي كان أبوه يقرأ فيها.

ثم كبر العقاد وكبرت معه هواية القراءة إلى حد التغول (فاشتهر بسعة اطلاعه وكثرة قراءته لمختلف الكتب، لا يترك نوعاً من أنواع الكتب إلا قرأه، وكانت قراءته سريعة دقيقة ويفضل قراءة كتب فلسفة الدين وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء ودواوين الشعر، وكان يقول: (إنني أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينهما متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، إذ تؤدي جميعاً إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان، فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشعر هو ترجمان

العواطف، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة) ٨٠

وكان العقاد يتندر بما وصفه به الحكيم وتخيله له في بعض كتبه بأنه دخل الجنة وذهب يطوف في أرجائها عسى أن يرى وجهة مكتبة يقف أمامها، ويتأمل عناوين الكتب فيها، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتبًا ضجر منها وطفق يقول: ما هذا؟ جنة بلا كتب؟..

وعلق على هذا بقوله: (إن الحكيم صادق في تخيله، لأنني فعلا لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها.. نعم لا أطلع فيها وليس من الضروري أن أقرأ فالقراءة هي إحدى صور الاطلاع)

لقد بدأ يقرأ في كل شيء، وكان أصدقاؤه حينما جاء إلى القاهرة يتبادلون القراءة، ويذهبون لدار الكتب حتى ينسخون الكتب القديمة..! وكان أول كتاب ألفه عن خواطره ومذكراته مطروحًا في الأسواق سبع أو ثمان سنوات لا يلتفت إليه أحد، حتى بدأ يكتب في الصحف وأقبل الناس عليه وعلى غيرها مما كتب بعد ذلك من مؤلفات، كان يقرأ في العلم والأدب والتاريخ والفلك والطب وكل شيء وفي حواراه مع الإعلامية (أماني ناشد) أشار لها أن هذا الدولاب الذي على يساره فيه ٠٠١ كتاب عن الحشرات يقرأها وينظر فيها!..

ويحكي تلميذه النقيب الكاتب الكبير أنيس منصور في كتابه (في

---

80(1) أنا - للعقاد ط. نضضة مصر

سالون العقاد كانت لنا أيام) أنه أراد ذات يوم أن يثبت للعقاد أنه لم يقرأ كل شيء ولا يعرف كل شيء وخصوصًا في الفلسفة الوجودية وهي تخصص أنيس منصور، وقام متباهاً بذكر أسماء الكتب التي قرأها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، فسأله العقاد: كم كتابًا له عندك؟ فقال أنيس: كل الكتب التي ترجمت إلى الإنجليزية وهما كتابان، فضحك العقاد ونادى خادمه وقال: هات الكتب الملقاة على السرير، فكانت المفاجأة بأن جاء الخادم بسبعة كتب للفيلسوف الألماني وضحك العقاد ليقول: كل شيء موجود هنا يا مولانا، إنني أطلب الكتب وهي في المطبعة !.

يرى العقاد بأن (الكتب لا تغني عن تجارب الحياة، وكذلك لا تغني التجارب الحياتية عن الكتب لأننا نحتاج قسطاً من التجربة لكي نفهم حق الفهم، أما أن التجارب لا تغني عن الكتب فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين)

كما كانت له نظرة إيجابية في الكتب المكررة في الموضوع الواحد، ولم يجعله تشابه الموضوع يعرض عن البقية بحجة أنه قرأ مثله قبل ذلك وهي فلسفة تؤمن باختلاف وجهات النظر وتمايز الأفكار وتنوعها واختلاف رؤيتها التي تجلب الفائدة مهما كانت يسيرة، فهولا يظن أن هناك كتبًا مكررة، لأنه يعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها أكثر من كاتب وأكثر من كتاب أصبحت ألف فكرة، ولم تعد

فكرة واحدة، وكان يتعمد أن يقرأ في الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين، ويشعر بالمتعة والمنفعة من قراءة الموضوعات المتعددة، فكان يقرأ على سبيل المثال في حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتبًا ويثق أن كل نابليون من هؤلاء هوغير نابليون الذي وصف في كتب أخرى .

ولا يفوت العقاد أن يتحدث عن تأثير الكتب في الإنسان بأنواعها فيقول: أما تأثير كل نوع من أنواع الكتب الثلاثة العلمية والأدبية والفلسفية، فهوأن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة، وتفيدنا المعارف المحدودة التي يشترك فيها جميع الناس، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور، وتكشف لنا عن الحياة والجمال، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول وتنتقل به من الفروع إلى الأصول.

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان وتعريف جوانب هذا العالم الذي يعيش فيه وأنا أفضلها على هذا الترتيب الأدبية، فالفلسفية، فالعملية .

وحول الفائدة من الكتاب الذي نريد قراءته، فقد أشار العقاد إلى أن القارئ لا يستطيع تحديد حجم ومقدار الفائدة التي يجنيها من قراءة الكتاب فرب كتاب يقرأه القارئ ويجتهد في قراءته ثم لا يخرج منه بشيء وكتاب آخر قد يتصفحه مجرد تصفح فيترك فيه نفسه أثرًا كبيرًا وعميقًا في كل رأي من آرائه وفي كل اتجاه من

اتجاهات ذهنه.. ويقدم نصيحة للقاريء الذي يصيبه الفتور من القراءة فيقول: لا تُكره نفسك على القراءة ودع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستثقال..

ثم يتحدث عن الكتاب المفيد والمؤثر ويبين أن الكتاب المفيد هو الذي يزيد من معرفة قارئه وقدرته على العمل والإدراك وتذوق الحياة، ويكون هذا الكتاب جديراً بالاهتمام إن وجد، والإنسان لا يعرف إلا ليعمل أوليشعر، والمعرفة التي لا عمل وراءها ولا شعور فخير منها عدمها، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وبين ما لا يصلح..

كان العقاد في حالة مادية غير مستقرة ويلجأ للكتب ويعيش منها، فقد بلغ به أمره أن يؤلف كتاباً عن (سعد زغلول) حتى يساهم في إنعاش حالته المادية ويروج لاسمه أكثر وأكثر، وقد قيل إن دار الطباعة التي نشر فيها (العقاد) هذا الكتاب قد أعلنت أن ثمن الكتاب قبل الطبع، أقل من ثمنه بعد الطبع بقيمة الثلث، فأقبل المواطنون على شراء الكوبونات التي طبعت لهذا الغرض، وفي أسبوع واحد بيع أكثر من ثلاثين ألف كوبون فحصل العقاد على ثمن الطبع من الربح واعتمد عليه فترة من الوقت لا تقل عن سنة تقريباً..

وقيل: إن الدنيا ضاقت به مرة لضيق ذات اليد فهم بالانتحار حتى فوجيء بأحد الناشرين يطرق بابه ويريد أن يشتري منه كتابه أبوالشهداء نظير قدر مالي كبير..!

لقد كانت الكتب للعقاد وفي حياة العقاد هي النوافذ التي تطل  
على حقائق الحياة!.

obeikandi.com

## ماذا يقرأ الطاغية؟!

منذ فترة تابعت موقع عبد الناصر وقد زج الناصريون فيه مئات الكتب التي قرأها زعيمهم..! ولا أعرف ماذا به لو كان لا يقرأ؟ وكيف سيكون مصير مصر أكثر مما آلت إليه في أيامه السوداء؟! أم أنها محاولة غبية عبثية لإثبات أن القراءة من الممكن أن تقود للفشل والخيبة والخسارة والعار؟!

والحق أن فعلهم هذا ربما يكون صحيحًا فالرجل كان يقرأ ويطلع ويهوى الأدب والروايات، ولكن هناك سر حول هذا التناقض الرهيب.. فكيف برجل مثقف يهوى الأدب ويطلع على إنتاج الأدباء، ثم يبلغ طغيانه إلى هذا الحد؟! وكان الأولى أن يؤثر الأدب في نفسه، ويهذب روحه وإحساسه، فيكون رقيق المشاعر حاضر العاطفة إنساني النزعة والتوجه.. فما للغز في هذه الشخصية المحيرة؟ ولماذا لم تؤثر القراءة في شخص الزعيم الكبير؟ إلا بنتيجة سلبية..؟

والجواب يتلخص في المارد الذي يسكن شخصية عبد الناصر.. مارد مجنون بالعظمة والزعامة والقيادة والأوحادية.. التي للأسف وجدت في القراءة طريقا لإنمائها وسيلا لتغذيتها..!

حينما قام انقلاب يوليو ٢٥م، وتحول بفضل بنات أفكار الأفاقين والكذبة من الكتاب والإعلاميين إلى ثورة ٢٥، ظهر شخص (عبد الناصر)

الذي كان يُؤمن بالفرعونية، ويتقمص شخصية الفرعون.. وظهر كذلك من شجعه على المُضي في هذا الدور وانتحال شخصية المعبود.. من المتملقين والنفعيين والعبيد وأعداء الحرية.. وكانت المفاجأة يوم صرح قائد الثورة الملهم، بأنه استلهم روح الثورة من كتاب (عودة الروح) للأديب الكبير (توفيق الحكيم)، وأنه الكتاب الذي أثر في تكوينه الوطني!!

نعم لقد كان (عبد الناصر) مثقفاً وبقراً ويحب الأدب والفكر.. ولكن للأسف.. بدلاً من أن تُهذب هذه الثقافة نفسه، وتقوم الأفكار والآداب سلوكه وشططه، فإنها كانت وقوداً للمارد الجبار، الذي يقبع داخل نفسه، و ينتظر اللحظة المناسبة للخروج.

تماماً كمن جاء حقلاً مليئاً بالأشواك يريد أن يسقيه بالماء..!! إن السقاية أمر محمود، وإرواء الأرض عمل طيب، ولكن ذلك المعنى لا يستقيم في حقل تبعث أرضه بما يؤذي الإنسان!

لقد كان (توفيق الحكيم) نفسه يتساءل ويقول: إن عبد الناصر جعل نفسه معبود الشعب، ولست أدري هل كان ذلك حلماً قديماً له؟.. بدأت أسأل نفسي بعد أن تأكدت مظاهر العبادة لشخصه على مر الأيام، ما الذي كان يعجبه في كتاب (عودة الروح)؟ أتري هل الفكرة التي تروي ما معناه.. أن مصر تحتاج دائماً إلى معبود من بينها؟

فلما قرأ ذلك وهوشاب صغير، حلم بأن يكون هو ذات يوم.. هذا المعبود؟

ليس هذا بالشيء المكروه، فكل إنسان له الحق أن يحلم بأن يكون معبود الجماهير، ولكن المكروه بل الخطر، هو أن يكون للمعبود البشري من القداسة ما يجعله معصوماً من الخطأ في نظر الناس، وما يجعل سلطانه يشل العقول فلا ترى غير ما يرى، ولا يسمح لها برأي يخالف رأيه..

ولا شك أن تحليل الأستاذ (الحكيم) وتكهنه حول إعجاب (عبد الناصر) بكتابه، هو التفسير المقبول والاستنتاج الصائب، وعلى هذا فإن رواية (عودة الروح) بقدر روعتها وتميزها، إلا أنني أعتبرها رواية مشؤومة على مصر، حينما قرأها (جمال عبد الناصر) وغمت فيه روح الزعامة الأوحادية، وصادف فيها تلك العبارات التي جعلت منه هذا الطاغية الجبار، الذي أذل مصر وكبت حريتها، وكلل حياتها بالعار والهزيمة..

وأمام هذا الجبروت كان الحكيم يحتال له في النصح، ويوجه له رسائله مغلفة بصورة متوارية.. خوفاً من حماقته وغروره التي فطن إليها وعابنها في سياساته ومواقفه من معارضيته

يقول الأستاذ (توفيق الحكيم) في كتابه (عودة الوعي): ( عندما كان يخاطبني بعض الشك أحياناً، وأخشى عليه من الشطط أو الجور، كنت

أجأ إلى إفهامه رأبي عن بُعد ورفق، وأكتب شيئاً يفهم منه ما أرمي إليه.. فقد خفت يوماً أن يجور سيف السلطان في يده على القانون والحرية فكتبت (السلطان الحائر) ثم خفت أن يكون غافلاً عما أصاب المجتمع المصري قبيل حرب ٧٦٩١م من القلق والتفكك، فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من المغامرات فكتبت (بنك القلق) وهي كلها كتابات مترفقة بعيدة عن العنف والمرارة، لمجرد التنبيه لا الإثارة، وكما علمت فقد قرأها وفهم ما أقصده منها، ولكنه فيما ظهر لم يأخذ بها، بل اندفع في طريقه )

إن الحكيم يتواري في نُصح الطاغية، حتى لا يجلب الضرر لنفسه، والمصادرة لأفكاره وكتبه.. لقد قام بدوره مرشداً وموجهاً، بالطريقة المناسبة.

زلف (جمال) على متابعة الكتاب والمفكرين الأدباء، عله يجد في كُتبه ما يروي نفسه المنكوبة بحب العظمة والكبرياء والزعامة الزائفة، فكان الدور في الإعجاب، من نصيب الكاتب الكبير (خالد محمد خالد) الذي قرأ كتاب (الديمقراطية أبداً) وكانت له معه قصة مشهورة.. لقد راق له أسلوب خالد، وأعجب بالكتاب إعجاباً مفرطاً، وليت هذا فحسب، وإما تخطاه لأبعد من ذلك، فقد حفظ بعض جملة وفقراته.

وقف يوماً ليخطب في حفل كبير ضم عشرات الألوف بمدينة (المنصورة)، واستشهد خلال خطابه بفقرتين من الكتاب المذكور دون

أن يشير إليه! وكانت الفقرة الأولى التي ألقاها على الجماهير هي:  
(على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل.. أوفليقاتل حتى  
الموت دفاعاً عن وجوده)!

أما الفقرة الثانية فهي: (إن الأمة التي تسام على حرقتها توقع في  
ذات الوقت وثيقة عبوديتها)!!

وفي اليوم التالي لهذا الحفل السياسي الضخم كانت الملصقات تغطي  
جدران الأبنية والشوارع في القاهرة، حاملة الفقرتين وممهورتين  
بتوقيع جمال عبد الناصر!!

يقول الأستاذ خالد:(لقد فرحت به وفرحت له، فالكتاب لم يكن قد  
مضى أكثر من أسبوع على ظهوره.. ومع ذلك قرأه وفهمه وانتقى  
من أطايبه ما يضمنه خطبه.. إنه إذن لرجل كبير؟!)

وفي عمود الاجتماعات نشرت جريدة المصري الفقتين اللتين انتحلهما  
عبد الناصر وكتبت تحتها: من قائل هذه الكلمات المضيئة ؟ إنه  
خالد محمد خالد في كتابه الجديد الديمقراطية أبداً.

كان عبد الناصر لا ينسى.. ويومئذ أحسست أنه لن يغفر للمصري  
هذه الغمزة الواشية !!

وأغص نفسه أكثر، أنه في تلكم الأيام كانت العلاقة قد بدأت تسوء  
بينه وبين محمد نجيب..الذي وقف يوماً ليخطب هو الآخر ويقول:

إنهم يأخذون أفكار غيرهم وكلامهم، وينسبونه لأنفسهم وهم يخطبون الجماهير!..

وفي اليوم التالي وقف عبد الناصر يخطب ويغمز الرئيس نجيب غمزاً مسيئاً) والحادثة رغم كونها محرجة لشخص عبد الناصر، إلا أنها تشيد بحبه للقراءة وتذوقه للأدب والفكر، ولكن هذا التذوق وهذه القراءة، لم تكن تدفعه ليؤمن بما كان يقرأ ويتذوق، وإنما كان فقط ينتقي من كتب المفكرين ما يحلوه من فقراتهم البيانية، وجملهم الحماسية، التي تلهب عاطفة الجماهير حينما يرددها في خطابه، وهي الحماسة التي تُسهم كذلك في تزكية الشعور المتأصل في نفسه بأنه الزعيم الملهم والقائد الجسور الذي لا مثيل له.

أما خالد فلم يحزن أن سُرقت كلماته ونسبت لغيره، وإنما فرح واستبشر لأن الرجل قرأ كتابه، ومعنى هذا.. أنه فهمه واقتنع به وحفظ كلماته، ولا بد أنه سيسير في تطبيقها.. ولكن الأيام حملت لخالد خيبة الأمل في ناصر ورفاقه.. حتى كان رأيه الذي قال فيه: (إن إعجاب عبد الناصر بالدكتاتورية في سنٍ مُبكرة، قد اختبأ داخل شخصيته مستوطنًا وجدانه وأحلامه بحيث لم يفلح في إجلائه)

لم يكن عبد الناصر يقرأ ويتثقف ويحفظ جمل الغير وينسبها لنفسه فقط..! وإنما كان يحمي من يُحب من المفكرين الذين أثرت فيه كلماتهم، حتى لونقدوه وخالفوا توجهاته، في الوقت الذي لم يكن يرحم فيه من يقول له لا، أو ينطق بما يخالف هواه!

وليكن خالد وتوفيق نموذجًا.. فحينما صدر كتاب (خالد) عن الديمقراطية في لحظة حرجة تُخالف توجهه ضباط الانقلاب، سأل بعضهم (جمال عبد الناصر) لِمَ لَمْ تُصادر هذا الكتاب؟ فقال: إنه لا يليق بنا أن نُصدر أول كتاب للكاتب الذي كتب في عهد فاروق (مواطنون لا رعايا).. ثم كأنه أراد أن يقطع الطريق على مقترح المصادرة، فقال: إننا إذا صادرناه سينتشر أكثر ويذيع أمره..

أما (توفيق الحكيم) فحينما هاجمه أحد أدباء الشام هجومًا حادًا.. إذا بعبد الناصر ينفعل من أجله، ويصدر قرارًا بمنحه أكبر وسام في الدولة، وحينما راجعه أحدهم بأن الوسام يُمنح لكبار رجال الدولة، وليس لموظفين صغار في درجة وكيل وزارة.. لم يلتفت لكلامه.

أما الموقف الثاني فقد تسبب الحكيم في فصل أحد الوزراء من عمله، فحينما ترجمت مسرحيته إلى اللغة الألمانية، ومثلت في ألمانيا على مسرح (الموزارتيوم) دُعِيَ إلى حضورها وسافر، وكانت الحفاوة به بالغة، وصفها سفير مصر في ألمانيا وقتها في تقريره الذي بعث به إلى وزارة الخارجية مرفقًا به بعض مقالات الصحف التي تحدثت عن الموضوع.. وحينما رجع (توفيق الحكيم) وجد الوزير قد تقدم بطلب لفصله من وظيفته، طبقًا لقرار التطهير باعتبار أنه موظف غير منتج، فصاح (عبد الناصر) في وجهه قائلاً: أتريد أن نطرد كاتبًا عائدًا إلينا بتحيةة من بلد أوروبي ؟

أتريد أن يقولوا علينا أننا جهلة؟!، وانتهى الأمر بإخراج الوزير من الوزارة.

وبعد..فرغم هذه الحفاوة والتقدير من عبد الناصر لتوفيق الحكيم وخالد محمد خالد، إلا أنهما أبدًا لم يردا الجميل على حساب الحق، بل قالوا فيه رأيهما بصراحة ووضوح، وأعلنوه بصوت عال وأظهروا فيه كيف كان يقدس ذاته، ويتمثل نفسه ما على الأرض مثيلاً له أو شبيهه، وسجلوا في محضر التاريخ كيف كان يؤمن بالديكتاتورية تلك الآفة التي رُكّعت مصر، وقضت فيها على بذور الحرية..

فأين اليوم أصحاب الأقلام من المفكرين والأدباء والإعلاميين الذين ينطقون بالزور ويرددون الإفك ويجميلون القبيح ويقبحون الجميل، أين هم من قول الحق وإنصاف الحقيقة التي دهسوها بأحذيتهم قبل أن يدهسها سادتهم من الحكام الآثمين؟!

أين هم اليوم من خالد وتوفيق..؟!

إن الأمم تعتز بزعمائها وتحاول أن تخلد ذكراهم ومآثرهم وتاريخهم، وبعضهم صنعت له التماثيل والمجسمات وأنشئت له اللافتات الضخمة الكبيرة.. وبعضهم تسمت باسمه أكبر الميادين والأندية والأحياء وربما المدن، وبعضهم جعلوا من بيته متحفًا يضم أخص خصائصه، فهذا ملبسه وهذا معطفه وذاك حذاؤه، وهذا مكتبه، وهناك يقبع سريره.. وكثير منهم من توضع وجوههم في العملة

الرسمية للبلاد لكي يراهم الناس ويتذكرونهم في كل وقت وحين.. وهناك أمم بارعة في هذا النوع من التكريم الذي وصل بها إلى حد التقديس والمغلاة في شخوص زعمائها، كما نرى في روسيا وما كان من أمرها مع لينين، وتركيا مع الهالك الملعون كمال أتاتورك، وفي أمريكا مع جورج واشنطن وابراهيم لينكولن..حتى طالعتنا مؤخراً محاولة جديدة وفريدة من نوعها في تخليد ذكرى قائد من القادة المشهورين في العالم، وركزت على جانب هام ومجهول من حياته وهو جانب يكاد يتفرد به من بين الزعماء والمشاهير في عالم السياسة، فقد فوجيء الجمهور العربي بمعرض فتوغرافي ضخم في رام الله تحت عنوان ( جيفارا قاريء بلا حدود ) حيث يتم فيه إبراز الجانب الثقافي في حياة جيفارا ويتناول تفاصيل أحواله كقاريء ومثقف..

جاء المعرض بالتعاون مع ممثلية الأرجنتين في فلسطين، وقدم صوراً نادرة لجيفارا وهو يقرأ، إضافة إلى صور كتب كان يقرأها أو كتبها أو ترجمت عنها، كما عرضت عبارات نادرة له حول القراءة وعبارات قيلت فيه كقاريء وليس فقط ككائن..

وجيفارا تائر عظيم وبطل أممي يعرفه كل العالم ويعلق الشباب على اختلاف مراحلهم وألوانهم صورته على ملابسهم وفي حجاتهم وصار يمثل اليوم رمزاً للحرية والاستقلال، ولهذا كان جيفارا يقرأ للحرية والاستقلال، ولم يكن يقرأ ليغذي في نفسه مارد الطاغية المتكبر الذي يعتقد أن الله خلقه من نبتة العظمة بينما خلق الآخرين من الطين.

إن العالم يعرف بقوة معنى جيفارا الثائر حتى قدم لنا المعرض جيفارا القاريء، وهولون جديد من حياة جيفارا الذي يحبه الملايين.. ! فهل ياترى يستطيعون محاكاته فيما كان يحبه ويهواه ويواظب عليه، أم أن التقليد في المظاهر والشعارات وحدها !؟

لقد نظم هذا المعرض للمرة الأولى حسب ما نشرت صحيفة الحياة في (روساديو) في عام ٢٠١٣ م عبر مركز الدراسات الأمريكية اللاتينية، بهدف تعريف الجمهور وتقريبه من الكتب التي غدت فكر جيفارا منذ الطفولة المبكرة وحتى آخر أيامه في الغابات البوليفية، حيث عرضت صورة له برفقة بعض الثوار وهو يقرأ لهم أحد الكتب، إضافة إلى الكتب المتعلقة بنشأته النظرية (السياسة، والتاريخ، والاقتصاد، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وغيرها)، كأساس لبناء نظريته الخاصة، كما يهدف المعرض إلى التعمق في تلك القراءات الأخرى التي أثرت في حياته، من خلال أجناس أدبية مختلفة، مثل الرواية، والشعر، والقصة القصيرة، حيث يتضمن المعرض قائمة طويلة بالكتب التي قام جيفارا بقراءتها، وتلك التي كان يخطط لقراءتها، علاوة على صور له في لحظات القراءة، في أماكن قاسية وغير متوقعة، علاوة على ما يهدف إليه من التأكيد على أهمية الكتاب كأداة من أدوات التحرر. واللافت، أن جيفارا، ومنذ كان شابًا، عمد إلى تكوين ما يمكن تسميته (فهرس قراءة)، عن طريق تدوين الكتب التي قرأها، والكتب التي ينوي قراءتها، حيث يظهر في المعرض فهرسًا خطه في الغابات البوليفية يظهر واحدًا وخمسين عنوانًا أدبيًا كان

ينوي قراءتها، ولم يمهله الموت إتمام المهمة، علاوة على ما تضمنه المعرض من ملاحظات نقدية حول ما قرأه، خطها بيده، وفي مرحلة لاحقة بالآلة الكاتبة (الطابعة). واشتمل المعرض على مراسلات بين أرنستو وعمته بياثريت، وكانت تقيم في المكسيك، ومنها رسالة في العام ١٩٥٤، يطلب منها فيها أن تزوده بالجرائد اليومية، لافتاً إلى أنها (بعشرين سنتاً يمكن أن ترسل له الكثير من الجرائد القديمة)، في حين أشارت رسالة أخرى لعمته، بعد عامين من الأولى، إلى إلحاحه بإرسال المزيد من الجرائد، وأنه لن يطلب ذلك منها مجدداً، إن كانت لا تحب القيام بهذه المهمة، مع أن قراءة الجرائد مثيرة جداً لاهتمامه، وفي رسالة أقدم تعود إلى العام ١٩٣٧، خاطب جيفارا عمته برسالة جاء فيها (أنا بخير، ولقد غادرت الفراش.. الجوجميل هنا.. إذا كان معك نقود، لا تنسي شراء كتاب هومبيرتو نوبيلتي). ونقل عن فلاح كان على مقربة من جيفارا، يدعى رافائيل فيردسية، قوله: (في بعض الأحيان كان يقرأ هناك (الغابات البوليفية)، جالساً على حجر، لا أعرف الكتاب الذي كان يقرأه لأنني لم أكن أحب أن أسأل كثيراً.. ولكن أتذكر رؤيته يقرأ بينما كانت الحشرات تقرصه، ومن شدة تركيزه العميق بالقراءة، كان بالكاد يحس بها). وما بين ماركس وشكسبير، ولينين وليزاما لاما، ومن خلال اختياراته الأدبية، يمكن للمهتمين العمل على إعادة بناء جزء من حياته القرائية، التي صنعت من أرنستو جيفارا، التشي، أيقونة عالمية، وهو ما أكده زياد خلف المدير التنفيذي لمؤسسة عبد المحسن القطان، الذي كشف

عن تنقل المعرض بين عدة محافظات فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهوما شدد عليه أيضاً إدواردودي مايو، ممثل الأرجنتين في فلسطين.

وقال زياد حاج علي، قيم ومنتج المعرض: إن معرض (جيفارا قارئ بلا حدود) يركز على جانب آخر، ربما يكون مجهولاً لدى الكثيرين حول جيفارا، ألا وهو (جيفارا القارئ)، الذي اشتهر كطبيب ثم قائد ثوري أممي، اشتهر في الثورة الكوبية، قبل أن يرحل إلى الغابات البوليفية، حيث كان يمارس القراءة والكتابة بكثافة أكثر في تلك الفترة، كاشفاً عن أنه تم التواصل مع مؤسسة جيفارا الثقافية في الأرجنتين، وبالتحديد مع شقيقه، عبر مؤسسة عبد المحسن القطان والممثلة الأرجنتينية في فلسطين، وحصلنا على مادة المعرض، شريطة عدم استخدامها تجارياً، أو تعميمها، حيث تم الاتفاق على نقله لعدة أشهر إلى متحف جامعة بيرزيت، فيما يجري العمل على نقله إلى قطاع غزة، والقدس، ونأمل أن نتمكن من ذلك، خاصة أنه يكتسب خصوصيته من كونه يركز على جيفارا القارئ، وجيفارا الأديب.

من جانبه، قال (محمود أبوهشيش) مدير برنامج الثقافة والفنون في مؤسسة عبد المحسن القطان: إن أهمية المعرض هي نجاحه في المزج ما بين القيم التي ناضل من أجلها جيفارا، ومن بينها قيم العدالة، والكرامة الإنسانية، والتحرر من الاستعمار، والمزاوجة ما بين رمزته العالمية في هذا الإطار، وما بين فكرة المعرفة، التي هي أساس للنضال

ولتحقيق القيم التي ناضل من أجلها جيفارا، ويناضل من أجلها، ومنذ عقود، أبناء الشعب الفلسطيني، لافتًا إلى أنه يجري التنسيق للمعرض منذ قرابة العام، وشاءت الظروف أن يتم إطلاقه في وقت تتصاعد فيه حدة المقاومة الفلسطينية، وبشتى الطرق، وبعضها مبتكرة، في مواجهة سياسات الاحتلال وجرائم المستوطنين، خاصة أننا بدأنا نفقد تلك المزاجية ما بين الوعي والثقافة والمعرفة وما بين الكفاح المسلح، التي كانت ترافق المسيرة النضالية الفلسطينية في ستينيات، وسبعينيات، وثمانينيات القرن الماضي.

وأضاف أبو ههشيش: هناك تراجع فلسطيني، وفي مجمل المنطقة، فيما يتعلق بالقراءة والجانب المعرفي، وجزء كبير مما يحدث في المنطقة أساسه الجهل، والادعاء بالمعرفة، ويأتي هذا المعرض، لتوظيف جيفارا الرمز والأيقونة بالنسبة للفلسطينيين بشكل خاص، وفي العالم بشكل عام، للتذكير بأهمية الانحياز مجددًا للقراءة والمعرفة، بما يعزز الحركة النضالية والتحررية ضد الاحتلال).

## الفرق بين الثقافة والعلم !

ما تقدمت أمة من الأمم إلا كان العلم رائدها الذي يدفعها للقيادة، وما تأخرت أمة إلا كان بينها وبين العلم حجاب وسدود، والقراءة هي طريق العلم والباعث على التفوق والنهوض والكتاب في حياة المتقدمين له قدسيته ومقامه في طريقهم للريادة المنشودة التي لا تنال أبدا بالجهل وضحالة الثقافة، وما أراد الإنسان أن يسمو بنفسه، ويرقى بعقله ويشعر بتميزه كإنسان إلا بالثقافة والعلم والقراءة التي أصبح حظها ضعيفا ووازعها معدوما في بلادنا مما أدى لتأخرنا عن ركب الحضارة ومسيرة القيادة التي كنا فرسانها يوم كان العلم والكتاب رائدنا.

جمعتني إحدى المجالس بأستاذ جامعي في كلية الهندسة، كان الرجل يتحدث في السياسة ويهرف فيها بما لا يعرف ويسوق في شأنها حشدا من البراهين الفاسدة التي لا تقنع صبيبا صغيرا، لقد ظن أن درجته العلمية تؤهله للخوض في أي شيء حتى ما ليس في تخصصه أو أي علم يقرأ فيه ولوجملة واحدة!

وكيف لا يفتي فيها والدكتور والأستاذ الكبير الذي ينال الاحترام والتقدير والتقدير في كل مكان من أفراد المجتمع، ولا نعرف هل العيب فيه أم في هذا المجتمع الذي لا يستطيع أن يميز بين المثقف وغيره فإذا هممت بالاعتراض عليه سمعت من يقول لك: كيف

تعترض على الدكتور أتريد أن تفهمنا أنك تفهم أكثر منه؟!

وربما تجد من ينعتك بأنك حاقد أوغائر لأنك لا تملك ما يملك من الدرجة العلمية، وهذا لا شك خلل في المفاهيم وخلط في التصورات، ووباء عقلي يضرب المجتمعات الجاهلة..

كما تجد هذا أكثر ما تجده بين علماء الدين وخريجي الأزهر الذين يتخرجون ولا دراية لهم بالتحديات والمؤامرات التي يتعرض لها المجتمع المسلم وما يحاك لدينهم من المحن المؤرقة ورموزهم من الطمس والتشويه، ودعوتهم من التصدي والحظر ولا يرون من هذا شيئاً لأنهم يفهمون الإسلام بصورة لا تعبر عن حقيقته، فهم لا يعرفون عن الإسلام إلا أحكام الغسل والطهارة وطاعة ولي الأمر فترى منهم من يؤيد حاكماً ظالماً ويقف في صف نظام علماني أوشيعي أونظام ملحد يبغض الدين، فماذا يقلق الإسلام إذن والمساجد مفتوحة وكل الناس تصوم رمضان وهكذا يتصورون.. ومن ثم يقودهم سادتهم ليكونوا أداة يضربون بها التدين الحقيقي وحركاته الإصلاحية ويستصدرون منهم الفتاوى التي تحكم على خصومهم بأنهم خوارج أوإرهابيون أومتطرفون وهو ما فعله عبد الناصر قديماً والاستعمار في بلاد المغرب الذي أغرى بعض المتصوفة الجهال ليقولوا بأن من يحارب الاستعمار يحارب الله لأن الاستعمار قضاء الله وقدره.

المشكلة إذن مشكلة ثقافة ومعرفة ودراية لا تؤصلها المقررات المدروسة وإنما يناط الوعي بها على الثقافة والمعرفة والقراءة والتزود من العلم، والفصل بين الثقافة والعلم في مجتمعنا له جذوره التي أنبتها الاستعمار (عندما حرص على خلق متعلمين غير مثقفين، لأن المتعلم المثقف كان من العناصر الفعالة في المجتمع، وكان دائماً من دعاة تحرير الوطن والقضاء على أي سيطرة خارجية عليه، ولذلك رأى الذين يخططون للنفوذ الاستعماري أن يعلوا بقوة على فصل العلم عن الثقافة، حتى يخرج علماؤنا من الجامعة وهم بلا رأي سليم ولا موقف ناضج في أي أمر من أمور الحياة) ٨١

ولعل القراءة من أهم ما يساهم في تقويم هذا التشويه المبكر، وتستطيع أن تحقق الوعي المطلوب والفهم الرشيد في عقول المتعلمين التي تقود مستقبل الأمة على بصيرة وفهم وإدراك لعلها وأدائها، بالقراءة وحدها نقضي على هذا الفارق المزعج بين المتعلم والمثقف ليصير كلاهما مكمل للآخر.. !

بالقراءة وحدها نكون جيلاً يقود حياتنا، متصدياً للظلم مؤيداً للحرية داعماً للعدالة.

يقول الدكتور البوطي: ( لنعلم قبل كل شيء أن هناك فرقا بين العلم والثقافة..! إن العلم هو إدراك الشيء إدراكا مطابقا لما هو عليه في الواقع، ونفس الأمر بدليل يقطع النظر عن أي زمان ومكان، أما

81<sup>(١)</sup> عباقرة ومجانين - رجاء النقاش

الثقافة فهي تلك المعارف التي تتعلق بطبيعة أمة وتراثها وتقاليدها ومجتمعها ومواضعها السلوكية والتربوية، وعلى ذلك فإن العلم هو السلعة القابلة للتصدير والاستيراد في نطاق العالم كله، لا ينبغي أن تتعثر في طريقها بدين أومبدأ أومصلحة أوتقليد، أما الثقافة فرغم أنها تنهض في كثير من جوانبها على حقائق العلم، ولكنها في مجموعها تعتبر من خصائص شعب أو أمة ما تنسج على قدرها وتنطبق على حياتها) ٨٢

(والثقافة الذاتية مسؤولية الفرد ولا يقع عبؤها على المدارس والمؤسسات التعليمية، وتستطيع الدولة أن توفر مناهل الثقافة والمعرفة للراغبين لكن تبقى مسؤولية الفرد تجاه نفسه فهو وحده القادر على تثقيف نفسه بكافة الطرق والوسائل إن أراد ذلك ووجد من نفسه الحافز على إنجاز هذا القصد..

حتى الفقير المعدم يستطيع أن يختلف إلى المكتبات العامة لصيب من الثقافة المتاحة له ما يطيب له أن يصيب) ٨٣

وقد كان ثروت أباطة يتندر بقريبه (توفيق أباطة) الفلاح الذي يعمل بالفأس ولم يدخل أي مدرسة وعلم نفسه بنفسه وثقف

---

82<sup>(1)</sup> الاسلام ومشكلات الشباب - د. محمد سعيد رمضان البوطي  
83<sup>(1)</sup> من مقال التعليم مسؤولية الدولة والثقافة مسؤولية الفرد - الأعمال الكاملة لثروت أباطة

نفسه بنفسه، ونقل ديوان المتنبي بخط يده كاملا لأنه كان فقيرا لا يستطيع شراءه وكان مولعا بالشعر الذي أدلى فيه بنماذج رقيقة جيدة ومنها ما قاله لأحد أصدقائه يذكره بأيام الأُنس التي عاشها معا:

وعلى اقتراحك قد نزلت                      وقد نزلت على اقتراحي  
فتمازجت أرواحنا                      كالروح والماء القراح

وقال مرة لمن أهدها عمامة:

توجت رأسي بالعمامة                      وكسوتني حلل الكرامة  
فكأنني شيخ المراغة                      في المهابة والفخامة

وأرسل برقية لوالد ثروت أباطة يقول فيها:

قل للوزير الأملعي مقالة

مشوبة كذكائه الموقد

الفأس قد أكلت يدي وأنا امرؤ

للطرس لا للفأس قد خلقت يدي

ونموذج كالأستاذ العقاد لم يكمل تعليمه وإنما اكتفى منه بالمرحلة الابتدائية فقط لعدم توافر المدارس الحديثة في أسوان وكذلك لموارد أسرته المحدودة التي لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة لإكمال تعليمه فاعتمد على ذكائه الحاد وصبره على التعلم والمعرفة وثقف نفسه بنفسه حتى صار من عباقرة الزمان ونوادره، ليس في العلوم العربية فقط وإنما في العلوم الغربية كذلك فتعلم الانجليزية واطلع على

ثقافات متنوعة.. وكثيرون من أدباء العالم قدامى ومحدثين لم يكن  
حظهم كبيراً من التعليم، ولكنها الثقافة الذاتية التي انطلقت بهم  
إلى آفاق العبقريّة.

## نشيوخوا قبل أن يشيخوا !

لا أنسى أبدا نصيحة أحد الكتاب حين قال لي: (اقرأ أكثر مما تكتب).. ولكنني أجد نفسي أمام هذه النصيحة في حرج شديد، فمشروعي ككاتب يقتضي مني أن أمرن قلمي على الكتابة بين حين وآخر، حتى يصل لمستوى يرضي القراء، فالقلم يصدأ كما يصدأ الحديد، ولا بد له من مواصلة مستمرة في الكتابة والتعرف على الجديد من التراكيب والألفاظ والجمل التي تساعدني على تجميل الأسلوب..

وأمام هذا التناقض الذي يعتري الكثيرين يتحمل الجمهور وحده تبعات الصدمة حينما يذهب للمكتبات ويرى على أرففها عشرات الكتب التي تصدر لأناس غير مؤهلين للكتابة أو مدربين على أساليبها، وليس لديهم الحد المطلوب ليتصدروا درجة التأليف، ويقف أحدهم ليقول بهلء فيه: أنا مؤلف.. وتذكر هنا قول القائل: نعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا!

ولمزيد من الوضوح.. أقول: إنني لا أمنعك هنا من الكتابة، بل هي شيء ضروري للمران الذي أشرت له وهي الضرورة لنضج القلم، ولكن لا تقطف الثمر قبل أوانه فيفسد عليك.. أعط كل شيء حقه، ووفي كل نصاب نصيبه.. فالملزعج في الموضوع أن الكتب الهشة الناقصة في رؤية البعض قد تفسد عليه أذواق القراء أو تصرفهم عن القراءة جملة،

ليكتب من شاء أن يكتب وليخط كل راغب في الكتابة، لكنه لابد أن يضع في نفسه أنه سيتعرض لمصفاة القراءة التي لا تبقي في وجدانها إلا النافع والمفيد، ولا تزكي إلا الهادف الجيد.. أما الرديء الباهت فسيسقط ثم تزرؤه الرياح إلى عالم النسيان فلا يجد من يذكره أو يبحث عنه!

التطور في الكتابة شيء طبيعي لدى كل كاتب، وحينما تقرأ الكتب الأولى للشيخ الغزالي رحمه الله تجد الفرق كبيراً بينها وبين ما كتب في مراحلها الأخيرة، فقد نضج الأسلوب، واستوت العبارة، وبلغ البيان مبلغه، حتى إذا قرأت كتاباً من كتبه لا تتركه حتى تنهيه، ونجيب محفوظ نفسه سخر من روايته الأولى التي نشرها له (سلامة موسى) تحت عنوان ( عبث الأقدار) وأطلق عليها عبث عيال!

وقد رصد (عبد الوهاب مطاوع) رسالة وجهت له من الأديب الكبير أنيس منصور وكان يعتز بها ويحتفظ بها في أدراج مكتبته فأنيس قيمة كبيرة فهو الذي أثنى المكتبة العربية بـ ١٨٥ كتاباً وأمام هذا المؤلف صاحب الكتابات الغزيرة وقلمه الساحر الطيع الذي يكتب به في أي شيء يريد، كان هناك شيء غريب كشفت عنه الرسالة التي أظهر مكنونها الأستاذ عبد الوهاب تكشف شيئاً عجيباً لابد لمحترفي الكتابة والناشئين عليها أن يتعلموه .

وتأتي قصة هذا المقال حينما أرسله أنيس منصور لنشره بمجلة الشباب وكان مقالاً فلسفياً عن أفكار الشباب، وأرفق بالمقال رسالة

شخصية للأستاذ مطاوع يطلب منه أن يعطي مقاله قبل النشر لأي شاب يختاره لكي يقرأ، فإذا فهمه بيسر؛ دفع به للمطبعة.. أما إذا تعسر عليه بعض أفكاره فعليه أن يعيده له حتى يعيد صياغته مرة أخرى ويوضح فيه ما غمض، ولكن ماذا كتب أنيس منصور في هذه الرسالة وهو ما عرضه وأمتعنا به عبد الوهاب مطاوع في كتابه عاشوا في خيالي حيث قال أنيس: (عزيزي الأستاذ..

أخشى أن يسيء الشباب فهم هذه الوسوسة الفنية التي صارحتك بها في خطاب شخصي، فهي ملازمة لحياتي كلها، ولا أذكر أنني رضيت قط عن شيء كتبت، على كثرة ما كتبت، وأنا مستعد دائماً أن أعيد صياغة أي شيء كتبت، هل تعلم أن كتابي (حول العالم في ٢٠٠ يوم) بعد أن فاز بجائزة الدولة التقديرية، قلبت فيه، فلم يعجبني؟! فجلست وأعدت صياغته كله في ٨٠٠ صفحة! ولواتسع عمري لفعلت ذلك في جميع كتبي.

وكل الذي أخشاه هو أن يجد الشباب لأنفسهم مبرراً إذا قرؤوا بسرعة ولم يفهموا، أن يكون العيب في الكاتب وليس في القارئ، ولن أقول ما قاله أبوتمام: عندما سألوه: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فأجاب: ولماذا لا تفهمون ما أقول؟ ولا أقول أيضاً ما قاله الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) عندما شكوا الناس من صعوبة فلسفته.. قال: لماذا في كل مرة يفتح أحد كتابا من كتبي، ثم يسمع صوت نهيق حمار يكون هذا الصوت هوصوت المؤلف دائماً؟

إنني كنت أطلب إلى الساعي أمام مكتبي أن يحاول قراءة مقالتي، فإذا وجد شيئاً غامضاً؛ وضع إصبعي عليه.. وكنت أعيد صياغة ذلك، ولازلت مستعداً في أي وقت. إنها مشكلتي أنا وحدي.

أما الذين استغنوا عن التطور فهم قلة نادرة، ولكل قاعدة شواذها وهم عابرة أفاذ تمكنت منهم الموهبة في يفاعتهم المبكرة فدستويفسكي كتب (الفقراء) وهي أول روايته وهو ابن أربع وعشرين سنة، وعرضها على الأديب الروسي الكبير (جوجل) فلم يلبث جوجل إلا أن طرق بابه ليلاً بعد أن قرأها وقال له: لقد ولد اليوم لدينا أديب جبار.. وشيخ العربية (محمود شاكر) وجد مكاناً له بين العمالقة وهو في ريعان الشباب وعشريناته..!

فرق كبير بين أن تكتب ولديك أدواتك وتملك أسلحتك من الدربة والخبرة والذاكرة الغنية بالمواقف والحوادث والتفكير العميق والمتأمل، وبين أن تكتب وأنت حدث غر فقير في معارفك ضئيلة ثقافتك..!

فإذا قضيت عدداً من السنوات في تأليف كتاب واحد، فلا تعيب ذلك في نفسك أوتستنكره، أوتعده منقصة في تكوينك العلمي وتكاملك المعرفي، لأنك بهذا التأخير تحترم ذاتك وقلمك وقبل كل هذا تحترم القراء، بل تحترم المعرفة والثقافة التي تعطيها حقها.. وتضع في جدارها بما تكتب لبنة صحيحة قوية عفية مفيدة مانعة.

تأمل هنا ما يقوله الدكتور (إبراهيم الفقي) رحمه الله في مقدمة

كتابه (البرمجة اللغوية العصبية): ( إن هذا الكتاب قادر على تحسين حياتك، ولكن بشرط أن المعلومات الواردة فيه لن تعمل لصالحك إلا إذا صممت حقا على الاستفادة منها وتطبيقها فعلاً..فهذا الكتاب هو محصلة ما يزيد عن ٢٥ عاما من التجربة والدراسة والتدريب.. ولكن فوق ذلك كله - وأنا حقا أعترف بذلك- هونتيجة أخطائي الشخصية؛ التي أضعفت على العديد من الفرص والأصدقاء )

٢٥ عاما من التجربة والدراسة والتدريب!!.. ياله من عمر مديد نطلق عليه ربع قرن، استطاع من خلاله أن يخرج لنا هذا السفر الهائل المفيد، الغني بالتجارب والنصائح والتوجيهات..

ولكن دعني أقول لك: إن الاطلاع الواسع والقراءة المتعمقة المتواصلة، والدراسة الشاملة، تحمي كتابك وقلمك من هجر القراء، فالذين سلقوا مؤلفاتهم وقدموها للقراء دون أن يمتلكوا أدوات التأليف، كانوا أول الناس إضرارًا بمستقبلهم وجناية على كتبهم، حتى صارت على الأرفف منبوذة مهجورة يعلوها التراب، ولا تمتد إليها الأيدي ولا تعاین سطورها الأعین، لتصیر عبئًا على المكتبة وكما قيل بيض فاسد تحلل مع الزمن!!

انتظمت يوما في دورة (فن المقال) ومما أذكره جليًا ودومًا من مقالات المحاضر: (لا بد أن تتعب على مقالك حتى لا تضحك القراء عليك، اقرأ وابحث واستخرج وتأمل واستنتج، ليخرج مقالك صقيلاً قويًا هادفًا ومركزًا..)، وفي مؤلفي الأول ( رفقا أخي الداعية) ظللت

فترة ست سنوات أجمع وانتقي وأفحص وأفكر في مادته، أما كتابي الثاني (صامدون في وجه الإحباط) فأخذ إعداده ستة أشهر، ولا يشير هذا القصر إلى عدم النضوج، لأن مادته إنما هي حصيلة سنوات مرت من التفكير والتجميع والقراءة، ولم يستجد عليه إلا الإرادة في استخراجة والولوج فيه، وقد وجدنا (سفيتلانا اليكسييفيتش) الحائزة على جائزة نوبل في الأدب تجلس تسع وعشر سنوات لكتابة رواية واحدة.. ولعل هذا التروي منحهاً الاستواء والنضوج في العمل الذي أهلها لجائزة نوبل.!

وهذا الكلام ليس محاولة لإرهاب كل من يمسك بالقلم، وإنما هودعوة وتشجيع أن نفسح المجال لعملية التزود بالمعرفة والقراءة الهائلة.. ولعلي هنا أستحضر قول إبراهيم الورداني في رده على الأستاذ العقاد في معركة أدبية نشبت بينهما: (وأنا لم أبدأ فأكتب يا والدي إلا بعد أن قرأت كل غرف دار الكتب في باب الخلق ودمنهو، ثم قرأت الحياة على صفحة البحر والأرض والسماء..)

أما كتابنا اليوم.. فمنهم من كتب بعد قراءة عشرة كتب أو عشرين كتاباً، وكأنهم يقولون للورداني لا تضيق واسعاً يا إبراهيم.!

كما نجد الكتابة ملحة لدى البعض فهي تريحه وتشعر نفسه في إجرائها بالراحة، فقد يستخرجون معنا جديدًا ربما لم يقع عليه غيرهم، أو يضيفون خبرة مستحدثة جنتها وتحصلت عليها معرفتهم، كما يرى بعضهم أن الكتابة تعبير عن عشقهم للكتاب ووفاء بهذا

الحب الذي لا تمثل القراءة رافده الأوحده، وإنما كان لابد للقلم أن يشاركها فيه، فالقراءة ذخيرة ووقود تشحن به نفسك لتخرج في النهاية وبعد زمن طويل من هذا الشحن بآراء وأفكار وأطروحات لابد للقلم أن يعبر عنها ويتناولها لتصل لكل الناس..

وهنا من سؤال يطرح نفسه: هل من الضروري لكل قارئ أن يكون كاتبًا؟

إن الكتابة موهبة وإبداع وليس شرطًا أن يمتلكها كل من يهوى القراءة ويقتني الكتب، وإلى القراء الذين يجدون في أنفسهم العجز عن الكتابة، لا تتحسروا أو تأسفوا على هذا العجز، لأن حبكم للقراءة وتدوكم لمعانيتها إنما هو في حد ذاته إبداع وموهبة، ولها فائدة كبرى وعظيمة في حياتكم حينما تمنحكم الحكمة والبصيرة والثقافة والمعرفة..

يقول رولان بارت: إن القراءة بذاتها فعل إبداعي.. فلماذا تجشمون أنفسكم مالا تطيق، وترون أن موهبتكم ناقصة، ولن تكمل إلا حينما تمسكون بالأقلام وهي عالم آخر له أدائه وأسبابه ومنحه.

إن بعض النقاد ساءهم أن الأقدار لم تجعلهم كتابا مبدعين، لأن الكتابة هي عنوان البقاء والخلود أما هم فتابعون، وهم لا شك مقصرون في تقدير أنفسهم، لأن النقد في حد ذاته كما يقال: إبداع وفعل خلاق يوازي الكتابة نفسها، وهو الأمر الذي لا يؤمن به كثيرون مما أدى

إلى تراجع حركة النقد وبات أصحابه قلة أمام الأدباء الذين يصعب حصرهم.

لماذا لا يكون الإنسان متوازنًا وعقلانيًا وموضوعيًا مع نفسه، انطلق في حدود موهبتك وفي الإطار الذي تتقنه وتميل إليه وتبدع فيه، لا تكلف نفسك مالا تطيق وإذا حاولت، فإن النتيجة ربما لا تسرك، وهوليس تعقيدًا أو تثبيطًا وإنما أريد فقط أن ألفتك إلى أن الموهبة قيمة في النفس وشعور غامر في حنايا الصدور قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق..!

إننا نجد اليوم ظاهرة التضخم الأدبي، ونعاني من موضة الكتابة التي انتشرت، ولعل السبب في هذا أن دور النشر أصبحت مجرد مطابع تصدر الكتب على نفقة أصحابها ومؤلفيها، وهي عملية تجارية مربحة لا تجني منها الدور أي خسارة..!

( أما ظاهرة تكاثر الكتاب روائيين وشعراء، فلا يمكن ردها فقط إلى ما يكتنف الكتابة اليوم من حال تراجع وانفلات وتقهر واستسهال، بل إنها قد تعود إلى انتشار فضاء الانترنت والفيس بوك وسواهما، وهما ساهما في شيوع عدوى الكتابة ناهيك طبعًا عن الإغراء الذي رسخته وسائل الإعلام والجوائز المتكاثرة والذي يجذب الكثيرين إلى خوض غمار الكتابة.

باتت الكتابة حقلاً مشاعاً لا يخضع لشروط أو معايير هي شروط الإبداع ومعاييرها، هناك كثرة من الكتاب الطارئ والفضوليين اختاروا كما يقال (تجريب) حظهم وركوب موجة الرواية الرائجة، جميع هؤلاء يبحثون عن فرصة، ومعظمهم من القراء، ومن يرصد حركة النشر الأدبي يلحظ حال الطوفان الهائل الذي يسود أفق الكتاب يكفي الاطلاع على أعداد الروايات التي لا يمكن إحصاؤها كلها ما خلا دواوين الشعر الغزيرة، النشر سهل لدى معظم الدور، ادفع أيها الكاتب ننشر لك والمصيبة الجسيمة أن الكتب تنشر ما تحوي من أخطاء فادحة وهنات .

إلى أين تمضي كل هذه الروايات والدواوين؟ هذا السؤال يطرح أيضاً في الغرب في فرنسا التي تشهد حركة مزدهرة في النشر لا سيما في حقل الرواية، تساق الكتب التي لا تروج منذ الأشهر الأولى إلى المستودعات ثم إلى التوزيع شبه المجاني أو التلف التدويري للإفادة من الورق، كم من كتب تخفض أسعارها للفور إذا لم يبع منها ولو القليل، ثم إلى رحلة الوداع .

إلى أين تمضي كل هذه الكتب في عالمنا العربي ؟ يجد الناشر لها حلاً سهلاً إلى المستودعات وعندما تضيق المستودعات، فيالئ التوزيع المجاني والعشوائي أو التلف والتدوير والناشر كل ما يهمهم إفراغ المستودعات لتملاً من جديد..

أيها القاريء لماذا لا تكتب ؟ البازار مفتوح جرب حظك، أما كفاك  
كم أمضيت من ساعات تقرأ وتقرأ؟ ألم يحن دورك لتكتب، فيقرأ  
الآخرون ؟ ولكن إذا غاب القراء فمن يقرأ ؟ إننا نكتب وكفى.)<sup>(١)٨٤</sup>

وقد حاول الدكتور (علي العمري) في أطروحة جديدة وذكية ورشيذة  
ومتوائمة مع الطموح الجارف أن يثني هؤلاء الشباب الجريء على  
التأليف وعامله لينقذ المعرفة والثقافة من إضافاتهم القاصرة العاجزة..  
فلم يحرمهم من التصنيف وفي نفس الوقت، حافظ على هيبه  
التأليف في فكرته المتوازنة يقول العمري: ( قديماً ذكر سلفنا الصالح  
أسباباً للتصنيف، منها اختصار كتاب مطول، أو شرح كتاب مختصر  
أو الكتابة في شيء جديد، أو تميم موضوع قديم، واليوم تجددت صور  
الكتابة والتأليف، وفي تقديري أنه يمكن لبعض الشباب أن يكونوا من  
أصحاب التصنيف الذي هو أقرب إلى الإعداد منه إلى التأليف.!

ومثال ذلك لوانبري بعض مستخدمي الانترنت بجمع أهم المقالات  
التي مرت عليهم طوال العام، وتصنيفها حسب الموضوعات، مع  
مراعاة الاختيار في حجم المقالة وسهولتها وقربها من القراء وعرض  
ذلك على خبير، لكان لهذه المقالات المجموعة دوي وتأثير، وكذلك  
لوانبري شخص آخر لاختيار ما سمعه من أشرطة أو مقطوعات أو ما  
قرأ من قصص أو مقابلات، واشترط في اختياره الجودة والتجديد  
وإبداع الإخراج، ومثله شاب ثالث يضع في ذهنه عنوانا مهماً بالغ

---

٨٤ صحيفة الحياة من مقال عبده وازن ٢٦/١٠/٢٠١٥م عدد ١٩١٩٧

التأثير والحاجة للجيل، فيجمع الشبيه إلى الشبيه من البحوث والأشعار والمقالات والقصص والصور الإبداعية إضافة إلى الكتب والمجلات والانترنت، لكان عملاً جاداً ونافعاً.

## المحتوى

٣	حاتم سلامة
٧	مقدمة
١٣	الكتاب في حياتي
٣٠	القراءة هي الحياة
٣٩	القراءة طريق النهوض
٤٨	أمة القراءة
٦٤	عشاق القراءة
٧٥	لماذا نقرأ؟
٨٥	التشجيع على القراءة
٩٧	في صحبة الكتب
١١٠	حتى لا يضيع العمر!
١٢٠	أطفالنا والقراءة
١٤٥	الأدب في ساحة المواجهة!
١٥٥	كتب مؤثرة
١٧٢	الأمم الواعية
١٨٣	نحن وهم!
١٩٦	الإرث المهدور!
٢٠٥	الأقلام المتفعرة
٢١٧	الأقلام التافهة
٢٢٥	حياتكم ملك لنا!

٢٣٤	عبودية الحرف !
٢٤٨	القراءة والتفكير
٢٥٨	الرقابة الحكيمة
٢٦٤	كنت لصًا..!
٢٨٠	الأنوثة المثقفة !
٢٩٠	الرماد النفيس
٣٠٤	كتب ممنوعة !
٣١٣	كتب خلف القضبان
٣٢٨	كتب صنعت مستقبلهم !
٣٤٢	التلفيق الثقافي
٣٥١	العلاج بالقراءة !
٣٦٠	همع الهوامع !
٣٦٦	القاريء الجبار
٣٧٧	لماذا يقرأ الطاغية ؟!
٣٩٠	الفرق بين الثقافة والعلم !
٣٩٦	تشيخوا قبل أن يشيخوا !

obeikandi.com

رقم إيداع ٢٠١٦/٢١٩٩ ط١

التقييم الدولي / ٩-٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨



ليبيج للنشر  
والتوزيع